

سلسلة
عالم
الثقافة

7



بقلم
الأزرق بن علو

منارات
في رحاب الأدب العالمي

منارات
في رحاب الأدب العالي



7 سلسلة عالم الثقافة

منارات في رحاب الأدب العالمي

إعداد

الأزرق بن علو

الناشر

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

اسم الكتاب: منارات في رحاب الأدب العالمي

اسم المؤلف: الأزرق بن علو

سنة النشر: 2008 م

رقم الإيداع: 2007/21954م

الترقيم الدولي: 4 - 09 - 6240 - 977 - 978 .

الناشر

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

E-Mail: modern_qubaa@hotmail.com

الإدارة: (16) عمارات العبور - شارع صلاح سالم -

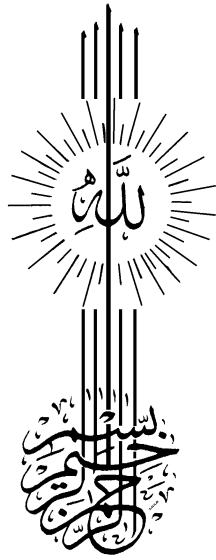
الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: 02/22621365

محمول: 0123140315 - 0123171722 - 0123171744

حقوق الطبعة محفوظة للمؤلف

2008م



المحتويات



رقم الصفحة	الموضوع
15	* مقدمة
القسم الأول	
ملخصات من الأدب الروماني	

39	- حول الخطابة والخطباء
41	- الفلسفة علاج النفس
43	- متاعب العشق
45	- وفاة عليسة (ديدون)
47	- إلى ميسان
50	- إلى لوليوس
52	- تاريخ الشعب الروماني
55	- حياة القناعة والرضى
58	- من باريس إلى هيلين (رسائل الحب)
62	- من فيليس إلى ديموفون
64	- الحياة السعيدة
69	- رسالة إلى لوسيليوس
73	- العناية الإلهية

رقم الصفحة	الموضوع
76	- حول صلاح السلطان وفساده
78	- الإنسان مخلوق بئيس
80	- تأملات حول الحياة والموت
83	- الأرملة والجندي
86	- صولون
91	- عن الخجل والوقاحة
95	- ماركوس كاتو الأكبر
98	- إمبراطور يقتل أمه
103	- تعاليم أخلاقية
106	- إلى المؤرخ

الفسم الثانى

ملخصات من الأدب الفرنسى

111	- مباحج الزواج الخمسة عشر
113	- الحسرات
115	- حول الخيال والمخيّلة
119	- حول التجارب
125	- حديث الحب والحياة
127	- حديث النفس

رقم الصفحة	الموضوع
131	- حول الطبيعة والحظ
134	- حكاية الأسد العاشق
137	- التسلية والترويح عن النفس
141	- حبّ الذات
143	- أخلاق وعادات هذا العصر (حول النساء والرجال)
147	- حول أسباب التعلق بالعقائد والديانات
150	- حول المعابد
154	- العقل والحقيقة
157	- رب سيئة يعقبا خير كثير
160	- علاج لا يخيب
162	- العشاء
165	- حول أفكار السيد باسكال
167	- الأنف
169	- ميكروميغا
174	- «إميل» أو حول التعليم
177	- صالون 1767
180	- حول سلوك النساء المستهترات
184	- نظام الطبيعة
186	- من نتائج الحضارة المتطورة
189	- حول الحقوق السياسية للسكان السود في المستعمرات

رقم الصفحة	الموضوع
191	- رسائل مواطن من جنيف
193	- نظرية الحركات الأربعة
196	- حول الحبّ
199	- الثورات
201	- ستيلو
204	- الجلد السحري
208	- أسطورة العصور
210	- تشجيع الإنتاج الأدبي
212	- الجمال والتجميل
214	- خوري القرية
216	- الشعور بالعزلة
220	- النافذة
222	- عندما تكتب التوصيات، احذر العواقب!
224	- الطلاق
226	- ثمرات الأرض
228	- ديپورو
230	- هل أتكلم؟
232	- محاولة وصف حفلة عشاء
235	- بيكاسو يتجول
237	- مذكرات فتاة

رقم الصفحة	الموضوع
239	- شرح الشباب
241	- عودة إلى الوطن

القسم الثالث

ملخصات من الأدب الإنكليزي

245	- الملك أرتور وفرسان المائدة المستديرة
249	- وفاة الملك أرتور
252	- روبن هود ورفاقه
255	- الإنسان
259	- لقاء كليوبترا ومارك أنطونيو
261	- دفاع عن الشعر
263	- عن العادة والتربية
266	- عن الثروة
269	- الوظائف ومناصب المسؤولية
273	- عن الربا
277	- الدرس والمطالعة
280	- عن الحب
283	- خير الكلام
285	- الكميائي المزيف

رقم الصفحة	الموضوع
288	- ملتون يكتب إلى البرلمان
291	- تأملات حول الموت
293	- مقالات عن الشعر المسرحي
297	- حكاية «حوض استحمام»
299	- الإنسان والمكنسة
301	- جوزيف أديسون
304	- رتشارد ستيل
307	- رسالة عن النقد الأدبي
310	- الدكتور صمويل جونسون (يكتب إلى اللورد تشستر فيلد)..
313	- مقدمة لشكسبير
322	- حياة الشعراء «حول قصة الفردوس المفقود»
325	- حول تطوير الفنون وحياة الترف
329	- حول دراسة التاريخ
332	- تأملات حول الثورة الفرنسية
335	- تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها
338	- عند الشدائد
340	- القصائد الغنائية
342	- أوّل لقاءى بالشعراء
344	- عن الأديب سويفت
347	- مانفريد (مسرحية خيالية)

رقم الصفحة	الموضوع
351	- كارليل يتحدث عن بيرنيز
354	- كارليل يبدأ من جديد
357	- الجنتلان (أو من مكارم الأخلاق)
359	- دفاعاً عن رأيي العقائدية
361	- الإنسان البدائي النبيل
364	- أفسدوا الحياة : الأرض، الماء، الهواء
368	- الثروة والفروسية
370	- حول جامعة أكسفورد
373	- الرجال قوامون
377	- نظرة إلى الماضي
380	- لؤلؤة الحب
383	- التحفة
388	- هل توقد الشمعة من طرفيها؟
391	- الألعاب الرياضية؟ ضياع للجهد والوقت
394	- الألعاب الرياضية؟... الرأي الآخر
398	- حول مطالعة الكتب
401	- جدال؟ أم قضية ذوق؟
402	- ملخص رأي الكاتب الإنكليزي ألدوس هاسكلي
405	- ملخص رأي الكاتب الإنكليزي فرانكاو

المقدمة

حول مواصفات ظاهرة الأدب الكلاسيكي
والحركة الرومانسية في الأدب الغربي



دعاني صديق إيطالي ذات يوم من صيف 1995 إلى حضور حفلة زواج ابنته في روما، المدينة الخالدة، ونظمت الحفلة في فندق جميل، وتفنى المسؤول في زخرفة القاعة بمختلف اللوحات الفنية، والألوان الزاهية، والأضواء المريحة، والموسيقى الهادئة، وجرت الحفلة في جو رومانسي بهيج. وبعد أن غادر معظم المدعوين، انتظمت أسرتنا العروسين حول طاولة كبيرة، ودعوني إلى البقاء معهم بعض الوقت؛ دار الحديث حول موضوعات شتى، منها الرومانس، والرومانسية، والكلاسيكية. وقبل مغادرة الفندق وعدت العروسين بأن أعدّ لهما ورقة حول الموضوع. وكانت نتيجة بحثي هذه الورقات التي أقدمها اليوم إلى القارئ الكريم، آملاً أن تفي بالمراد.

طبقت شهرة الشاعر اليوناني هومر (هوميروس) الآفاق، بعد أن ألف ملحمتيه الإلياذة، والأوديسة، ويعتقد أن ذلك حدث خلال القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد.

بعد ذلك بفترة طويلة، برز أدباء عهد الأدب الكلاسيكي في اليونان، أثناء القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وتمثل ذلك في مؤلفات عديدة منها تراجيديات الشاعر سوفوكليز، وكوميديات الشاعر أرسطوفان، وفي العديد من مؤلفات فرسان الأدب والفلسفة والتاريخ الأوائل من أمثال الفيلسوف أفلاطون والمؤرخ ثوسيديديس، ولوكريتيوس، وديموستينيس، وغيرهم.

وكان الرومان، في بادئ الأمر، ينظرون إلى اليونانيين على أنهم وحدهم أصحاب الأدب الكلاسيكي الرفيع، ولكنهم سعوا إلى الإجابة في إنتاجهم الأدبي، إلى أن جاء عهد انتعش فيه الأدب في روما بمؤلفات شيشرون (80 - 43 قبل الميلاد)، وفي عهد الإمبراطور أغسطس (37 قبل الميلاد - 14 ميلادية) عندما ازدهر الإنتاج الأدبي على أيدي أدباء وشعراء من أمثال فيرجيل، وهوراس وغيرهما.

ثم أرخت العصور الوسطى (400 - 1200) ظلالها على الإنتاج الأدبي والفني والعلمي، واحتفظت الكنائس في خزائنها بما بقي من مؤلفات عهد الازدهار السابقة، وخبث مشاعل المعرفة في أوروبا خلال قرون طويلة، ولو أن بصيصاً من النور ظل يظهر من حين لآخر، وكان يتمثل في مؤلفات تعالج موضوعات اللاهوت والعقائد، وأخرى تتناول القصص الشعبية، والمغامرات الرومانسية، من ذلك قصص الملك أرتور وفرسان المائدة المستديرة، وحكايات الملك شارل ماني، وملحمة الفارس رولان، ورواية «الوردة»، وقصص الأساطير، وبعض المسرحيات التي عالجت موضوعات أخلاقية وبطولية وعقائدية.

ومرت قرون على أوروبا كانت سماء الأدب والفن فيها شاحبة قاحلة، إلى أن جاء عهد النهضة، بعد أن نشطت الاتصالات بين أوروبا والشرق الأوسط، وبينها وبين الشرق عامة، وتوسعت الرحلات بين القارات، وانتعش التبادل التجاري والعلمي، وظهرت طبقة جديدة من التجار المغامرين، وأخذت سيطرة الكنيسة على العقول تتراجع، ورافق الانفتاح على العالم تفتح الأفكار، ونشط الوعي القومي في بلدان كثيرة، وبدأ الناس يتوقون إلى اكتساب المعارف الجديدة، واهتم السكان بخصوصياتهم المحلية فعملوا على تطوير لهجاتهم، فاستنارت العقول، وضعفت سيطرة اللغة اللاتينية، وبدأ إنتاج نوع جديد من الأدب والفن باللغات المحلية، وراح الأدباء يستلهمون عهود الأدب الذي ازدهر قديماً في بلاد اليونان والرومان.

بدأ عهد النهضة الأدبية في إيطاليا عندما لمع في سمائها عدد من كبار الأدباء مثل دانتي صاحب «الكوميديا الإلهية»، وبوكاتشو صاحب كتاب «الديكاميرون»، وبيترارخ، ثم بعد حين ماتيو بولاردو، صاحب كتاب «أورلاندو العاشق»؛ وتوسع اهتمام الأدباء بالإطلاع على مؤلفات هوميروس وفيرجيل وهوراس وشيشرون وغيرهم؛ وساعد اختراع الطباعة على نشر المعرفة وجعل الكتب في متناول أعداد كبيرة من الناس، وبذلك بزغ عهد جديد على أوروبا.

أخذ الإنتاج ينتعش تدريجياً، وشمل نشاط النهضة الأدبية فرنسا، فبرز فيها أدباء من أمثال فرانسوا رابليه، ومجموعة من شعراء «نجوم الثريا» وزعيمهم بيير دي رونسار؛ ومن كبار كتاب عهد الانتعاش الأدبي ميشيل دي مونتاني، صاحب كتاب «المقالات» الشهير.

واستمر الإنتاج الأدبي يرتقي سلم التطور والازدهار في فرنسا، فظهر أدباء سطعت نجومهم في سماء الأدب الكلاسيكي. ومن شعراء هذا العهد فرانسوا دي ماليرب، وبوالو صاحب كتاب «فنّ الشعر» ولافونتان، صاحب مجموعة «حكايات الحيوانات» الشهيرة؛ ومنهم مؤلفو المسرحيات التي أخذت الطابع الكلاسيكي؛ ومن أبرزهم كورناي الذي اشتهر بمسرحياته التراجيدية مثل مسرحية «السيد»؛ ومنهم جان راسين، ومن مسرحياته «أندروماك» و«فيدرا» التي تعتبر مثالاً على المسرحية الكلاسيكية؛ ومنهم موليير، أشهر كتاب الملهاة، ومن أشهر مسرحياته الهزلية «طرطوف»، و«دون جوان»، و«مبغض البشر»؛ ومنهم لابرويير، صاحب كتاب «أخلاق أو عادات هذا العصر».

وقد حدثت هذه التطورات في الأدب الكلاسيكي الجديد (بالنسبة للأدب الكلاسيكي في عهد اليونان والرومان)، في فرنسا، في القرن السابع عشر، وخاصة في عهد الملك لويس الرابع عشر الذي أولى اهتماماً كبيراً للأدب، راح يقدم المساعدات المادية والمعنوية للأدباء، وبذلك أصبح المجال مفتوحاً أمام أصحاب الكفاءة والعبقرية للانضمام إلى مركب الأدب الكلاسيكي الجديد.

واصل الإنتاج الأدبي مسيرته في فرنسا، ولو بطريقة متقطعة، عن طريق الأديب فولتير وتبعه في هذا المضمار الأدباء العقلانيون في القرن الثامن عشر، ثم ظهرت في القرن التاسع عشر مجموعة من الأدباء عرفوا باسم «البرانسيين» وهي مدرسة ظهرت في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن المذكور، وصرف أصحابها اهتمامهم إلى

الشكل الأدبي وصناعة الأسلوب، أكثر من اهتمامهم بالمشاعر والأحاسيس الوجدانية.

وقد ساد عهد الأدب الكلاسيكي في إنكلترا خلال فترة طويلة كذلك، من عهد الشاعر الذي طبقت سمعته الآفاق، شكسبير الذي ترك للعالم سبعةً وثلاثين مسرحية، تناولت موضوعات متنوعة، ومن أشهرها مسرحيات هملت، روميو وجولييت، تاجر البندقية، ماكبث، يوليوس قيصر، الملك لير، أنطونيو وكليوباترا...

ومن أدباء العهد الكلاسيكي الجديد في إنكلترا الشاعر جون ملتون، صاحب «الفردوس المفقود» و«الفردوس المسترد»؛ والشاعر دَرايْدنْ، وألكسندر بوب الذي اشتهر بمؤلفه «مقالة حول الإنسان»، و«مقال في النقد»، وقصيدته الساخرة «اغتصاب خصلة»؛ ومنهم الشاعر الناقد الساخر سويْفْتُ الذي برع في النقد الاجتماعي، وهو صاحب «رحلات غاليفار» الشهيرة؛ والدكتور جونسون الشهير، صاحب القاموس، ومعه جماعة النادي الذي كان يتزعمه، ومنهم بوزويل، غيبون، غولد سميث وغيرهم.

تعريف ومميزات الأدب الكلاسيكي

تعني كلمة CLASSICUS في اللاتينية، مواطناً من الدرجة الأولى، ومن الطبقة العليا، ومن معانيها الجودة والامتياز. ثم استعملت هذه الكلمة مجازاً كوصف للأديب المتميز الذي بلغ إنتاجه مستوى الجودة. ثم أصبحت الكلمة تطلق على الأدب الرفيع الذي يدرس في

المدارس والمعاهد. وكان هذا الوضع فى بادئ الأمر يتعلق بالأدب اليونانى والرومانى.

وظلت فكرة الكلاسيكية غامضة فترة طويلة، فوضعت لها تعاريف متشعبة وأخرى مرنة. وتعتمد ظاهرة الأدب الكلاسيكى أساساً على ثلاث ركائز هي:

- العقلانية، وهي الاعتماد على العقل، والفكر، والواقعية.

- المبادئ المسيحية، لأنها ترشد العقلانية حتى لا تضع فى متاهات الميتافيزيقيا.

- النزعة الإنسانية فى الأدب اليونانى والرومانى، وهي نزعة تثرى الثقافة المسيحية.

ومن مواصفات الأدب الكلاسيكى أنه أدب منضبط، يهتم بالمضمون والشكل معاً، ويلتزم بالموضوعية والدقة الفنية، بدلاً من التركيز على الخيال والتجربة الشخصية، وعلى المشاعر العاطفية الفردية. ومن سمات هذا الأدب أنه متحفظ، واقعي، متواضع، ولكنه أدب رفيع جيد، صالح للاستمرار عبر القرون، وللانتشار عبر القارات. فالقطعة منه تثير الإعجاب، وتحقق مركزاً معترفاً به عبر فترة زمنية طويلة جداً، بل يكتب لها الخلود بفضل جودة محتواها وأسلوبها، ولأنها تخاطب الفكر الإنسانى عامة عبر الزمان والمكان.

يقول الأديب سانت باف فى هذا الصدد ما مفاده «إن الأديب

الكلاسيكي الحقيقي هو من يثرى بإنتاجه الفكر الإنساني، وينمي كنوز الحياة الأدبية، ويحقق للإنسانية جمعاء خطوة إيجابية في سلم التطور الفكري. إنه أديب اكتشف حقائق معنوية، وكشف عن مشاعر داخلية خالدة في قلب الإنسان».

ويتضح من تعريف سانت باف للأديب الكلاسيكي أنه لا يخص به حقبة معينة أو مكاناً محدوداً دون آخر. وهو لا يشترط صيغة معينة لهذا الأديب، ولا أن تكون «الأصالة» من أعلى مميزاته، عندما يقول كان الشاعر الروماني فرجيل يقلد الشاعر اليوناني هوميروس؛ وكان الشاعر الإيطالي دانتي يقلد فيرجيل، ومع ذلك يعتبر كل من فرجيل ودانتي من أشهر أدباء الكلاسيكية.

يرى الأدب الكلاسيكي أن العقل هو الموهبة الأولى، والملكة الأساسية التي تكشف حقائق سلوك الإنسان بما فيه من تنوع وغموض وتقلب، وبذلك فقط تتجلى صورة الإنسان واضحة كاملة، سواء أثناء تقلبات مشاعره وعواطفه أو استقرارها. كما يولي الأدب اهتماماً كبيراً للطبيعة في مختلف مشاهدتها وتجلياتها، لأنها تمثل عناصر الحياة الواقعية.

ويعير الأدب الكلاسيكي اهتماماً خاصاً لجملة من المعايير مثل دقة التعبير، والتناسق، والتناسب، والوضوح، ولكل ما يجعل الشكل والأسلوب يتلاءمان مع نوع الإنتاج الأدبي الجيد. وقد دون الشاعر الفرنسي بوالو هذه المعايير والضوابط في كتابه «فن الشعر»، ونجد هذه المواصفات والمميزات في تراجميات الشاعر الفرنسي راسين،

وكوميديات موليير، وحكايات لافونتان، ومواعظ بوسوي، وتأملات باسكال، وفي مؤلفات كثير غيرهم من أدباء وفناني الأدب الكلاسيكي.

وهناك تعريف لظاهرة الأدب الكلاسيكي، وضعه قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1835، يصف الأدباء الكلاسيكيين بأنهم أولئك الذين أصبح إنتاجهم الأدبي نماذج تحتذى في أية لغة من اللغات. ولا يكتفي الأديب سانت باف بهذا التعريف الأكاديمي، فيضيف بأنه لا بد أن تتوفر في هذا النوع من الأدب مواصفات أخرى تجعله مرناً وشاملاً ونموذجياً، لكي تتبنى موضوعاته الأفكار العامة، ويتناول ما ينجزه الإنسان من أجل ترويض ما هو جامع، مستعص، ومتمرد في الطبيعة. ومن المعايير الأساسية في نظره أن يكون هذا النوع من الأدب واسع الأفق، رفيع المعنى، عظيم المغزى، مصقولاً، سليماً، يدركه العقل والإحساس معاً.

الحركة الرومانسية

من المهم أن يتساءل المرء: ماذا تعني كلمة «رومانس»؟ وما هي حركة الرومانسية في الأدب؟، وما هي الظروف التي ظهرت فيها؟ وما هي مميزاتها وأهدافها؟ إن كلمة «رومانس» في الأدب تشير إلى أنواع الأدب الذي ساد خلال القرون الوسطى، وهو يشمل:

- الحكايات التي تروي مغامرات الفرسان، وبطولات الفروسية، وسعى أولئك الفرسان وراء المثل العليا.

- قصص الغرام وحياة الرفاهية، والأخلاق النبيلة مثل الشجاعة والوفاء والعدل والشهامة والتضحية في سبيل المحبوب...

- القصائد الغنائية التي تروي الأخبار البطولية.
 - المسرحيات الهزلية والقصص الشعبية.
 - الحكايات الأسطورية مثل حكايات الوحوش المخيفة، والأخبار الخرافية والمشاهد الغريبة.
 - قصص البطولات والمغامرات في بلدان شمال أوروبا.
- وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، اكتسبت كلمة «رومانس» معنى أعم فأصبحت تعبر كذلك عن الروايات الغرامية والخيالية بصورة عامة.
- وقد بدأ استعمال عبارة «الحركة الرومانسية» للتعبير عن الحركة الأدبية الجديدة في نهاية القرن الثامن عشر. وكان التفكير في الغرب قد بدأ ينتقل من إنتاج الأدب الكلاسيكي، الأدب التقليدي العقلاني، إلى إنتاج أدب المفاهيم، وهو أدب يرمي إلى التأثير على سلوك الفرد، ويسعى إلى تحرير عقله، وتفجير مشاعره، لكي يواكب مرحلة التغييرات الاجتماعية والتطورات الفكرية التي غزت مجالات العلم والفن، وخلقت انبعاثاً جديداً في جميع الميادين الحيوية.
- وبناء على ما تجمع من تجارب الماضي، بدأ الفكر الفردي، والمزاج العام في أوروبا يتغير ويتطور ليُنتج إنسان النهضة الجديد في العصر الحديث. فبعد أن دربته عهود الكلاسيكية العقلانية على أن يكون واقعياً، منسجماً مع الطبيعة في هدوء واطمئنان، أدرك في

يقظته الجديدة أنه لا بد أن ينهض ويتمرد ويثور ويتحدى وينشط ويضحى لينال حريته ويحقق آماله، وليتقدم فنياً وعلمياً واقتصادياً .

واتجهت الطبقة الثرية آنئذ إلى إنشاء المصانع، واستغلال التقنيات الحديثة، فزاد الإنتاج وتوسعت المدن، وتجمعت أعداد كبيرة من السكان حول المصانع، تعيش في ظروف سيئة، وحدثت موجات الاحتجاج للمطالبة بتحسين ظروف العمال. وجاءت مبادئ الثورة الفرنسية فعززت مطالب شعوب كثيرة، وأيقظت الضمائر، فنادى الناس بالعدالة الاجتماعية.

وبدأ تأثير العقائد يتقلص، وأخذت سيطرة الأدب العقلاني تتراجع، وأصبح عدد من الكتاب في مختلف البلدان يشعرون بأعباء رسالتهم، وصاحب ذلك شعور بالقلق فراحوا يبحثون عن مرجعيات وقيم جديدة، فاستلهموا أعماق الطبيعة وأسرارها، ومجالات المشاعر الفردية، وميادين الحياة اليومية، كما استلهموا الأحلام والأساطير، والأعمال الرومانسية التي تتغنى بالحب والفروسية والأخلاق النبيلة والمثل العليا.

وفي جو من الشعور بالخيبة لدى الطبقات الفقيرة، وظروف اجتماعية مواتية للطبقة الثرية لاستغلال الطبقة الكادحة، شعرت هذه الأخيرة أنه من حقها أن تشكل جزءاً من الحياة الثقافية القومية، وبدأ الفرد يشعر بأهميته، وأنه عضو فاعل في وسط مجموعته، في هذه الظروف ظهرت حاجة ملحة إلى نوع جديد من الأدب، فنهض أدباء جدد، واستجابوا لرغبات الناس عامة، فراحوا يكتبون عن الحياة كما

يشاهدونها، يصورون ويحللون حسناتها وسيئاتها، سواء توافقت مع الأعراف والاتجاهات الأدبية والفنية أو خالفتها. وساعد على ذلك ما توفر لدى الأدباء من الجرأة وحرية التعبير والمادة الغزيرة المواتية في ظروف النهضة الجديدة.

وكان مما شجع على ازدهار الحركة الرومانسية كذلك انعدام الحماس لدى الطبقة الوسطى تجاه الأدب الكلاسيكي الملتزم، والحنين إلى إحياء أدب القرون الوسطى لما يحتويه من مغامرات وقصص توفر المتعة، وتوسع الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية وظروف حياة الجمهور، وزيادة اهتمام القراء بالأدب والأديب، مما جعل هذا الأخير يسعى للاندماج في مجتمع قرائه، ويبحث عن موضوعات جديدة تهم الطبقة الوسطى من القراء، يضاف إلى ذلك زيادة اهتمام الأدباء بالحياة بين أحضان الطبيعة والتغني بمباهجها.

بدأ نشاط الحركة الرومانسية في الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر، كما تقدم، وانتشرت فعاليتها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وغزت جميع مجالات الحياة، وكانت تمثل ثورة ضد ظاهرة الكلاسيكية الحديثة التي تميز أدبها بالانضباط والمنهجية ومراعاة الأذواق والتقاليد. وكانت ردود فعل الحركة الرومانسية عميقة وشاملة وفعالة في مواجهة ظاهرة الكلاسيكية التي سيطرت على الأدب الأوروبي أكثر من مائة سنة.

ففي فرنسا نشرت الأدبية مدام دي ستايل رسالة عن الرومانسية تحت عنوان «حول الأدب» سنة 1800، ثم نشرت كتاباً آخر عنوانه «عن

ألمانيا» عام 1810، أصبحا يمثلان جانباً من جوانب الحركة الرومانسية.

وفي إنكلترا، نشطت الحركة الرومانسية عندما نشر الشاعران WORDSWORTH وكولريج كتابهما «الشعر الغنائي» سنة 1798. وتواصل إنتاج الأدباء الرومانسيين في البلدين، ومنهم بودلير، لامرتين، هوغو، كيتس، بايرون، وغيرهم.

والواقع أن الأسبقية في ميدان الحركة الرومانسية كانت لألمانيا، ومنها انتشرت إلى فرنسا وغيرها. ففي ألمانيا ساهم الفيلسوفان فيخته، وشيلنغ في ميلاد هذه الحركة؛ ثم ساعد الأخوان شليغل، ونوفاليس، وهوفمان على توطيد الاتجاه الرومانسي. وفي إيطاليا، انطلقت الحركة الرومانسية قبل القرن الثامن عشر، ولكن مساهمتها لم تزدهر إلا بعد فترة من الزمن، وممن ساهموا في هذا المجال الأديبان أَلِسَنْدَرُو مانزوني، وجاкомо ليوباردي.

بدأت الحركة الرومانسية تهدأ قليلاً بعد منتصف القرن التاسع عشر، ولكنها عادت تنتعش في الفترة الأخيرة منه، فظهرت في أشكال مختلفة منها: الرومانسية الحديثة، والرومانسية الرمزية، والمذهب التعبيري، الذي لا يهدف إلى تصوير الحقائق الموضوعية، بل إلى تحليل المشاعر التي تثيرها الأحداث في نفس الإنسان؛ ومنها مذهب «المستقبلية»، وهي حركة فنية نشأت في إيطاليا، وتميزت بالدعوة إلى طرح التقليد، وإلى التعبير بحرية عن الطاقة الدينامية التي تميز الحياة المعاصرة.

وهكذا يتضح أن الحركة الرومانسية ليست نزعة محددة، بل تشمل اتجاهات متعددة، ومجالات فكرية وأخلاقية واجتماعية واسعة النطاق، مثل الرومانسية الليبرالية، والرومانسية الاشتراكية، والرومانسية الواقعية (في المسرح)، والرومانسية القومية، عندما أخذ بعض الأدباء يمجدون تراثهم الأصلي، ويسعون فيما يؤلفون إلى إحياء لغاتهم المحلية وفنونهم القومية.

وعلى الرغم من اختلاف مناهجها واتجاهاتها، وتعدد البلدان التي نشأت فيها، أنتجت الحركة الرومانسية أدباً عالمياً متحرراً، يعبر عن التجارب الإنسانية، وعن مشاكل الحياة اليومية، بأسلوب جديد وجريء، ويعالج ما حدث من تغييرات وتطورات في مجتمعات العصر الحديث بحماس وفكر مستتير. وقد نجحت هذه الحركة في التأثير على مجالات مختلفة من النشاطات الاجتماعية.

ويتضح بهذا أن الحركة الرومانسية ليست كما يتصورها بعض الناس مقتصرة على مشاعر الحب والغرام، وعلى التمتع بظروف الحياة المريحة التي يكتنفها الجمال والرخاء وطيبات الدنيا وزخارفها؛ كما أنها ليست حياة العزلة والاسترخاء والكسل والتواكل؛ بل إنها حركة استغلت المواهب والمشاعر، والإلهام والتخيل، لتفتح أمام الإنسان آفاقاً جديدة لتدعوه إلى التحرر من قيود الماضي، إلى العمل والعلم، وإلى التمرد من أجل تحقيق وسائل التطور، وتطوير وسائل الإنتاج، ولخلق مستقبل أكثر ازدهاراً، والعيش في عالم أوسع آفاقاً.

ولكن إلى جانب هذه الآفاق الجديدة، اتسع مدلول الرومانسية ليشمل كذلك الظروف والمشاهد الشعرية، والمناظر الطبيعية الجميلة، فيقول المرء: سهرة رومانسية، وعلاقة رومانسية، ومقولة «الماء والخضراء والوجه الحسن...» توحى كذلك بجو رومانسي.

مواصفات وخصائص أدب الحركة الرومانسية

من المهم الملاحظة أنه لا يمكن تقييم فترة من فترات ظاهرة الأدب الكلاسيكي أو الأدب الرومانسي، أو الحكم على الإنتاج الأدبي في عهد من العهود، بصورة واقعية موضوعية شاملة، دون مقارنة ذلك بفتريات أخرى من ذلك الإنتاج الأدبي تكون ظهرت في ظروف اجتماعية مختلفة.

ولقد سعت الكلاسيكية الحديثة إلى إحياء أساليب الأدب الكلاسيكي القديم، كما كان في عهد اليونان والرومان قديماً، معتمدة على ضوابط محددة مثل الواقعية والدقة، متجنباً الإفراط في الخيال والموضوعات الغريبة؛ وأصبح أدب الحركة الرومانسية يرفض التقيد بتلك الضوابط والمنهجيات والمثاليات، فساهمت بذلك في تحرير الإنتاج الأدبي الجديد من القيود، وراح أدباء هذه الحركة يتناولون، بروح جديدة وفكر منطلق، المشاكل المادية والروحية والثقافية والاجتماعية.

إن الرومانسية مجموعة من الخصائص والمميزات موجودة في جميع الآداب، وفي مختلف الأماكن والعصور. ولا تختلف من زمان إلى آخر إلا في درجة احتوائها على تلك المواصفات والخصائص. والواقع

أن درجة «الكلاسيكية»، ودرجة «الرومانسية» التي يوصف بها أيّ إنتاج أدبي في أيّ عصر من العصور، إنما تحدد على أساس المميزات التي يلتزم بها ذلك الإنتاج الأدبي. ومن الملاحظ أن قدرًا من الأدب الرومانسي قد وجد أثناء فترات ساد فيها الأدب الكلاسيكي، ولذلك لا ينبغي للناقد أن يتبنى مواقف متشددة في هذا المجال.

وقد ظهرت تعاريف متعددة لحركة الرومانسية، وفقًا لاتجاهاتها المتتالية أو المتباينة؛ وأصبح مفهوم الرومانسية يضم تحت رايته سلسلة من الأدباء والأعمال الفنية المختلفة في موضوعاتها وأساليبها عن المميزات التي جرت عليها الكلاسيكية.

فالرومانسية في الأدب هي اتجاه يميل إلى عالم الخيال، والهوى والرغبات والتطلعات، وينبعث من العالم الداخلي، بما فيه من إلهام وفوضى وابتكار، وكل ما هو رائع وجميل وغريب. وهي تحاول أن تكشف عن خبايا العوالم الخفية وأسرار الطبيعة، وما يكتنفها من الظواهر والتجليات، والتأملات الباطنية، والتبصر الروحاني، وعن الظواهر الغريبة التي لا تكشفها الحواس ولا يقيدتها العقل.

الرومانسية في الأدب تركز على البديهة والمشاعر والتلقائية، وليس على العقل والمنطق والتحفّظ والتنظيم. فهي تطرح جانب الأعراف والتقاليد، وتؤكد حرية الفرد. فالكاتب الرومانسي لا يتقيد في مسرحيته، مثلاً، بوحدة الزمان والمكان؛ ويلجأ إلى اصطيات أفكاره ومشاهده إلى عوالم المخيلة والأساطير والخرافات الشعبية، والتأملات والوقائع الروحية، ويبتعد عن الوقائع المصطنعة والتعقيدات العلمية.

وهذا النوع من الأدب أدب فردي وذاتي، يحبذ الأفكار والتجارب الشخصية، ويستجيب لصوت المشاعر أكثر مما يلجأ إلى أساليب العقلانية، ويرفض الضوابط والمعايير النموذجية المقننة، فهو أدب تائر على الماضي الكلاسيكي، ويدعو إلى التغيير والتطور. وقد أضافت الحركة الرومانسية إلى دائرة الفنون مجالات كانت ترفضها ظاهرة الكلاسيكية العقلانية، ومن ذلك فكرة أن للإنسان طبيعة مزدوجة، وأنه معلق بين الخير والشر، واللذة والألم، فهو عاقل ومتوحش، اجتماعي وأنااني، أليف ومتمرد.

تعليقات بعض الأدباء

- من السمات الجديدة التي نجدها في الأدب الرومانسي الاهتمام بالمشاعر الشخصية، أو ما يسمى «بالفردانية». ونجد جان جاك روسو يعبر عن الانعكاسات الذاتية وعن شعوره بالخيبة أمام الوقائع الاجتماعية، فيقول:

«إنني أكرس أيامي الأخيرة لدراسة نفسي، وأعدّ البيانات التي سأقدمها لنفسي في الحوار معها. إذاً فلأكرس جميع قواي للذة الحوار مع روعي، فهي الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن يسلبه مني»

- وبصدد التمييز بين الأدب الكلاسيكي والأدب الرومانسي، تقول مدام دي ستايل ما مفاده:

«... إننا نستعمل أحياناً عبارة كلاسيكي لتكون مرادفة لعبارة «الكمال». وأنا أستعملها هنا، بدون تحيز، لأقول بأن الأدب الكلاسيكي هو أدب القدماء، وأرى أن الأدب الرومانسي هو ما يتصل، بوجه أو آخر، بتقاليد الفروسية... إن أدب القدماء هو بالنسبة لأجيال العصر الحديث أدب منقول ومجثث، أما الأدب الرومانسي، أو أدب الفروسية، فهو بالنسبة لنا، مواطني هذه البلاد، ينبع من معتقداتنا ومؤسساتنا.»

- ويقول الأديب الفرنسي ستانдал ما مفاده:

«إن الرومانسية هي الإنتاج الفني والأدبي الذي يمكن أن يقدم للناس أكبر قدر من المتعة في ظروفهم الحالية، وفقاً لعاداتهم ومعتقداتهم. أما الأدب الكلاسيكي فهو أدب كان يقدم المتعة للأسلاف. فقد كان سوفوكليز ويوربيديز من أشهر الرومانسيين، وقد قدما لليونانيين المجتمعين في أثينا مسرحيات استمتعوا بمشاهدتها، لأنها كانت تتجاوب مع عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، ومع كل ما يتعلق بتجاربيهم ورغباتهم وآلامهم»

- قدم الفيلسوف الألماني كانت، في كتابه «نقد العقل»، الأساس الفلسفي للحركة الرومانسية، حيث نفى قدرة العقل وحده على اكتشاف الحقيقة النهائية، ونتج عن ذلك فكرة أن حياة الإنسان المبنية على الحدس والبدية هي حياته الحقيقية. وقد أثرت مدرسة كانت الفلسفية على آراء بعض شعراء الرومانسية وتوجهاتهم.

- وعودة إلى فكرة الفردانية، أو التركيز على الذات، في الأدب الرومانسي، يقول شاتوبريان:

«... كان ينقصني شيء أملأ به فراغ وجودي: أنزل إلى الوادي، أصعد إلى الجبل، وأنا أنادي بكل قواي شعلة الشبح المثالي التي ستملأ ذلك الفراغ، كنت أقبلها في الرياح، أسمعها في خرير النهر؛ كل شيء كان يمثل لنفسي ذلك الشبح الخيالي، حتى نجوم السماء، مبدأ الحياة في هذا الكون الفسيح»

- رسم الأديب بالزائك، في كتابه «الملهاة الإنسانية» ظروف الحياة الاجتماعية وتطوراتها في مختلف مظاهرها. وفيها يقول مادحاً دور المصادفة في الحياة، وأنها أكبر رومانسي في العالم:

«... إن المجتمع الفرنسي هو المؤرخ، وما علي إلا أن أسجل الفضائل والردائل، والمكارم والنقائص، والمسائى

والمحامد؛ وأفعل ذلك بأن أجمع نتائج المشاعر وعواقب العواطف، وأرسم الشخصيات وتصرفاتها... وأدون الحوادث الهامة في حياة المجتمع الفرنسي... ولعلني بذلك أوفق إلى تسجيل التاريخ الذي أهمله كثير من المؤرخين، تاريخ العادات والتقاليد»

- ويصدد دور الأدب الرومانسي، واهتمام الأديب بشؤون الناس، يقول الشاعر الكبير فكتور هوغو ما مفاده:

«ليست العبقرية إلا انفتاح القلب على عوالم أوسع فأوسع، فالفكر، شاعراً كان أو فيلسوفاً، يشعر بأبوة واسعة تشمل الطبيعة والبشر والأشياء. فالشقاء العالمي حاضر أمامه، فيتحدث إليه، ينصحه، يعلمه، يواسيه، يرفعه، ينير له الطريق، ينعش حياته، ... إنه يعاني مع من يعانون، يبكي مع من يبكون، يناضل مع من يناضلون، إنه أبو كل حي، فهو لا يقدم الخبز فحسب، بل يمنح معه سماء صافية زرقاء، إنه يحمل قلباً عظيماً، قلب الإنسان»

- ونجد الشاعر الكبير غوته يتحدث في كتابه «آلام فيرتر» عن سعادة الإنسان التي قد تكون مصدرًا لشقائه وآلامه، ويضاف هذا القول إلى مواصفات الرومانسية (التركيز على المشاعر) فيقول:

«إن هذه الحساسية المستعرة فى أحشائي من أجل الطبيعة
والحياة ، والتي كانت تغمرني ببهجة عميقة ، والتي كانت
تجعل من العالم المحيط بي جنة ونعيماً ، قد أصبحت
اليوم قسوة على نفسي لا تطاق»

- وفي مقام آخر يقارن غوته بين الأدبين ، فيقول :

«إن الأدب الكلاسيكي أدب سليم، والأدب الرومانسي
ليل. والأدب الجديد رومانسي ليس لأنه جديد، بل لأنه
ضعيف ومريض. والأدب القديم كلاسيكي ليس لكونه
قديماً، ولكن لأنه قوي سليم، عذب ومنعش»

- وتشير مدام دي ستايل فى كتابها «عن ألمانيا» إلى أن موضوعات
الشعر الكلاسيكي والشعر الرومانسي مختلفة، ففي الأول يسيطر
دور القدر، وفي الثاني تسود فكرة العناية الإلهية. والقدر لا تهمة
كثيراً مشاعر البشر، أما العناية الإلهية فلا تحكم على أعمال
الإنسان إلا عن طريق المشاعر.

- وفي سياق آخر نجد الأديب شاتوبريان يتغنى بالأم «الطبيعة»، ويقول:

«على من يغمره الحزن أن يندمج فى الطبيعة، فى

الغابات، ويتجول تحت سماواتها المتحركة، ويتسلق الربي،
فمن هناك يكتشف مروجاً مزهرة زاهية من جهة، ويشاهد
من الجهة الأخرى الشمس تلمع أشعتها فوق البحار، حيث
يمتع بصره بالألوان الخضراء المتموجة، وهي تتحول إلى
ألوان قرمزية وشعلات ملتهبة. لا شك أن أحزانك لا تصمد
أمام مشاهد رائعة مبهجة كهذه»

- ومن شعراء الرومانسية لمرتين الذي نجده في قصيدته الشهيرة
«البحيرة» يناجي الطبيعة، متمثلة في البحيرة، ويتذكر حبه الماضي،
والساعات الممتعة التي قضاها إلى جانبها.. ويناشد الزمان ليتوقف
ويترك الناس يتمتعون باللحظات السعيدة.

- ونجد الأديب جيرار نيرفال يلجأ إلى التخيلات والأحلام، وهي من
السمات التي تحبذها الرومانسية، ويعتبرها استمراراً للحياة،
وشكلاً من أشكال الوجود الوجداني، لأنها تفتح له مجالات واسعة،
وتتيح له أن يتنقل بسهولة بين عوالم الأطياف والأشباح والأرواح.

- وفي هذا المجال يقول الشاعر فيكتور هوغو:

«يوجد وراء العالم الواقعي عالم مثالي، وهو عالم

مزدھر، رائع وبهيج أمام عيون من يقودهم التأمل والإلهام
إلى مشاهدة ما يكمن وراء الأشياء»

— أما الأديب سان - شامان فيهاجم الحركة الرومانسية ويقول:

«إنها تمثل القوة الفارغة التي يعوزها الصقل
والتهذيب، والذوق السليم، وتمثل كذلك فن الحماس
المندفع من غير نظام، والمشاعر العميقة المفترطة الخالية
من الرقة واللطافة»

— يقول بودلير:

«ليست الرومانسية في اختيار الموضوع، ولا فى سرد
الحقائق الدقيقة السليمة، ولكنها فى كيفية الشعور، إنها
التعبير الحالى عن كل ما هو جميل»

الأزرق بن علو

القسم الأول



ملخصات من الأدب الروماني

حول الخطابة والخطباء⁽¹⁾



يبدو لي أنه لا شيء أروع من أن يتمكن الرجل، ببلاغة القول والخطاب وفصاحة اللسان، من أن يسيطر على التجمعات البشرية، وأن يسحر عقولهم، ويوجه إرادتهم ورغباتهم حسبما يريد... أجل، أي شيء أروع من أن نشاهد رجلاً يبرز من بين الجماهير، ويفعل بخطابه وبلاغته ورباطة جأشه ما عجز عنه مئات الآخرين؟

وهل هناك شيء أذلل للفكر، وأحلى للأذن، من خطاب صقلته الأفكار الحكيمة والتجارب والعبارات المؤثرة؟ وهل هناك أقوى وأروع من أن نستمع إلى خطاب رجل واحد، ونلاحظ كيف يحرك به مشاعر الجماهير، وضمانر القضاة، ووقار مجلس الشيوخ؟ وهل هناك أنبل وأكرم وأعظم من مساعدة الأشقياء والمستضعفين، وإنقاذ المحكوم عليهم ظلماً، وتحرير من يحيط بهم الخطر، ومن حكم عليهم بالنفي..؟

وحتى لا نبقي فقط في إطار المحافل، ودائرة المحاكم، ومنابر مجلس الشيوخ، ومنصة الخطابة، أضيف: أيُّ جو أطيّب، وأية لذة أحلى وأشدّ إنعاشاً لإنسانيتنا من الأحاديث الفكرية الروحية التي تدور حول الموضوعات الثقافية؟

(1) العنوان: De Oratore.

المؤلف: شيشرون (106 - 43 ق.م.) خطيب مشهور واسم لامع في الأدب اللاتيني.

أقول، باختصار، ما هي القوة التي استطاعت أن تجمع البشر المبعثرين، وأن تخرجهم من حياة الوحشية والعزلة، وأن تطور مستوياتنا الحضارية والثقافية... إنها الكلمة، اللغة، القدرة على التعبير الذي يخلق المعجزات.

يمكنني هنا أن أقدم ألف مثال ودليل، ولكنني أختم بالقول بأن الخطيب البليغ المتمكن، يمكنه بمهارته ورباطة جأشه، أن يحافظ ليس فقط على سلامة كثير من المواطنين، بل كذلك على وحدة وسلامة الجمهورية نفسها.

الفلسفة علاج النفس⁽¹⁾



يوجد في استعداداتنا الوراثية بذور للفضائل الفطرية الطبيعية؛ لو يسمح لها بأن تنمو وتتطور بحرية، فإن الطبيعة نفسها تقودنا إلى السعادة. غير أن ما يحدث في حياتنا الواقعية فهو غير ذلك. فبمجرد أن يولد المرء ويشق طريقه إلى الحياة، يجد نفسه يعيش في بيئة من الفساد والضلال والانحراف الشامل يتمثل في الأفكار العامة السائدة.

ففي أحضان الأبوين، ثم في رحاب المدارس، نُسقى أصنافاً متنوعة من الأخطاء لدرجة تجعل الحقائق تتمحي أمام الغرور، وتجعل الطبيعة نفسها تختفي وراء استبداد الآراء العامة السائدة. ثم يضاف إلى ذلك تلك المعارف التي يعرضها الشعراء، ويطلب من الصغار أن يحفظوها لتسكن في أعماق مشاعرهم وتفكيرهم.

وعندما يتبنى الناس عامة تلك الأخطاء والعيوب التربوية، نجد أنفسنا مندمجين في بيئة الأفكار والأخطاء والعادات الفاسدة، وتضعف علاقتنا بالطبيعة أو تنقطع. وفي نهاية المطاف، يبدو للناس أن الذين فهموا الغاية الخفية في الطبيعة هم أولئك الذين رأوا أن أفضل ما ينبغي أن يطلب في الحياة هو المركز، والجاه، والمال، والسلطة، والمجد، والشهرة.

(1) العنوان : Les Tusculanes .

المؤلف : شيشرون (106 - 43 ق.م.)

ولكن للمجد الحقيقي رونقاً وتمييزاً، ووراءه جمهور واع، وليس مجرد مخطط أو مشروع فردي. ويظهر هذا المجد في اعتراف أهل الفضل والرأي والمشورة؛ وهو يتجاوب مع مبادئ الفضيلة ويعكس صورتها. وهذا بعيد عن المجد الزائف الذي يندفع وراءه بعض الطامحين إلى العظمة المؤقتة، ويفنون أعمارهم في جمع الثروات، والانغماس في الملذات، فيبتعدون عن سبيل الحكمة، وينهكون أنفسهم، وتكون نهايتهم الشقاء والندم والنسيان.

ولا شك في أن المتاعب النفسية أشدّ خطراً من الأمراض البدنية، لأن الأولى تندمج في الروح وتسيطر عليها وتعذبها. ولكن كيف نقول عن النفس إنها غير قادرة على معالجة متاعبها، مع أنها هي التي تخترع الأدوية التي تعالج الجسد؟

ونلاحظ أنه لكي ينجح علاج الجسد، ينبغي أن يكون محتفظاً بقواه الطبيعية؛ فهل يكفي في معالجة النفس (الروح) أن ترغب في العلاج، وأن تمتثل لنصائح الحكماء؟

الجواب : نعم. وعلاج النفس في هذه الحالة هو «الفلسفة». غير أنه في هذه الظروف لا يكفي أن يتجه المرء إلى المساعدة الخارجية، كما يفعل لمعالجة البدن، بل ينبغي أن تتوفر لديه الرغبة، وأن يبذل جميع جهوده لمعالجة نفسه بنفسه.

متاعب العشق⁽¹⁾



عندما يصاب قلب الرجل بسهام المرأة الحسناء، تشتعل أحشاؤه شوقاً إلى لقاءها؛ وتتدلع نيران الحب في فؤاده، وتستعر شعلة الرغبة في ضمها إلى صدره، فيكون ذلك شعور مسبق بما يتوقع من متعة برفقتها.

وهكذا تسكب فينوس (المرأة الجميلة) قطرات اللذة في قلب الفتى العاشق؛ وسرعان ما يتبع ذلك متاعب ومعاناة. فإذا كان المحبوب بعيداً، تظل صورته ماثلة أمام أعيننا، وتبقى نغمات صوته العذب تداعب آذاننا.

وبما أن العشق ينتعش بهذه المشاهد الخيالية الفارغة المتعبة، فإنه يحسن بالعاشق أن يحول فكره نحو أشخاص آخرين، لأنه من الأفضل أن يوزع المرء طاقة الحب الكامنة في جسده على عدد من الحسنات، من أن يختزنها كلها لمعشوق واحد يسيطر على مشاعره، ويجعله يرزح تحت أعباء الألم والمعاناة. فالعشق جرح يتسع إذا غذيته، ويوشك أن يصبح شراً متأصلاً.

ذلك أن لواعج العشق تزداد يوماً بعد يوم، ويصبح العناء والغم

(1) للأديب الروماني لوكريشوس (98 - 55 ق.م.)

من كتابه : De la Nature

والألم عبئاً يصعب تحمله، ما لم تعالج الجروح القديمة بلقاءات جديدة، وما لم يعهد العاشق الولهان بآلامه إلى فينوس جديدة، وما لم يوجه نبضات قلبه نحو حسناء أخرى جواله تعالج جروحه وجوارحه. وعندما يتجنب المرء متاعب العشق، ليس عليه أن يحرم نفسه من المتع والملاذات التي توفرها مصاحبة المرأة، بل إن الهدف هو أن ينال المتعة دون أن يشقى بهيجان العشق وجنون الحب ومتاعبه.

إن العشق هو الحالة الوحيدة التي يزداد فيها اشتعال الرغبة بازدياد السيطرة على المحبوب. فالمرء يطعم فيشبع، ويسقى فيرتوي، أما عشق الوجه الجميل والقد المشوق، فإنه لا يسمن ولا يغني من جوع، بل لا يترك في أجسادنا سوى صور سرعان ما يطردها مرور السنين.

أجل لا تجدى الصور والتماثيل شيئاً، ولا تشبع عيون المحبين ولا قلوبهم. فأثناء العناق يكونون لعبة في قبضة إلهة الحب، فينوس؛ ولكن مهما تواصل العناق، ليس بإمكان المحب أن ينزع عضواً من جسم الحبيب ويحتفظ به...

وأخيراً، عندما تشبع الرغبة التي تراكمت في عروقهما، يهدأ الهيجان بعض الوقت. ثم لا يلبث الجسد أن يثور من جديد، ويطلب المزيد... ويظل المحبان غارقين في لجج العشق، لا يعرفان علاجاً لدائهما، لأنهما يجهلان الهدف الذي يجمعهما، ويجهلان الجرح الخفي الذي ينخر جسديهما.

وفاة عليسة (ديدون)⁽¹⁾



طلع على مدينة قرطاج يوم جديد، وكانت شمس الصباح تسكب
أشعتها على الأرض والبحر. وشاهدت ديدون من شرفة منزلها مراكب
إنياس، بطل أحلامها، تبتعد عن المرفأ، ولاحظت أنه لم يبق بحار من
رجاله في الميناء.

راحت الأميرة ديدون تضرب صدرها، وتشد شعرها الذهبي بقوة
وتصيح: أيها الإله جوبيتر! لماذا؟.. إنه يبتعد، لقد إستخف بمملكتنا،
ينبغي أن نلحق به، أعدوا المراكب والسلاح!

«ولكن ماذا أقول؟ أين أنا؟ ما هذا الهذيان؟.. كان ينبغي أن أفكر
في العواقب عندما عرضت عليه صولجان ملكي؛ تلك هي إذا عهود
إنياس ووفاءه!»

ليتني قطع جسمه إرباً، وبعثرتها فوق الأمواج؛ ليتني قتلت

(1) من ملحمة الشاعر الروماني فيرجيل «الإنياذة»، وهي أشبه بالأسطورة. وديدون
هذه هي عليسة ابنة تيرون ملك صور. وعندما قتل أخوها زوجها، هاجرت إلى
سواحل تونس حيث اشترت قطعة أرض وشيدت مدينة قرطاج الشهيرة، وأصبحت
تعرف في موطنها الجديد باسم: ديدون. وكان ذلك في القرن التاسع قبل الميلاد.
ويروي الشاعر فيرجيل أن بطل ملحمة «إنياس» وصل بأسطوله إلى مدينة
قرطاج، ومكث ضيفاً على ديدون، ونشأ بينهما حبّ شديد. ولكن الآلهة طلبت منه
أن يرجع إلى إيطاليا لإنشاء مملكة لقومه. وحزنت الأميرة ديدون (عليسة) على
فراقه فانتحرت. ولا يخفى ما في أسطورة هذا الشاعر من خيال.

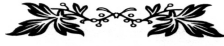
جماعته ودمرت أسطوله وأحرقت معسكره؛ ليأتي أفنيث بني جنسه
قبل أن أنهي حياتي!

أدعوك يا إله ديدون، ويا جنيات الانتقام، أن تجيبوا دعائي، وأن
توجهوا غضبكم وتصبوا انتقامكم على هؤلاء الأشرار! أدعوكم أيتها
الآلهة أن يظهر يوم رجل من سلالتي ينتقم من سلالة طروادة،
ويسحقهم بالحديد والنار!

كانت ديدون مضطربة هائجة، تقلب نظرها في كل مكان،
وعيناها جاحظتان، مفاصلها ترتجف، فكرها شارد، تعلو وجهها
صفرة، وهي تصعد على المحرقة وتقبل على الانتحار. أخرجت السيف
الذي أهدها لها إنياس الطروادي، وألقت نظرة أخيرة على السرير
الذي اضطجعا عليه، كانت الدموع تملأ عينيها، ونطقت بهذه الكلمات:
أيتها الآلهة تقبلوا روحي! وخففوا آلامي! لقد عشتُ حتى أسست
مدينة وشيدت أسوارها؛ ولقد انتقمتم لزوجي، وعاقبت أخي، وكانت
سعادتي عظيمة.

ليت مراكب الطروادي لم ترسُ على ساحلنا! هاأنذا أموت وليس
بوسع أحد أن ينتقم لماتي! لتملاً هذه النيران عيني ذلك الرجل
الشرير وهو وسط الأمواج! وليلحقه نذير موتي حيثما حلّ وارتحل!...
وبدأت دماؤها تتزف، فسقطت على الأرض، ولفظت أنفاسها
الأخيرة.

إلى ميسان⁽¹⁾



ما هي المتعة التي تجدها عندما تخفي كنوزك من الذهب والفضة في حفرة خشبية أن يسرقها اللصوص؟! تقول لنفسك: إذا شرعت في إنفاقها ستنفذ». ولكن إذا لم تأخذ من كنزك اليوم لتروّح عن نفسك، فما اللذة في تركه مدفوناً؟ عندما يحمل الخادم سلة الخبز على كتفه، وهو غير قادر على أن يأكل منها، فكأنه لا يحمل شيئاً.

قد يجد المرء متعة في أن يأخذ غذاءه من كومة كبيرة، ولكن ما الفرق عنده إذا استطاع أن يتناول الكمية نفسها من كومة صغيرة؟ وبماذا يمتاز مخزنك الواسع على سلتي إذا كانت ممتلئة؟ فكأنك في حاجة إلى جرة ماء وتقول لنفسك: من الأفضل أن أملأها من النهر، بدلاً من النبع الصغير، والواقع أن ذلك النهر يأخذ من هذا النبع.

غير أن كثيراً من الناس يعيشون معظم حياتهم ضحية لرغبات خادعة؛ يقول المرء: لا بد من زيادة ثروتي، لأنّ الناس إنما يقدرونك على حسب ثروتك. وبماذا نجيب هذا الإنسان؟ هل نتركه تائهاً في شقائه؟ لقد اختار أسلوب حياته بمحض إرادته.

(1) العنوان: A Mécène - الرسالة رقم 1.

المؤلف: هوراس (Horace) - 65 - 08 قبل الميلاد.

كتب هذه الرسالة إلى صديقه Mécène يقدم فيها بعض النصائح حول سلوك من يتصارعون لجمع الثراء، ويكنزونهم بدلاً من أن ينفقوا ما لديهم، ويتبعوا سبيل القناعة.

وأنت، يا صديقي ميسان، لقد جمعت كومة من الأشياء الثمينة، وخبزتها في صناديق لتطمئن عليها. إن قيمة المال تكمن في إنفاقه وليس في تكديسه واكتنازه. وهل يجد العاقل متعة في أن يعيش في قلق وخوف؟ يخشى على كنوزه من اللصوص والحريق، ويخشى كذلك كيد العبيد وفرارهم. ومن حين لآخر يسترق السمع وينقطع نفسه ليكتشف من يدبرون للاستيلاء على ثروته.

وكأنك تقول: إنني إذا مرضت أو أصابني حادث يعرقل سير حياتي، فإن المال هو الذي يأتيني بالعلاج المناسب الذي يعيد إليّ صحتي، ويعيدني إلى أولادي وأقاربي وأحبابي..» وأنا أشك في ذلك، يا صديقي. لقد ظللت تفضل المال على الأولاد والأقارب والأصدقاء، كنت بخيلاً، فهل تظن أنهم يحبونك حقاً؟ وهل تستحق الحب والوفاء والاحترام حقاً؟

نصيحتي أن تتوقف عن اكتناز المال، فأنت تملك أكثر مما تحتاج إليه. ضع حداً لطمعك وقلقك ومطامحك المادية. أرجو أن تدرك أنني عندما أطلب منك أن تتجنب البخل، لا أسألك أن تعيش حياة ماجنة مزريّة، بل هناك سبيل وسط وأسلوب حياتي معتدل، طريقة حياة كريمة دون إفراط ولا تفريط. فلا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط.

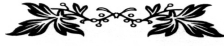
واسمح لي أن أعود إلى نقطة البدء. إننا نشاهد أن قليلاً من الناس من يرضى بنصيبه؛ ومعظمهم يرون أن الآخرين أسعد منهم حالاً. تستولى عليهم الغيرة إذا لاحظوا أن قطيع جارهم يدر من اللبن

ملخصات من الأدب الروماني —————

أكثر من قطيعهم. ولم لا يفكر هؤلاء في من هم أسوأ منهم حالاً، وهم الأكثرية؟

ما زال الناس يتسابقون ويتصارعون من أجل جمع المال، ومهما نالوا منه لا يزيدهم ذلك إلا جشعاً، فيتطلعون للحاق بمن يملك أكثر منهم. كأنهم في ساحة لسباق الخيل، كل يبذل قصارى جهده ليلحق بمن فاته أو ليسبقه. ألا ترى أننا قليلاً ما نسمع من يفتخر بأنه عاش حياته سعيداً، وعندما يدق جرس سفره، يغادر الساحة راضياً مبتسماً، مثل الضيف الذي يحضر وليمة، ويتناول عشاء لذيذاً، ويقضي وقتاً ممتعاً، ويغادر المنزل بشوشاً شاكراً.

إلى لوليوس⁽¹⁾



أعرف يا لوليوس أنك ذو روح عالية، لا تقبل أن تتسبب إلى فئة المتملقين، عندما تقرر أن تكون صديقاً حقيقياً. غير أنه إذا كان التملق عيباً، فإن عكسه قد يكون عيباً أكبر؛ وفي الفضيلة حل وسط بين غايتين متطرفتين...

لا ينبغي لمن يستظل برعاية أحد كبار السادة أن يسمح للنساء بأن يحطمن حياته، أو أن يرمي بنفسه في حلقات القمار، أو يدفعه الغرور إلى أن يشتري من الملابس والعطور ما فوق إمكانياته، ولا أن ينغمس في مغامرات أخرى كأن يدفعه الخوف من الفقر إلى الركض وراء الثروة بأي وسيلة. فمثل هذا السلوك يجعل المولى ينفر من صاحبه ويرفض رعايته. ولا ينبغي للفتى أن ينافس مولاه، لأن هذا الأخير قد يسمح لنفسه، بثروته الواسعة، أن ينغمس في ملذات أو يرتكب حماقات، ولكنه يتوقع من أتباعه أن يلتزموا بالأخلاق الحميدة.

ونصيحتي لك أن لا تحاول أن تطلع على أسرار سيدك، ولا

(1) العنوان : A Lollius (الرسالة رقم XVIII).

المؤلف: هوراس (Horace) - 65 - 08 قبل الميلاد.

في هذه الرسالة يقدم الشاعر الروماني هوراس بعض النصائح إلى صديق له يدعى Lollius حول كيفية التعامل مع مولاه والسيد الذي يحميه ويرعاه، ويوصيه بأن يلتزم بكتم أسرار سيده، وبالملاطفة والطاعة، وبأن لا ينافسه في الأمور الدنيوية، لينال وده واحترامه.

تفشيها إذا اطلعت عليها، حتى وإن كنت سكراناً أو في حالة غضب. ولا تنثي على ذوقك وتنتقد أذواق الآخرين. وعندما يذهب مولاك إلى الصيد لا تقعد خلفه لتكتب الشعر، بل تنازل عما يشغلك واهتم بما يسعد سيدك. اخرج معه إلى الصيد فإنه نشاط يقوي الجسد، ويحسن السمة.

وزن الكلام! وراع مع من تتحدث، وعمن تتحدث، واحذر الثرثار فإنه مثل الغربال لا يحفظ سراً. واعلم أن الكلمة سجيئة فؤادك، فإن لفظتها أصبحت سجيناً لديها. واحذر أن تستولى إحدى خادمتك القصر على قلبك، لأنه إذا أهداها إليك كانت عبئاً، وإن رفض تألمت لرفضه. وفكر طويلاً قبل أن توصي بأحد إلى سيدك، فقد يرتكب حماقة فتندم وتسوء سمعتك.

إن من يكون مزاجه كئيباً لا يرتاح للأمزجة المرحّة، ومن كان طبيعته المرح والابتهاج لا يحب المزاج العبوس. الرجل الحيوي النشط يكره التباطؤ والكسل، والشخص الكسول لا يرحب بالحيوية والنشاط. اطرده الغيوم من محياك! وفي كثير من الأحيان يرى بعض الناس في التواضع نوعاً من الرياء والنفاق، وفي السكوت نوعاً من سوء النية والعدوانية.

أما أنا فإنني في كل مرة أذهب فيها إلى النهر لأجدد نشاطي، أتوجه إلى الآلهة وأطلب منها، بكل مشاعري، أن تحفظ لي ما أملك اليوم، أو أقل منه، وأن توفر لي عدداً كافياً من الكتب، ومن المؤونة ما يكفي إلى الموسم المقبل، لكي لا أعاني من الخوف والقلق أمام تقلبات المستقبل.

تاريخ الشعب الروماني⁽¹⁾



هل سيكون من المفيد أن أسجل تاريخ الشعب الروماني منذ نشأة مدينة روما؟ لقد تناول هذا الموضوع قبلي كثير من المؤرخين. لا شك أنه يسعدني أن أسهم، في حدود إمكانياتي، بسرد الحوادث الهامة في حياة أعظم شعب في العالم. وإذا بقي اسمي مجهولاً بين من أرخوا للدولة الرومانية، فإن مما يعزيني ويروّج عن نفسي أن أولئك الذين بسطوا ظلالهم فوق اسمي هم من كبار المؤرخين الذين بلغوا شهرة كبيرة في هذا الموضوع.

لا أشك في أن عملي هذا سيتطلب مني جهوداً جبارة، إذ عليّ أن أعود سبعة قرون إلى الوراء، إلى الفترات الأولى من نشأة مدينة روما. وبعد تلك البداية المتواضعة، توسعت الدولة الرومانية تدريجياً... إلى أن أصبحت اليوم تَرزَحُ تحت عبء عظمتها. وأعتقد أن اهتمام معظم القراء يتوجه إلى العهود المزدهرة التي فرضت أثناءها الإمبراطورية سيطرة واسعة على البلدان الأخرى، ثم بدأت تحطم نفسها بنفسها تدريجياً.

(1) للمؤرخ تيتوس ليفيوس (59 ق.م - 17 ميلادية).

وهو أحد مشاهير المؤرخين الرومان. ألف «تاريخ روما والشعب الروماني» في عدة مجلدات، وأصبح يعتبر من أهم الكتب في ميدانه، وكان له تأثير واسع على كثير من المؤرخين والأدباء. أقدم هنا ملخصاً لبعض الفقرات من مقدمة الكتاب المذكور.

ولا أودّ هنا أن أؤكد أو أنفي الأساطير التي حيكت حول نشأة مدينة روما، فقد امتزجت حكايات إنشاء كثير من المدن آنئذ بعناصر بشرية وأخرى مقدسة. وإذا سمحنا لشعب أن يضيف مسحة قدسية على ظروف نشأته، بأن يضعها تحت رعاية الآلهة، فإن الشعب الروماني قد نال في حروبه أمجاداً عظيمة، وبذلك يحق له أن يعلن أن الإله مارس، إله الحرب، هو راعي نشأته وتطوره من دون الآلهة الأخرى. وما على الشعوب الأخرى إلا أن تقبل هذه الرعاية المقدسة، كما رضيت بسيطرة الشعب الروماني. ولكنني لا أعير اهتماماً كبيراً لما يصدر من آراء حول هذه الحكايات.

ما يهمني حقاً هو أن يوجه الناس اهتماماتهم إلى تقاليد الشعب الروماني وإنجازاته، وإلى أعمال عظماء الرومان وحياتهم السياسية ومميزاتها في زمان السلم والحرب، وإلى جميع الحوادث التي ساعدت على ميلاد الإمبراطورية الرومانية وتوسعها. ومرت قرون وجاءت عهود بدأ فيها النظام يتراخى، والتقاليد النبيلة تتفكك، وبدأ الانحلال ينخر جذور الإمبراطورية، ثم تلا ذلك تدهور وانحطاط إلى أن وصلنا إلى مرحلة أصبحنا فيها لا نعترف بعيوبنا، ولا نسعى لما يصلح لنا من علاج. وإن أصلح ما نستخلصه من قراءة التاريخ هو ما نجده بين طياته من أمثلة بناءة وتجارب سليمة وحلول مثمرة، وأخرى سلبية، فنختار ما هو صالح فنقلده، وما هو غير مجد فنتجنبه.

وأرجو ألا يدفعني تعلقى ببلادي وبتاريخها إلى المغالاة إذا قلت إنه لم توجد دولة في التاريخ حتى عهدنا كانت أشد استقامة وصفاء،

وجمع تاريخها من الأمثلة والمنجزات مثل الإمبراطورية الرومانية. وكذلك لم توجد مدينة تفسى فيها الجشع والبذخ ومساوئ البخل والفساد، في العهود الأخيرة مثل مدينتنا، روما. فقد تجمع فيها من الثروات ما جعل أهلها ينغمسون في الملذات، ويفرطون في إشباع شهواتهم.

وأكف الآن عن التشكي فلا أودّ أن تسود صبغة تشاؤمية مقدمة هذا العمل الهام الذي يعالج موضوعاً عظيماً مثل تاريخ الإمبراطورية الرومانية. وإذا كنا، معشر المؤرخين، نبدأ عملنا مثلما يفعل الشعراء، بعبارات تفاؤلية، فإنه يطيب لي أن أطلب من الآلهة أن تساعدني على إنجاح هذا العمل الجليل الذي ما زال في خطواته الأولى.

حياة القناعة والرضى⁽¹⁾



ليكدس من شاء كنوز الذهب بلونه البراق!
وليحرث من شاء آلاف الهكتارات بالكد والعناء!
يخشى في نهاره مكاييد جار السوء؛ ويفقد النوم
ليلاً عندما تدق الأبواق.
أما أنا، فقناعتني تجعلني أعيش، دون قلق؛
لا تتطفئ المشاعل في منزلي، ولا تدبيل.
أنقل شتلات الكروم إلى مستقرها؛
وأعتني بأغصان أشجار الفاكهة في موسمها.
أقدم القرابين المتواضعة إلى إله الخصوبة،
فأضع على عتبة معبده حزمة من السنابل؛
أما آلهة مزرعتي المتواضعة،
فأقدم لها خروفاً قريباً.

(1) للشاعر الروماني تيبول (نحو 55 - 19 ق.م)

أريد أن أعيش قانعاً، راضياً. وفي أيام الحر الشديد
أسترخي تحت شجر السنوبر، إلى جانب جدول.
أحمل المعول والمنجل، وأستعمل
المهماز لأحث الثيران الكسلانة.
وعند عودتي، أحمل بين ذراعيّ
الخروف أو الجدي الذي فقدته أمه.
مائدتني متواضعة، صحوها وقدرها من طين.
لا حاجة لي إلى أملاك أجدادي،
ولا إلى أرباح كميات الحبوب التي خزنها.
إن قطعة أرض صغيرة تكفيني لأنام مطمئناً في سريري،
أستمع بالدفء، وأنصت إلى الرياح تهبّ
في الخلاء
أضمّ إلى صدري فتاة ناعمة حميمة،
هذا يكفيني ويسعدني.
وأنتم، أيها الطامحون إلى جمع الثروة،
تتحملون خطر العواصف والأمواج،

ملخصات من الأدب الروماني

فلتهنأوا بمكاسبكم. أما أنا فأقول:

سحقا للذهب والأحجار الثمينة

إذا كانت أسفاري تحزن صديقتي.

سيأتي زمن الفتور والاسترخاء، عندما نصبح

غير قادرين على إعطاء الحب حقوقه، وقد إبيض شعر الرأس،

فلا نستغرق في الدعابة والمزاح.

أما اليوم فلتهنأ بالحسنات الفاتتات،

ولنملاً الدنيا نشاطاً وابتهاجاً.

وإني لأجد نفسي، في هذا المجال، فارساً متمرساً.

أما أنتم، حملة الألوية وأبواق النفير، أيها الجنود

الطامحون، فلتهنأوا بجراحكم ومكاسبكم.

إنني قانع بزادي المتواضع، دون قلق ولا هموم؛

أواجه ظروف الفقر والغنى، على حد سواء،

بضحكات الاستخفاف والسخرية.

من باريس⁽¹⁾ إلى هيلين⁽²⁾: (رسائل الحب)⁽³⁾
(الرسالة رقم XVI)



يسعدني وقد تلقيت رسالتي أن تحققي لي أمني في لقاءك. إن إلهة الحب هي التي نصحتني بهذه الرحلة إلى أسبارطة، ووعدتني بحبك، ولا يعقل أن يخيب وعدّها. إنه لخبر سماوي قادمي نحوك، وآلهة قوية تسيّر خطواتي. أعلم أنني أطلب شيئاً ثميناً ومكلفاً، ولكنه أمر مكتوب لي، وحق واجب الأداء.

..... في أحشائي شعلة دفعتني لتحمل رحلة طويلة. لم تقدنا إلى هذا الشاطئ عواصف عاتية، ولم نخطئ طريقنا، ولسنا نجوب البحار بأسطول محمل بالسلع، ولم أحضر إلى هذا البلد كسائح

(1) Pâris ، يعرف أيضاً باسم إسكندر في الأسطورة اليونانية، وهو ابن بريام ملك طروادة. تخلى عنه أبوه عند ولادته فوجده الرعاة وتربى في وسطهم. وعندما كبر شارك في مباراة ملاكمة في احتفال بمدينة طروادة، واتضح نسبه فرحب به أبوه. وعندما أغرى المرأة الجميلة هيلين، وهو ضيف في قصر زوجها منيلاوس، ملك اسبارطة، ورفض أن يعيدها إلى زوجها، كان هذا الحادث من أسباب اندلاع حرب طروادة.

(2) Hélène، في الأسطورة اليونانية هي ابنة "Zeus" (إله الآلهة وإله البشر الأعظم)؛ وزوجة منيلاوس ملك اسبارطة. وكانت هيلين هذه تعتبر أجمل امرأة في اليونان. وذات يوم، أثناء غياب زوجها هربت مع باريس إلى طروادة، فكانت بصورة غير مباشرة سبباً في حرب طروادة الشهيرة.

(3) Les Héroïdes ، للشاعر الروماني أوفيد (Ovid)، (43 ق.م - 17 ميلادية).

ملخصات من الأدب الروماني

متجول، كلا! إنما جئتُ باحثاً عنك، لأن فينوس⁽¹⁾ الشقراء وعدتني بك،
لقد شاهدت وجهك الجميل في مخيلتي، وأحببتك قبل أن ألقاك.

الشعلة باقية تضطرم في الأحشاء، كما كانت بالأمس. وإن قوتي
الروحية ووسامتي.. لدليل على نبل أصلي. وقد سعدت أسرتي بلقائي،
بعد أن فقدتني مدة طويلة، وجعلوا يوم عودتي إليهم يوماً مشهوداً
تحتفل به مدينة طروادة كلها. وها أنا اليوم أتمناك، وبوسعك أن تملكي
وحدك رجلاً طالما تمنته فتيات كثيرات.

إنني اليوم لا ألتفت إلى تلك الحسنات والحوريات، منذ أن
راودني الأمل في أن تكوني زوجة لي. تشاهدك عيناى أثناء اليقظة
ومخيلتي أثناء النوم. إنني أحترق شوقاً وأنت بعيدة عني، فكيف سيكون
حالي عندما تقترب الشعلة من جسدي؟...

لقد استقبلني زوجك ضيفاً في مدينته، وكان ذلك من تدبير آلهة
السماء؛ ورافقني لزيارة المعالم الجميلة، ولكن كل همّي أن أتأمل
جمالك الرائع. وكم كان ابتهاجي عظيماً عندما شاهدتك؛ ولشدة
إعجابي بك شعرت بشعلة الحب تتجدد في أحشائي... إن طلعتك
السّاحرة تصدق ما نلت من شهرة واسعة. ولقد اخترتك على جميع ما
وعدتني به الآلهة من ممالك.

أناشد الآلهة أن لا تخيبي أمني! إن الزواج الذي أعدك به يزيد
عائلتك النبيلة نبلاً. وستجدين في أسرتي وأجدادي ما يزيدك فخراً

(1) Venus إلهة الحب والجمال في الأساطير عند الرومان.

وعزة. إن اسبارطة بلد فقير، وأنت جديرة بكل النعم والخيرات؛ وأدعو الآلهة أن تحقق أحلامك.

لي أحاديث طويلة معك، فاستقبليني في غرفة نومك في هدوء الليل. وهل يمنعك الخوف أم الخجل من خيانة الزوج؟ أم تظنين أن جمالك الفتان لا يضعف؟ بل ينبغي أن تخفضي من قسوتك، إن لم تتخلي عن سحر جمالك. إنها معركة بين الجمال والحكمة. فلنرتكب اليوم خطأً يصلحه الزواج.

ألم تلاحظي أن زوجك يشجعك على هذا الأمر بسلوكه، إن هو لم يفعل بلسانه؟ فما هو ذا يغيب عن قصد حتى لا يكون عثرة أمام عشق ضيفه الخفي؛ وإلا فما سفره لزيارة مملكة كريت؟ إنه لرجل لطيف وظريف. وقد قال وهو يغادر «اهتمي يا زوجتي بضيفنا! إني أتركه في رعايتك» وهل تهملين وصية زوجك؟ ولكن هل تظنين أن هذا الزوج المهمل يقدر جمالك حق قدره؟ وإلا فكيف يسلم لضيفه هذا الكنز الثمين الذي يملكه؟!

وسأسعى بكل ما أملك حتى آخذك معي إلى طروادة. وإذا كان الخوف يمنعك من مرافقتي، فإنني سأدبر الأمر لتكون المسؤولة كلها على عاتقي سأجعل خروجك من اسبارطة يبدو كأنه عملية اختطاف، وسأكون أنا وحدي المذنب، وأنت البريئة.

إن أسطول طروادة مجهز بالرجال والسلاح. وستساعد الرياح المواتية والمجاديف القوية على الإسراع في رحلتنا. وستستقبلك مدننا بابتهاج، ويشاهد السكان في شخصك السماوي إلهة جديدة.

ملخصات من الأدب الروماني —————

ولا تظني أن عملية «الاختطاف» هذه ستثير حرباً، وأن بلاد اليونان ستجهز جيوشاً لمحاربة طروادة. فكم من امرأة اختطفت، ولم تجهز الجيوش لاستعادتها... إنني لا أتردد في تحمل أعباء الحرب وتكاليفها من أجل زوجة لها قدرك وعظمتك وجمالك. ولا تنسى أنه إذا تنازع العالم حولك لينال ودك ويملك شخصك، فإن هذا سيخلد ذكرك في أذهان الأجيال القادمة. فثقي، وتهيئي، ولا تترددي؛ وعندما يغادر هذه البلاد ببركة الآلهة، لك أن تطلبي مني أن أفي بجميع وعودي.

رسائل الحب⁽¹⁾

من فيليس إلى ديموفون⁽²⁾



..... فهل أخطأتُ عندما أحببتك حباً جنونياً؟ إن خطيئتي الوحيدة هي أنني استقبلتك واستضيفتك وأكرمتك. وكان أولى أن أنال أحسن الجزاء بما قدمتك لك. أين العهود التي أقسمت بأن تحافظ عليها؟ أين ذلك الإله الذي كنت تقسم به، وتكرر اسمه كل لحظة؟ أين الزواج الذي وعدت بأنه سيربط اسمي بحياتك؟ وكنت تحلف كذلك بالبحار التي تخوضها؟ وتحلف بفينوس إلهة الحب والجمال.

صدقتُ كلامك العسلي، صدقت أنك من أصل كريم، صدقت أنك تنتمي إلى الآلهة كذا وكذا، صدقت دموعك... وهل تعلمت الدموع هي الأخرى أن تخادع؟ تعلم لسانك التحايل والمخادعة؟ كم ندمت لكوني فتحت لمراكبك ميناء آمناً، وأعددت لشخصك ملجأً كريماً. ولكن مما يزيد حسرتي ومرارة ندمي هو أنني آويتك في غرفة نومي، وسمحت لك أن تضع صدرك على صدري! وكان جزائي أن لذت بالفرار ولجأت لنكران الجميل.

(1) العنوان: Les Heroïdes (رسائل الحب)

المؤلف: أوفيد، شاعر روماني (43 ق.م - 17 ميلادية)

(2) Démophon، من أبطال الملاحم في الأساطير اليونانية. تزوج Phyllis ابنة الملك Lycurgue، ثم غادرها إلى أثينا واعداً بأنه سيعود، ولكنه نسي وعده.

ليس من الشهامة والمجد أن تخدع قلب فتاة بريئة. وهل هذا جزاء الثقة والإخلاص؟! أصلي للآلهة لكي يجعلوا فعلتك هذه آخر محاولة تخدع بها فتاة بريئة... أبعد كل الأمجاد التي حققها أبوك، تتوقف همتك وشهامتك عند مخادعة فتاة في جزيرة كريت؟! ومن جميع تراث أبيك ومآثره لا تترث إلا ما يجلب لك العار؟

ما زال مشهد سفرك ماثلاً أمامي، المراكب تستعد للإبحار.. عانقتي بحرارة، وطبعت على شفتي قبلاات عميقة ساخنة، واختلطت دموعك بدموعي، وقلت وأنت تبتعد: انتظري عودة حبيبك ديموفون، يا فيليس».

وماذا أنتظر الآن؟ لعلك تعلقت بحب جديد؟ أو ارتبطت بزوجة أخرى. يا للحب الذي أشقاني. أهكذا تنكر الجميل وتتسى الحبيب؟ تتسى الزوجة التي وفرت لبواخرك المرفأ الآمن، وضيافتها السخية؟ فيليس التي أغدقت عليك من خيراتها في وقت الحاجة، وكانت مستعدة لتوليك مملكتها الواسعة، لأنه يصعب على امرأة مثلي أن تسوس البلاد وحدها. فيليس التي، لسوء طالعها، سمحت ليدك الماكرة أن تحل حزامها، وأن تنام على صدرها الطاهر.

وها أنا الآن، أمشي على رمال الشاطئ، سواء عندما تثير أشعة الشمس صدر الأرض، أو عندما تسطع النجوم في الليل الهادئ، أشاهد البحر، وأشعر بالنسيم يداعب أمواجه، وعندما تتراءى لي باخرة من بعيد أتساءل: ترى ماذا تحمل لنا؟ وأتمنى أن تكون الآلهة راضية فتستجيب لصلواتي..

الحياة السعيدة⁽¹⁾



ينبغي للمرء أن يحدد بوضوح ماذا يريد أن يحقق في حياته؛ وما الذي يجعل الحياة سعيدة، وأن يتأكد بوضوح من السبل والوسائل التي تقوده نحو أهدافه. وما دام الإنسان يسير مبلبلاً ضائعاً في خضم ضجيج الحوادث، يسعى بدون قصد، خاضعاً للصدف، فإن سنين حياته تتآكل تدريجياً إلى أن ينهكه الزمن، ويضنيه السفر الطويل بدون هدف محدد.

وينبغي أن نختار هدفاً حقيقياً، ثابتاً، صامداً، لا يكون مجرد مظهر لإرضاء الناس، أو للتباهي والمخادعة. تمسك بطبيعة الأشياء، وابدح قوانينها، إنها قوانين الحياة. وأول خطوة على هذا الدرب هو أن تكون الروح زكية طاهرة، شجاعة صابرة، ومنسجمة مع ظروف عصرها؛ وألا يكون إفراطٌ في متطلبات الجسد وما يتعلق به؛ مع

(1) Seneca (04 ق.م - 65 ميلادية)، فيلسوف ورجل دولة روماني؛ كان من أتباع المذهب الرواقي القائل بأن الرجل الحكيم يتحرر من الانفعالات، لا تطفيه البهجة ولا تهزه الشدائد؛ يسعى إلى التحلي بالفضائل والخير الأسمى. تولى سينيكا مسؤوليات هامة، منها أنه كان مستشاراً للإمبراطور نيرون. جمع ثروة طائلة أثار حسد منافسيه. وهذه مقتطفات من رسالة كتبها سنة 58، وهو في قمة نفوذه السياسي. وهو يحاور فيها شخصاً خيالياً؛ ويردّ فيها على من حسدوه وشنعوا به بسبب مركزه وثروته. وفي نهاية حياته اتهم الفيلسوف بالتآمر على الإمبراطور نيرون، فأمره هذا الأخير بأن ينتحر بأن يقطع شرايينه بنفسه، حدث ذلك سنة 65 ميلادية.

الاهتمام بما يُدبّر شؤون الحياة، دون أن نكون عبيداً لها. وأضيف أن الخير الأسمى هو أن تنبذ الروح المصادفات والملاذات، وتبحث عن مسراتها في ظلال الفضيلة.

ويمكنني أن أقول بأن الرجل السعيد هو من لا يرى في الحياة جيشين من الطيبات والخبيثات؛ لا توجد بالنسبة إليه الأرواح الطيبة والأرواح الشريرة؛ إنه يتمسك بالحقيقة والفضيلة؛ لا ترفعه الحظوظ ولا تخفضه النوائب؛ يرى أن أسمى الخير هو ما يجلبه لنفسه بنفسه؛ وأن خير الملاذات هو ترك الملاذات. وأضيف بأن ما يجعل الحياة سعيدة هو الروح الحرة، المنطلقة، الباسلة، السامية، الثابتة، الزكية.

الملاذات والآلام، أسياد طغاة متجبرون، يتناوبون على الإنسان ليحطموه؛ لذلك ينبغي للمرء أن يحرر نفسه من طغيانهم، وأن يلتزم بموقف اللامبالاة في ظروف السراء والضراء، عندئذ ينسكب إلى قلبه ذلك الخير المطلق، الصفاء، الهدوء، وسمو الروح في ملجئها الآمن؛ عندئذ تعرف جوهر الحقيقة، ومن هذه تتبع بهجة ثابتة لا تتغير بتقلب الظروف. فالحياة السعيدة إذا هي تلك التي تسكن إلى قاعدة راسخة، على أساس حكم سليم متبصر، يجلبان لها الصفاء والاستقرار، ويبعدان عنها القلق والآلام.

قد يقول القائل: أليس للروح ملاذاتها؟ فليكن ذلك! فلتستسلم للفساد؛ ولتطلق العنان للشهوات، وكل ما يطيب للنفس والحواس. ثم يأتي حين من الدهر تلتفت فيه إلى الماضي، تجد أن تلك الملاذات أصبحت ذكريات خاوية باردة، وتتوق إلى ملاذات جديدة.. فينزلق

الجسد في وحل الحاضر؛ وتتوجه أفكاره نحو المسرات والمباهج، وتبدو الروح بئيسة عاجزة ضعيفة، تتخبط في مستتقات الحياة.

وقد يتساءل القارئ: وأنت؟ ألا تمارس مبادئ الفضيلة من أجل الحصول على بعض الملذات؟ ولنقل بأنه إذا كانت الفضيلة توفر الملذات، فهذه ليست هي المقصودة في الدرجة الأولى. بل الملذات في هذه الحالة تكون مكافأة تلقائية. فالمرء لا يمارس الفضائل لأنها تبهج نفسه؛ بل إنها تبهج لأنه يحبها ويتعلق بها.

إنني لا أعتبر الرجل حكيمًا إذا كان يخضع نفسه لجميع المغريات والملذات. وكيف يقاوم هذا المخلوق الفقر والخطر والمتاعب وجميع ما يحيط بحياته من مقلقات وتهديدات وآلام، بل كيف يواجه الموت، بعد أن خضع لعدو ضعيف هو متع الحياة، وأصبح عبدًا مطيعًا للنفس الأمارة الضالة؟

وإذا جاء أحد الساخرين من الفلسفة يقول لي: لماذا تدبج في كلامك ما لا تطبق في حياتك؟ ولماذا تعتبر المال شيئًا ضروريًا؟ ولماذا تخفض طرفك أمام من هم أعلى منك مركزًا؟ ولماذا تتألم وتذرف الدمع إذا توفى شخص عزيز عليك؟ لماذا تهتم بشهرتك وتنزعج من الاتهامات؟ ولماذا تملك عقارات في الريف وتعتني بها كل العناية؟ ولماذا نجد في منزلك الأثاث الرفيع؟ وتأكل الأطعمة اللذيذة؟ ولماذا يرتدي خدمك هذه الملابس الثمينة؟ ولماذا تعتني بترتيب مائدة الطعام ترتيبًا دقيقًا، وتستخدم كل هذه الأدوات الفضية؟ وتشغل خادمًا خاصًا بطهي

اللحوم وتقطيعها؟ ولماذا تعلق زوجك في أذنيها من الذهب ما يعادل دخل أسرة ثرية؟...

وإليك جوابي: إنني أوجه إلى نفسي ألواناً من اللوم أكثر مما تتصور. ولأريحك من سوء ظنك أقول بأنني لست حكيمًا، ولن أكون حكيمًا، ولا أسعى لبلوغ درجة الكمال. ولا أسعى لأن أكون أفضل الناس، بل يكفيني أن أكون أفضل من أسوأهم بدرجة؛ وأن أتخلى كل يوم عن شيء من عيوبي؛ وأن أؤنب نفسي على أخطائي. وإني لم أصل بعد إلى مستوى الصحة المرغوب فيه، بل أتناول بعض المهدئات فقط لمعالجة داء النقرس، وأشعر بالرضى إن هو هداً قليلاً؛ ولكن إذا ما قارنا ساقِي بساقيك الكسيحتين، فأنا سبّاق.

لا أقول هذه الأشياء لنفسني وأنا غارق في وحل النقائص والعيوب، بل أقولها كشخص حقق بعض التقدم في إصلاح نفسه. وقد يردد بعضهم القول: إنك تتحدث عن أسلوب من السلوك، وتعيش بأسلوب حياة مخالف لما تقول.

لقد قدم مثل هذا الاعتراض إلى أفلاطون، وأبيقور، وزينون؛ بينما لم يكونوا في الواقع يتحدثون عن حياتهم، بل كانوا يصفون كيف ينبغي للمرء أن يعيش.

إنني أتحدث عن الفضيلة، وعن الخير الأسمى، وليس عن أسلوب حياتي. وعندما أثور ضد الرذائل، فإنني أثور ضد رذائلي كذلك. ولن تصدني نياتكم السيئة وأقوالكم المسمومة عن مواصلة البحث عن الخير الأسمى...

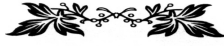
فيما نختلف إذا، أنا المجنون، وأنت الحكيم؟ إذا كان كل منا يرغب في اكتساب المال. في أمور كثيرة. فلدى الحكيم تكون الثروة مستعبدة؛ بينما هي لدى المجنون معبودة؛ الحكيم لا يعترف لها بسطان عليه؛ أما أنتم فتعطون للثروة جميع الحقوق؛ أنتم تندمجون فيها وتسلمون لها مقاليد الحكم.

الحكيم يظل مستعداً لتحمل ظروف الفقر، فهو مثل القائد المحنك الذي يؤمن بالسلام، ولكنه يستعد للحرب. إن الثروة تبهر نفوسكم، فتغرقون في متع الحياة، دون أن تهتموا بما يترصدكم من أخطار. وإذا أخذ من الحكيم ثروته، يبقى له أعز خيراته وأسمائها، لأنه يعيش في الحاضر، ويثق بالمستقبل.

قال سقراط: «لقد عاهدت نفسي ألا أخضع سلوكي لآرائكم؛ إجمعوا من كل الجهات أقوالكم... فإني لا أسمع مَذَمَّاتكم، بل أسمع صراخ أطفال بؤساء».

هذا قول من خلت نفسه من المفاسد؛ ومن لا يتردد في تأنيب مرضى النفوس ليس بدافع الكراهية، بل ليصف لهم بعض العلاج.

رسالة إلى لوسيليوس⁽¹⁾



عزيري لوسيليوس،

لا أكتب لك عن لطف مناخ الشتاء، ولا عن شدة برد الربيع وغير ذلك من الأمور العادية، بل عن أشياء يمكن أن تفيدك وتفيدني. أكتب عن الحاجة إلى أن نفكر بحكمة وروية وبصيرة. وربما تسألني ما أساس التفكير السليم؟ هو ألا نبتهج كثيراً بلحظات الغرور. فالحكيم من يعرف الأشياء الحقيقية التي تبعث في نفسه البهجة العميقة؛ وهو من لا يجعل سعادته تحت سيطرة الآخرين. وعلى عكس ذلك نجد أن من تهتز نفسه مرحاً وغبطة لأضعف الآمال، لا يخلو فكره من بعض القلق والشكوك، حتى ولو كان هدفه على مرمى سهم منه، وظن أنه سيناله دون عناء.

ولعلك تظن أنني أحرمك من كثير من المتع والملذات عندما أنصحك بالتخلي عن المباهج والطيبات العابرة، كلا! فأنا لا أريدك أن تهجر البهجة والمرح أبداً؛ ولكنني أرجو أن تزرع بذور البهجة على أرض تملكها، وعندئذ ستجني ثماراً طيبة إذا نمت مباحك وأينعت داخل نفسك. ذلك لأن مصادر الغبطة المستوردة من الخارج لا تملأ

(1) من رسالة وجهها سينيكا (04 ق.م - 65 م) إلى لوسيليوس. وكان الفيلسوف سينيكا من أتباع المذهب الرواقي الذي يرى بأن كل شيء في العالم يحكمه القدر، رغم ما يبدو فيه من منطق، وأنه يمكن للإنسان أن يتقبل الحوادث بفكر صارم ونفس هادئة.

القلب، وإن كانت تحرك أسارير الوجه. والمفيد أن تظل النفس يقظة لتواجه جميع التقلبات. وليس نيل البهجة الحقيقية بالأمر اليسير. وهل تظن أنه من السهل لأي شخص أن يبدي وجهًا منشرحًا منتعشًا أمام موقف الموت؟ أو عندما يفتح باب منزله للفقير؟ أو عندما يقيد ملذاته، أو يتحمل الآلام والأمراض؟ إن من يتقبل هذه المواقف المؤلمة يشعر ببهجة عميقة، ولكنها بهجة لا تبتسم. إنها بهجة تنبع من الداخل، ولا تفارقك، إذا عرفت أين تجدها.

عزيزي لوسيلوس، الملذات التي تنعش نفس الرجل العادي ملذات سطحية ومؤقتة. أرجو أن تهجر كل ما يلمع ويغري من خارج نفسك، ولا تعول على ما يعدك به زيد وعمرو، بل ركز تفكيرك على الخير الحقيقي، واستخرجه من داخل نفسك! فماذا يعني هذا؟

إن جسدنا هش ضعيف، ولكننا لا نستطيع أن نحقق شيئاً بدون، إنه شيء ضروري، ولكنه ليس كل شيء. فالجسد يوفر لنا متعاً مؤقتة وتافهة، قد تعود علينا بالندامة. وإذا لم نمارسها باعتدال قد تنقلب إلى ضدها. الملذات منحدر وعر وسريع نحو الآلام، ما لم يتوخ المرء حدود المعقول. وإذا كان المرء يرى في الملذات كل الخير والمنفعة، فإنه يجد من العسير التمييز بين الإفراط والتفريط، وتوخي حدود الاعتدال.

ولعلك تتساءل: ما هو الخير الحقيقي إذاً؟ وما هي مصادره؟ إنها تكمن في الضمير الواعي والبصيرة اليقظة؛ وفي توخي الأهداف السليمة، والسلوك الطاهر المستقيم الذي يجعل مجرى الحياة هادئاً، منتظماً، يواصل دربه دون انحراف ولا تطرف.

وما أقل عدد أولئك الذين يقررون بأنفسهم خطط حياتهم ومسيرة شخصياتهم. إن حياة معظم الناس تشبه الأخشاب العائمة فوق النهر، فهم لا يسيرون وفق إرادتهم، بل يسوقهم التيار: بعضهم تحصره المياه الهادئة في زاوية؛ وآخرون يسوقهم التيار إلى إحدى ضفتي النهر؛ وبعضهم يجرفهم تيار عنيف فيرميهم في البحر. ولهذا ينبغي للمرء أن يحدد بوضوح الهدف الذي يرغب فيه، ويتجه نحوه بعزم وثبات.

ويسعدني أن أختتم رسالتي بعبارات من كلام أبيقور⁽¹⁾، وهو شخص عزيز عليك «إنه لأمر مزعج أن يعيش المرء دائماً في أول يوم من حياته». وإليك عبارة أخرى بدلها، لعلها تعبر بصورة أوضح عن فكرته «إن من يبدأ حياة جديدة في كل يوم جديد، تكون حياته فقيرة». ولعل هذه العبارة تحتاج إلى الشرح: إن حياة هؤلاء تظل دوماً في بدايتها، فهي غير ناضجة ولا مكتملة، فالإنسان الذي يبدأ حياته الآن، اليوم، لا يستطيع أن يقف وقفة ثابتة صامدة مستعداً لمواجهة الموت. وما علينا أن نفعله ونشعر به هو أن نكون «قد عشنا حياة كافية شافية». ومن الواضح أن الإنسان الذي يبدأ حياته اليوم فقط لا يستطيع أن يبلغ هذه المرحلة. ولا تظنَّ أن هذه الحالة تنطبق على عدد قليل من الناس فقط. بل إنها حالة معظمهم: فبعضهم لا يباشر

(1) أبيقور (342 - 270 ق. م) فيلسوف إغريقي، اشتهر مذهبه بالدعوة إلى اللذة مع مراعاة الاعتدال والتوازن النفسي. وكان لأرائه حول اللذة والحرية والموت والعقائد تأثير كبير على العالم اليوناني والروماني.

الحياة إلا في اليوم الذي ينبغي له أن ينهيها. وإذا تعجبت لهذا القول إليك ما يزيد تعجبك: من الناس من ينهون حياتهم قبل أن يبدأوها!

المخلص لك دائماً

سينيكا

(الرسالة رقم 23)

العناية الإلهية⁽¹⁾



جميع الناس يغتبطون بظروف الراحة والهناء، أما مواجهة ظروف الألم والمصاعب والتعاسة والشقاء، وكل ما يرهب الإنسان، فهو من خصائص الروح العظيمة. فمن يقضي حياته كلها في سعادة ووفرة، دون أن يعاني شيئاً من متاعب الحياة وتقلباتها وأوجاعها، فهو يجهل الجانب المهم من جانبي الطبيعة.

هل تزعم أنك ذو نفس عظيمة؟ أني لي أن أعرف ذلك؟ إذا لم ينزل عليك القدر ظروفاً قاسية تظهر معدنك. لنفرض أنك نزلت إلى حلبة الميدان، ولكن لم يلحق بك منافسك الذي يصارعك، إنك تتال إكليل النصر من غير أن تنتصر على أحد؛ فالناس لا يصفقون لك كرجل منتصر بل كشخص نال وظيفة. ويصدق الوضع نفسه على من لا يواجه في الحياة مصاعب يظهر خلالها ما يتمتع به من علو المهمة والقوة النفسية والشجاعة الروحية.

«يبدو أنك شقي حقاً إذا لم تواجه في حياتك أبداً بعض الشقاء» فإذا قطعت مراحل حياتك دون منافس يمتحن قوة عزمك وشدة مراسك، فلا أحد يعرف، ولا أنت نفسك تعرف، ما هي قدراتك وإمكانياتك ومواهبك. وقد حدث أن سمعنا بأشخاص يرمون بأنفسهم

(1) من رسالة للفيلسوف الروماني سينيكا عنوانها "De la Providence".

طوعاً في مسالك الخطر ليخرجوا ما في نفوسهم من مزايا وقوة نفسية ومعنوية لكي لا تبقى مواهبهم خامدة في الظلام.

إن النفوس العظيمة تشعر بالمتعة أحياناً في خضم الصعوبات والأخطار، تماماً مثل الجندي الشجاع في المعركة. وقد سمعنا أحد كبار المصارعين يتذمّر ويشكو من قلة فرص المصارعة ويقول: «إنها أيام تمر وتضيع بدون متعة».

الشجاعة تحلم بالمغامرة وتشتاق إلى ركوب الخطر. إنها تحلم بالهدف الذي تطلبه، لا بالمصاعب التي تحول دونه، لأن الآلام تشكل جزءاً من إكليل الانتصار. ألا ترون أن من يمتهنون الحرب يفخرون بجراحهم، ويشيرون باعتزاز إلى الدم الذي ينزف من أعضائهم؟ ألا تلاحظون أن الجنود الذين يعودون من المعركة بغير جروح على أجسامهم لا يلاقون احتفاء كبيراً حتى ولو أنهم أبلوا في المعركة.

يبدو أن الآلهة تراعي الرجال الذين تود أن تعلي منازلهم بأن توفر لهم الفرص المواتية التي يظهرون فيها أروع ما في نفوسهم من مواهب وفضائل، ويبرزون أنبل ما في سلوكهم من شمائل. وقد تضع الآلهة في طريقهم عقبات وأخطاراً لتخرج ما في قلوبهم من شجاعة وشهامة؛ فالبهار الخبير تظهر مهارته وقت العاصفة، والجندي الشجاع يعرف أثناء المعركة.

وأنى لي أن أعرف قواك الروحية عندما تواجه البؤس والفقر والشدائد، إذا كنت تسبح في بحر الرخاء والترف؟ وكيف أحكم على

ملخصات من الأدب الروماني —————

سلوكك في ظروف الفضيحة والعار وسوء المصير إذا قضيت حياتك
ترفل في ثياب العز والرفاه، وجميع من حولك يلاطفونك ويحاربونك
ويصفقون لك ويسعون لنيل رعايتك؟

كيف لي أن أعرف مدى صبرك وصفاء نفسك أمام وفاة أبنائك،
وأنت حتى الآن لم تفقد فرداً من أعضاء أسرتك؟ بلى، لقد سمعتك
تعزي الآخرين في مصائبهم، ولكن لا أعرفك على حقيقتك حتى أرى
كيف تعزي نفسك بنفسك. أناشدكم ألا ترتاعوا أمام هذه الحوادث
التي تسلطها الآلهة علينا لتحفز أرواحنا وتبلو إيماننا: فالألم والشقاء
والخطر... هي المهماز الذي يوقظ ما في نفوسنا من همة وشجاعة
وعزيمة وفضائل.

حول صلاح السلطان وفساده⁽¹⁾



إن صفات الرحمة والتسامح هي التي تجعل الفرق بين السلطان الصالح والطاغية: فكل منهما محاط بجنود مسلحين، ولكن الأول يستخدمهم لحماية الرعية وتحقيق الأمن والعدل والسلام، والثاني يستغل تلك القوة ليقضي على الأحقاد التي يثيرها في نفوس مواطنيه. وحتى عندما يشاهد تلك السواعد المسلحة التي تحيط به لتحميه، لا يكون مطمئناً لإخلاصهم له. فالناس يكرهونه لأنهم يخشونه، وهو يجعل شعاره «فليكرهوني، ما داموا يخشونني».

إن الكراهية إذا تجاوزت حدود المعقول تعرقل الحماس، ولكنها عندما يطول أمدتها وتبلغ مرحلة التطرف، تثير الحماس والجرأة في أضعف النفوس، فتحفزها وتدفعها إلى فعل ما لا تحمد عقباه. ألا نلاحظ أنه يكفي سياج من القش الخفيف لحبس قطيع من الحيوانات، ولكن إذا ساق القطيع فارس مستخدماً سهامه، يقفز القطيع على السياج، ويدعس كل شيء في طريقه.

ذلك لأن أشد أنواع الشجاعة عنفاً هو ما ينفجر به قلب الإنسان تحت ضغط الثورة من أجل البقاء. ولهذا كان من الحكمة لمن يبعث

(1) ملخص من مقال عنوانه "De la clémence" وجّهه الفيلسوف سينيكا إلى تلميذه الشاب الإمبراطور نيرون بعد جلوسه على عرش روما، وكان سنه نحو سبع عشرة سنة.

الخوف في النفوس أن يترك مجالاً للأمل في النجاة، لأنه إذا تيقن المرء أن خسارته إذا بقي راضياً مسالماً تساوي لا محالة خسارته إذا ثار مدافعاً عن حقه، فإنه يفضل أن يتحدى الخطر ويجازف بحياته، لأنه بلغ مرحلة اليأس.

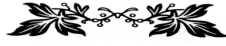
إن الملك العادل المخلص المتسامح يستطيع أن يعتمد على جميع فرق جيشه، لأنه إنما يستخدمه للصالح العام. والجندي يفخر بكونه يسهر على أمن الشعب وكرامته، ويتحمل طوعاً جميع الجهود الضرورية لتحقيق هذا الهدف النبيل؛ ولأنه مقتنع بأنه يحرس أبا الوطن، الملك.

أما الحاكم المستبد الذي يستخدم جنوده كوسائل وأدوات لقمع من يعتبرهم أعداءه، فهو غير مطمئن لولاء من يخدمونه وإخلاصهم. وهو يعلم أن الرجال من حوله والآلهة من فوقه يشهدون على ما يرتكب من جرائم. وهو شقي بسلطانه لأنه بلغ مرحلة لم يعد فيها قادراً على تغيير سلوكه. فمن أسوأ أصناف الوحشية أن يشعر الطاغية أنه مضطر لأن يواصل ممارسة طغيانه، لأنه تجاوز خط الرجعة.

فما أسوأ مصير من يجد نفسه محكوماً عليه أن يخشى جميع من حوله، وأن يشك في جميع من هم داخل قصره، فلا يثق بأولاده وأقاربه وأصدقائه وحاشيته.

أما السلطان الذي يمارس حكمه بالعدل والإحسان، ويسهر على حقوق الجميع، ويشرك الناس في خيرات البلاد، ويفتح ذراعيه أمام مطالب الشعب المشروعة... فإنه لا شك ينال محبة الشعب وتقديره، ويحظى بحمايته، إذا دعت الحاجة لذلك.

الإنسان مخلوق بئس⁽¹⁾



يبدو أن الطبيعة خلقت كل شيء لصالح الإنسان، ولكنها مقابل ذلك جعلته يدفع ثمن الخيرات التي جعلتها تحت تصرفه، لدرجة أصبح من الصعب القول: هل الطبيعة أمّ حنون، أم أمّ قاسية؟

أولاً نلاحظ أن الإنسان، من بين جميع الكائنات الحية، هو المخلوق الوحيد الذي تكسوه الطبيعة بجلود، وأصواف، ووبر.. المخلوقات الأخرى. فقد وهبت الطبيعة لكل جنس من أنواع الكائنات الحية الأخرى نوعاً من الحماية الخاصة به: من قواقع، ودروع، وقشور، وجلود، وشعر، وريش، وفرو، وحرير، وحراشف، ومحار، وصدف... بل وحتى جذوع الأشجار كستها الطبيعة بطبقة لحاء تحميها من الحر والبرد والحشرات.

فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي ترميه الطبيعة عارياً على الأرض منذ ولادته. ولا يوجد حيوان آخر يبدأ حياته بالبكاء والصراخ غير الإنسان. أما الابتسامة فلا تظهر على وجهه عادة قبل الأربعين.

وبعد التجربة الأولى العسيرة، نجد المولود مستلقياً على ظهره، أو على بطنه، ذراعه وساقاه مشدودة إلى بدنه (في حالة التقييط)، وهكذا يبدأ هذا المخلوق الذي قدر له أن يسود الآخرين، حياته بالمعاناة.

(1) بليني الكبير (23 - 79م) مؤرخ وفنان، اشتهر بكتابه الضخم «التاريخ الطبيعي». وهذه الفقرات مقتبسة من المجلد VII ، 1 - 5.

ملخصات من الأدب الروماني

وتمر الأيام، فتكون أول علامة من علامات تحرره أن يزحف على أربعه. ومتى سيمشي، ويتكلم، ويغذي نفسه بنفسه؟ متى ستختفي علامة ضعفه؟

نجد أن جميع الحيوانات تعي ما لديها من مواهب غريزية تساعد على الحياة، فتطير، وتسبح، وتركض.. أما الإنسان فلا يقدر على استغلال مواهبه ما لم يساعده الآخرون.

والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يعاني مشاعر الحزن، والإفراط في الملذات، والجشع، والطموح، وإشباع الرغبات الأنانية الجامحة، والاعتقادات الخرافية، والتفكير في الموت والفناء، وما بعد ذلك.

وأخيراً، بينما نجد الحيوانات تعيش وسط جنسها في أمن وسلام، ولا تلجأ للعنف إلا ضد الأجناس الأخرى، نجد أن الإنسان هو مصدر الآلام والشقاء والمصائب التي تصيب الإنسان، في معظم الحالات.

تأملات حول الحياة والموت⁽¹⁾



لقد وهبتنا الطبيعة «الحياة»، وهي هدية هشة سريعة العطب. ومهما كان حظ الإنسان منها فهي هبة بئيسة، سريعة الزوال، قصيرة المدى، خاصة إذا نظرنا إليها في إطار لانهائية الزمان.

وإذا أخذنا في الحسبان المدة التي يقضيها المرء نائماً، وهي حالة تشبه الموت، فإن المرء في الواقع لا يعيش أكثر من نصف حياته. وإذا أضفنا إلى ذلك سنوات الطفولة الأولى، وهو لا يعي تماماً معنى الحياة، وسنوات الشيخوخة والعجز والضعف والمرض التي يعاشر فيها المرء القلق والآلام، وأضفنا فترات أخرى يعاني فيها المخاوف والهموم والأخطار والكوارث... فماذا يبقى له من سنوات المتعة والسعادة؟

يبدو لي أن أهم هبة منحها الطبيعة للإنسان هي قصر فترة الحياة. وكثيراً ما تحيط به المتاعب قبل الوفاة: تبدأ الحواس تفقد حدتها، وتذبل الأعضاء وتضعف، وتتعطل وظيفة المشي، وتضعف فعالية جهاز الهضم، وتفتت الأسنان، ومع هذا كله يُعدُّ المرء فترة شيخوخته وطفولته في سنوات حياته.

أما الموت فقد كان وما يزال موضوع حسابات وتوقعات

(1) بليني الكبير (23 - 79م) مقتطفات من كتابه «التاريخ الطبيعي» المجلد VII ، 167 - 168 و 188 - 190 .

وافتراضات متنوعة حول ما يحدث بعد الفناء. والواقع أننا بعد آخر يوم في حياتنا نعود إلى الحالة نفسها التي كنا عليها قبل ولادتنا. فلا يبقى للجسد ولا للروح أي إحساس بعد الوفاة.

ولكن الغرور والخوف من الفناء يدفعان الإنسان إلى السعي لتخليد ذكره، فيمنح نفسه حياة أخرى خيالية، بعد الموت. فيتحدث مرة عن خلود الروح، وحيناً عن ظاهرة التقمص، وتارة يتخيل مشاعر وحساسيات لمخلوقات في العوالم السفلى، أو يعيش مع أشباح الأجداد والصالحين... إلخ.

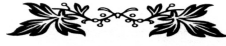
ويمكن للمرء أن يتساءل في النهاية: ما هو جوهر الروح؟ وما مادتها؟ وما مصدرها؟ وأين يكمن مركز تفكيرها وشعورها؟ وكيف تستطيع أن تتحدث وتسمع وترى؟ وكيف تستخدم مواهبها الأخرى؟ وفي أي مكان توجد هذه الأرواح والأشباح؟ وما هو عددها الآن بعد مرور آلاف السنين على الخليقة؟

ليست جميع هذه الآراء والتخيلات والنظريات سوى اختراعات صبيانية، اختلقها البشر خوفاً من الفناء، و رغبة في الوصول إلى الخلود. لقد دفع هذا النوع من الغرور العالم ديموقريط إلى الدعوة إلى تحنيط الجثامين البشرية أملاً في حياة ثانية، ولكنه لم يحقق ذلك حتى لنفسه.

يا لشقاء الإنسان! ما هذه الحماسة، وما هذا الجنون وما هذه الأنانية والغرور الذي يزعم بأن الموت حياة ثانية؟! حياة جديدة! سوف

لا ينعم البشر بالسلام أبداً إذا كانت أرواحهم «في السماء»، وأشباحهم في «العوالم السفلى» تشعر وتعي وتحس! إن العقائد التي تحاول أن تعزي الإنسان أمام مصيره المحتوم: الفناء، لا تفعل أكثر من أنها تحطم العمل الصالح الجوهري الذي فرضته الطبيعة، ألا وهو «الموت». لأن من يعدون الناس بحياة جديدة، إنما يضاعفون عذابهم.

الأرملة والجندي⁽¹⁾



كان يوجد في مدينة إفيز امرأة اشتهرت بعفافها وأخلاقها الفاضلة لدرجة كانت تأتيها النساء من مناطق بعيدة للتبرك بها. وحدث أن توفى زوجها، فلم تكتف، كما تفعل النساء عادة، بلطم خديها وبتف شعرها وتمزيق ثيابها، بل مكثت داخل السرداب، إلى جانب قبر زوجها، تبكيه وتتدب حظها.

لم يستطع أقرباؤها ولا صديقاتها، ولا حتى قاضي البلاد أن يسلوها عن مصابها أو يخففوا من آلامها. وظلت جالسة بالقرب من قبر زوجها ليلاً ونهاراً طيلة أربعة أيام، من غير أكل ولا شراب. وكانت ترافقها في وحدتها خادمة وفيه، تجدد زيت المصباح. وكانت هذه المرأة الوفية العفيفة موضوع حديث أهل المدينة، وجميعهم يكررون بأنهم لم يشهدوا مثل هذه الزوجة الطاهرة ذات الأخلاق الفاضلة.

وحدث ذات يوم أن أمر حاكم المنطقة بصلب عدد من قطاع الطرق في مكان مجاور للسرداب الذي دفن فيه زوج المرأة الفاضلة. وكان يحرس جثث المصلوبين جندي خشية أن يأتي أقرباؤهم ليلاً لإنزال الجثث ودفنها. وفي الليلة التالية لاحظ هذا الحارس أن هناك

(1) ملخص هذه الحكاية من قصة طويلة عنوانها Satyricon لمؤلفها Petrone Arbiter (توفى سنة 66 ميلادية)، ويعتبرها النقاد أول قصة طويلة في أدب أوروبا الغربية.

ضوءاً ينبعث من وسط القبور، وسمع بكاءً وأنيناً، فرغب في أن يعرف ما يجري.

نزل في السرداب فشاهد امرأة رائعة الجمال؛ فذعر بادئ الأمر، إذ خيل إليه أنه يرى أشباحاً. وعندما اقترب رأى امرأة وخادمة وقبراً؛ وكانت الزوجة تنوح وقد جرحت خديها بأظافرهما، فأدرك ما يحدث. فأتى بما معه من طعام، وراح يناشد المرأة أن تتوقف عن الحزن والبكاء، وأن كل هذه الدموع والآلام، سواء طالت أسبوعاً، أو شهراً لا تردّ الأحباء، وأن الحياة يجب أن تتغلب وتستمر...

وظلت الأرملة تنتف شعورها وتضرب صدرها، ولكن الجندي لم ييأس، واستمر يواسيها ويخفف من أوجاعها، محاولاً إقناعها بتناول بعض الطعام. واشتاقت نفس الخادمة إلى مذاق الطعام، فمدت يدها وتناولت قسطاً منه. بعد ذلك بدأت هي الأخرى تحث سيدتها على تناول بعض الطعام... وأخيراً قررت أن تتمسك بالحياة، فاستجابت لمناشدة الجندي، وتناولت بعض الطعام.

واستخدم الجندي بعد ذلك أسلوب الإغراء لإقناعها بالتمتع بملذات الحب الجديد المائل أمامها. والواقع أن المرأة العفيفة وجدت فيه كثيراً من خصال الشهامة واللطافة وحسن المنطق والمظهر. وراحت الخادمة تشجعها على الاستجابة لما يبديه هذا الجندي نحوها من مشاعر الإعجاب والحب، وتناشدها ألا تضيع شبابها وتحرم نفسها من ملذات الحياة.

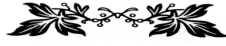
وكسب الجندي هذه المعركة أيضاً، فسمحت له أن يقضي الليلة إلى جانبها؛ وتكررت التجربة، فكان يغلق باب السرداب ويؤنس وحدتها حتى مطلع الفجر.

وذاث ليلة لاحظ أقرباء أحد المصلوبين غياب الحارس، فأنزلوا جثمان قريبهم المصلوب ونقلوه إلى مكان بعيد ليدفنوه. وعندما عاد الجندي في الصباح إلى مكان حراسته وجد أن جثمان أحد المصلوبين قد اختفى، وشعر بالرعب أمام ما ينتظره من عقاب.

رجع مسرعاً إلى حبيبته وأخبرها بما حدث، قائلاً إنه سوف لا ينتظر الحكم الذي تصدره ضده المحكمة، بل سيعاقب نفسه على إهماله واجبه بأن يشق أحشاءه بسيفه؛ وطلب منها أن تدفنه إلى جانب زوجها في قبر واحد.

وأجابته المرأة الصالحة العفيفة: إنه لا يرضي الآلهة أن أدفن الرجلين اللذين أحببتهما أشد الحب، في أسبوع واحد وفي مكان واحد. كلا! بل سأضع الميت على الصليب لأنقذ حياتك. وأمرت على الفور بإخراج جثمان زوجها وصلبه مكان المصلوب الذي أخذه أقاربه.

صولون⁽¹⁾



صولون Solon رجل دولة، وشاعر أثيني، ولد حوالي 630 قبل الميلاد، وتوفي سنة 560 تقريباً. وضع لبلاده، أثينا والأراضي المجاورة لها، دستوراً متوازناً، وأصدر قوانين ملائمة لإصلاح ظروف البلاد والعباد؛ واستغل شعره لتوجيه الجمهور، وحثهم على العمل والعدل. وقد أجمع اليونانيون على اعتباره أحد الحكماء السبعة (أو العشرة) في بلادهم. وبعد أن قاد البلاد مدة 25 عاماً، ومن أجل أن يتجنب الاستمرار في الدفاع عن قوانينه، اختار أن يغيب عن البلاد مدة طويلة، فقام برحلات زار خلالها قبرص؛ ومصر حيث لقي الفرعون أماسيس؛ واستضافه كروسوس، ملك ليديا. كان سنه عندئذ قد بلغ 66 عاماً، وقال كلمته الشهيرة: لقد تقدم بي السن، ولكني ما زلت أتعلم.

ويروي هيرودوت أن صولون زار الملك كروسوس في مدينة سرديس، عاصمة ليديا قديماً⁽²⁾؛ وهناك أطلعه الملك على كنوزه وخزائن ثروته، وبعد ذلك طرح عليه السؤال: أيها الضيف، لقد سمعنا عن أسفارك وتجاربك وحكمتك، أرجو أن تقول لي: مَنْ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ الَّذِينَ عَرَفْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَسْعَدُ الرِّجَالِ؟ فأجابه صولون: إنه Tellus (تيلوس الأثيني)، يا سيدي.

(1) المرجع الرئيسي هو كتاب «سيرة نبلاء اليونان والرومان» للفيلسوف وكاتب السير بلوتارخ (46 - 120م).

(2) كان موقع مدينة سرديس قرب مدينة إزمير، في تركيا.

تعجب الملك كروسوس، لأنه كان يتوقع أن يقول له: أسعد الناس طرا هو أنت، أيها الملك. ثم سأل ضيفه: وفيما تظن أن تيلوس هذا كان أسعد الناس؟ فأجاب صولون: أولاً لأن بلاده ظلت مزدهرة طيلة مدة حكمه؛ ثم إنه أنجب أولاداً صالحين؛ وعاش حتى رأى أحفاده من جميع أولاده. ثم بعد أن قضى حياة في ظلال الهناء والقناعة، نشبت معركة بين أثينا وجيرانها، فسارع إلى مساعدة مواطنيه، فانتصروا على أعدائهم، ومات تيلوس في ساحة المعركة موت الأبطال، فاكتسب بذلك المجد والذكر الحسن.

ثم سأل كروسوس صولون ثانية: ومن الرجل الذي تعتبره أسعد الناس، بعد تيلوس؟ فقال صولون: إنهما رجلان، يا سيدي، Cleobis، وBito. فقد كانت لهما ثروة تكفي احتياجاتهما، ومنحتهما الطبيعة قوة بدنية مكنتهما من أن يحرزا جوائز في الألعاب الرياضية. وتروي عنهما القصة التالية:

نُظِمَّ احتفال ديني عظيم في مدينة أرغوس لتمجيد الإلهة جونو⁽¹⁾. وكان الرجلان قد عزموا على مرافقة أمهما إلى هذا الاحتفال في عربة تجرها الثيران. غير أن الحيوانات لم تعد من الرعي في الوقت المحدد. فوضع الرجلان النير على أكتافهما، وجرا العربة حتى وصلا إلى المعبد حيث يقام الاحتفال. ومدح جميع الحاضرين إنجاز الرجلين، وابتهجت الأم بما فعل ولداها، وبما نالته من تكريم لدى

(1) جونو ملكة السماء في أساطير اليونان.

زائري المعبد، وطلبت من الإلهة جونو أن تتعم على ولديها بأسمى البركات التي ينالها الأولاد الأوفياء.

قدمت الأم وولداها القريان للمعبد المقدس، وجلسوا إلى مأدبة الطعام مع غيرهم؛ ثم استلقى الرجلان في زاوية من المعبد للراحة، فلم يستفيقا من سباتهما. واعتبرهم سكان المدينة من الصالحين، وشيدوا لهما تمثالين وضعا في معبد دالفي.

وعندما انتهى صولون من حكايته، أبدى الملك الثري كروسوس انزعاجه لكون صولون لم يعتبره من أسعد الناس....

وكان عيسوب⁽¹⁾، صاحب الحكايات الشهيرة، يعيش في مدينة سارديس؛ فاجتمع بصولون، وقال له: ليكن كلامك مع كروسوس مختصراً أو مناسباً. فأجاب صولون: بل مختصراً أو معقولاً.

ثم حدث بعد ذلك أن تغلب قورش، ملك الفرس، على الملك كروسوس، فأسره، وأمر أن يوضع على كومة من الحطب ويحرق. وقبل إشعال النار، سمع كروسوس يصرخ أمام الجمهور، بأعلى صوته قائلاً: صدقت يا صولون... وكررها ثلاث مرات. وسمع ملك الفرس الصراخ، فتعجب من ذكره لاسم صولون في هذه المحنة. وقص كروسوس على الملك حواراه مع صولون، فقال:

لقد أرسلت إليه ليزورني، وبعد أن أطلعتته على ما كنت فيه من

(1) عيسوب AESOP، يقول هيرودوت إنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد؛ ويقول بلوتارخ إنه كان من مستشاري الملك كروسوس. ويحتمل أنه شخصية أسطورية.

ملخصات من الأدب الروماني

عزٌّ ونعمة... أنكر عليّ أن أكون من أسعد الناس، لأنه لا يحكم على أحد بذلك حتى يحين أجله. وها أنا في أشد الشقاء، أواجه الموت، بعد أن فقدت كل ما كنت أعتبره من مصادر الحياة السعيدة.

كان ملك الفرس رجلاً حكيماً؛ فعندما تأمل نهاية الملك كروسوس التعسة، بعد الملك والثراء، أدرك حكمة صولون بأن سعادة المرء لا تكتمل إلا إذا كانت نهايته سعيدة. فاتعظ بمصير كروسوس، وأطلق سراحه؛ بل قربه إليه وهياً له أسباب الحياة الكريمة. وهكذا ارتفعت شهرة صولون الحكيم، لأنه بأرائه السديدة أنقذ كروسوس من الموت، وقدم موعظة خالصة لقورش، ملك الفرس، حول حياة الملوك ونهايتهم. وقد أجمع اليونانيون على جعل صولون في مركز بين الحكماء السبعة.

ومن القوانين التي سنّها أثناء فترة حكمه في أثينا:

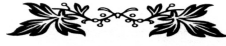
- قانون يلزم الدولة بتربية أولاد من يقتلون دفاعاً عن الوطن.
- منح حق المواطنة لكل أجنبي يتقن حرفة، ويقيم في أثينا.
- جعل البطالة جريمة، ويعاقب كل من ينفر من العمل.
- منع إطالة الندب والعيويل على الموتى؛ والإفراط في تقديم القرابين المكلفة؛ ومنع الاحتفالات الفخمة المكلفة.
- شجع الشباب على تعلم الصناعات، وجعل الولد غير ملزم بالإنفاق على أبيه إذا لم يعلمه حرفة نافعة.
- حدد مهور النساء لتشجيع الشباب على الزواج.

- جعل الغيبة والنميمة جريمة يعاقب عليها .
- سنّ قانونا يلغي جميع الديون الجارية، سواء كانت للأفراد أو للدولة؛ وكان صولون نفسه من بين من خسروا ديوناً كبيرة كانت له لدى الناس .
- حرر من كانوا يسترقون لخدمة الأرض .

ومن أقواله :

- لا يسعدني أن أنجز أي إصلاح بالقوة، لأنني لست طاغية .
- لا يليق أن ينال الفقراء حصّة من الأرض مساوية لحصة النبلاء .
- لقد جعلت ترساً قوياً أمام كل طبقة، حتى لا تتسلط الواحدة على الأخرى .
- أعطيت للفقراء ما يكفيهم من المزايا؛ وراعت ألا يعاني الأغنياء في ظل النظام الجديد .
- لقد أعدت إلى أثينا كثيراً من مواطنيها الذين هاجروا أو بيعوا في الخارج .
- وسئل متى تصبح أركان الدولة ثابتة؟ فقال: عندما يطيع المحكومون الحكام، ويطيع الحكام القوانين .

عن الخجل والوقاحة⁽¹⁾



غالبًا ما يقع الرجل الخجول في نفس الأخطاء التي يرتكبها أشد الناس وقاحة؛ غير أن الأول يشعر بالندم على إخفاقه، بينما يشعر الثاني بالمتعة والرضى تجاه وقاحاته. فقليل الحياء لا يحزن على وضاعة سلوكه، أما الخجول فيتألم لفشله.

وما الخجل إلا ضرب من الإفراط في التواضع، يعرف صاحبه عند ارتبائه واضطراب تصرفاته. ومن الحزن ما يجعل المرء يخفض بصره نحو الأرض، ويعرف بالغم والاكتئاب؛ ومن التواضع المفرط ما يجعل المرء لا ينظر إلى الناس مباشرة في وجوههم، ويدعي «الخجل».

قال أحد الخطباء: الرجل الوقح يحمل في عينيه مومسا؛ أما الخجول فتكشف نظراته عن رقة أفكاره، وأنوثة مواقفه، وشدة حساسيته؛ وهذا ما يجعله ضحية الأشرار. ولعله من المفيد أن يخشى المرء شناعة ما يقدم عليه من أعمال شريرة، أكثر من خشيته ما تسبب له من لوم وعتاب؛ وأن يخشى الارتباك، والشبهات، والارتياب، والشكوك التي تنجم عن القيام بعمل شريير، أكثر من خشيته ما قد ينجم عنه من خطر. وكم من شخص لم يجرؤ على إنجاز أعمال نبيلة،

(1) للفيلسوف وكاتب السير بلوتارخ (46 - 120).

ليس لأنها محفوفة بالأخطار، ولكن لخشيته مما قد يتعرض له من افتراء وتشويه لسمعته.

يعقد الخجل لسان صاحبه فيمنعه من التعبير بطلاقة عما يجب وما يكره، وعن وجهات نظره؛ بل قد يدفعه لقول ما يعارض مصالحه ومبادئه. ولذلك نلاحظ أنه من السهل على الوقح المتهور أن يسيطر على الخجول، ويخضعه لطيشه وإرادته. النفس الخجول مثل قطعة أرض رخوة ومنخفضة، لا تثبت أمام أي مقاومة، ولا تقاوم ما يوجه إليها من اتهامات وإساءات...

إذا تناول شخص كأسه ليشرّب لصحتك، وكنت قد شربت ما يكفيك، فلا تتواضع خجلاً وتفعل مثله فتضر بصحتك، وإذا قيل عنك إنك جبان لأنك رفضت أن تشارك في عمل يضرّ بك، فليكن جوابك: «لأن أوصف بالجبن، أفضل من أن أقوم بعمل يحطّ من قدرتي». وإذا التصق بك شخص ثرثار، ثقيل الظل، فلا تتردد في أن تتجاهله وتتهض لعملك. قد يصفق بعض البسطاء لممثل لا يحسن تمثيل دوره؛ أو لشخص يسيئ عزف مقطوعة جميلة؛ أو لخطيب لا يحسن القول... ففي هذه المواقف ليس من قلة الأدب أن تحتفظ برزانتك، ولا تشارك في مدح عمل أنت غير معجب به. وليس من كرم النفس أن يسارع المرء إلى الثناء على كل من هبّ ودبّ، ليقال عنه إنه لطيف، رقيق المشاعر، يشجع الفن....

يحكي أن شخصاً من حاشية ملك من ملوك مقدونيا، سأل الملك أثناء مأدبة عشاء، أن يهبه قدحاً ذهبياً؛ فرفع الملك القدح وقدمه إلى

الشاعر اليوناني يوربديز، وقال للرجل من حاشيته: أنت بوسعك أن تطلب أي شيء، وألا تنال أي شيء. أما الشاعر فهو جدير بأن ينال أي شيء، ولكنه لم يطلب شيئاً.

الخبول حارس سيء لممتلكاتنا؛ فنشاهده أحياناً حتى في القضايا الحيوية يتردد في اتباع الرأي السليم، ويضطرب في التمسك بمنطق الواقع وحكمة التجارب. ونذكر على سبيل المثال، لا الحصر، أننا أثناء أزمة مرض نتردد في الإتيان بطبيب خبير متخصص، ونلجأ إلى طبيب من معارفنا، خشية أن نجرح مشاعر هذا الأخير. وفي خصومة قضائية، قد لا نلجأ إلى محام خبير متخصص للنصيحة والدفاع، لمجرد إرضاء آخر من أقربائنا أو معارفنا.

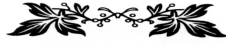
ولهذا ينبغي لنا أن ندرب أنفسنا على مواجهة نشاطاتنا اليومية من غير أن نخضع لعوامل الخجل والضعف والمجاملة، حتى في الحالات البسيطة مثل اختيار الحلاق والخياط والسكن... وعندما نحیی المناسبات والأعياد، وننظم الحفلات والأعراس، ينبغي ألا ندعو أشخاصاً مجرد أنهم يتوددون لنا، ويجاملوننا.. بل ينبغي الاهتمام بدعوة أشخاص ممن عرفوا بكرم الأخلاق، من أصحاب الطبع السليم، والظرف الممتع، ممن يحسنون الحديث. كما ينبغي الحذر من دعوة أشخاص يبالغون في الشرب والطرب والمزاح مما يسيئ إلى أجواء الاحتفال أو يفسده.

في كل إفراط ومغلاة ما يعيب المرء. فالطموح المفرط قد يورث العار؛ والإفراط في الشهوات يسبب التوعك والوهن والألم؛ ورقة

المشاعر المفرطة محفوفة بالمشاكل؛ والميل للمشاكسة والمشاجرة، يجلب القلق والندم والشعور بالخيبة. وأكثر ما تظهر هذه المشاكل بجلاء لدى من يعاني من علة الخجل؛ فهو كمن يحاول أن يتجنب دخان اللوم والتأنيب والندم، ويسعى لكسب عطف الناس ورضاهم، فيرمي بنفسه في نيران الفشل والشعور بالخيبة.

وما يحتاجه هذا الصنف من الناس هو «الثقة بالنفس». وما على المرء إلا أن يعد نفسه لرفض المدح المزيّف والثناء المغرض، وأن يعقد العزم على ألا ينخدع بالوعود البراقة والأحاديث المزخرفة؛ وألا يستجيب لمطالب المداهنين والمتطفلين؛ وأن يحذر كل من يحاول جره إلى متاهات، أو إغراقه في المشاحنات والمناورات؛ فلا يقرض ماله لفلان؛ ولا يشهد لصالح فلان، أو ضد فلان، ولا يعد بخدمات خارج نطاق الأخلاق والقانون؛ ولا يزج بنفسه في تجارة أو مشروع إلا في إطار الشرع والقوانين.... إلخ وإذا اصطدم بصخرة، أو وقع في حفرة، وهو مسافر على درب الحياة، فعليه أن يختزن تلك التجربة في ذاكرته جيّداً، ليتجنب عثرات أخرى، قد تكون أسوأ من سابقتها.

ماركوس كاتو الأكبر



يذكر بلوتارخ في كتابه «سيرة نبلاء اليونان والرومان» أنه كان من عادة الرومان أن يسموا من ينالون شهرتهم الاجتماعية بالجهد والعمل الدؤوب، وليس بالحسب والنسب، يسمونهم «حديثي النعمة، والرجال الجدد». وكذلك كان ماركوس كاتو (234 - 149 ق.م.)

ويحدث بلوتارخ عن كاتو الأكبر فيقول إنه مارس منذ شبابه عادات حسنة قوت بدنه وصحته، فأصبح قادرًا على تحمل الأعمال الشاقة. وكان يدرّب نفسه على النطق البليغ والكلام البليغ، لأنه كان يعتقد أن بلاغة المنطق «روح ثانية» للبدن. ولم يتردد في أن يشارك في الحروب، وقد أصيب بجروح كثيرة وهو دون العشرين من عمره.

وساعده الحظ على لقاء رجل يدعى فاليريوس فلاكوس، وكان ذا نفوذ كبير في روما، فأعجب به وقربه إليه، وساعده على تولي أعمال هامة حتى وصل في نهاية المطاف إلى مركز «رقيب» فأصبح مسؤولاً عن إحصاء السكان ومراقبة الأخلاق في روما.

كان كاتو رجلاً عصامياً، وكان سلوكه نموذجاً لمن ينجح بجهد وكده، لا بميراثه ونسبه. كان يعمل في مزرعته إلى جانب عماله؛ وكان يتقشف في طعامه ولباسه ومرافق سكنه، لا عن بخل، ولكن ليعود بدنه على تحمل المشاق؛ وكان يشارك خدمه وعماله طعامهم؛ وعندما يقود

الجيوش لا يسمح لنفسه إلا بالقدر من الطعام الذي يقدمه لجنده. ومما ساعده على صعود سلم الشهرة حسن المنطق وبلاغة اللسان. وعندما بلغ أعلى المراكز في روما، لم يغير من أسلوب حياته المتواضع. وخلاصة القول، كما يذكر بلوتارخ، كان كاتو الأكبر رجل دولة؛ خطيباً مفوهاً؛ محارباً شجاعاً؛ ومزارعاً ناجحاً. وبالإضافة إلى ذلك كان لكتاباته تأثير كبير على تطوير النثر اللاتيني؛ وله رسائل عديدة في فن الزراعة؛ وفي تاريخ إيطاليا؛ والعلوم العسكرية؛ والقانون؛ كما جمع نحو مائة وخمسين خطبة من خطبه، لم يبق منها سوى مقطوعات هزيلة.

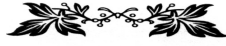
ومن أقواله :

- الرومان مثل الغنم: النعجة المنفردة لا تنقاد بسهولة، فإذا دخلت في القطيع ينقاد جميعه ويتبع صاحبه.
- لا يجدي أن نلقي الخطابات على معدة فارغة، فليس لها آذان.
- كما أن الصباغين يستخدمون الألوان التي تروق لأذواق الناس، فإن شباب روما يقلدون بحماس ألوان السلوك الشائعة بين الناس.
- يستفيد الحكماء من تجارب المجانين أكثر مما يستفيد هؤلاء من تجارب الحكماء. فبينما يتجنب الحكماء حماقات المجانين، لا يستفيد هؤلاء مما في سلوك الحكماء من حسنات.

ملخصات من الأدب الروماني

- لا يعجبني الجندي الذي يببالغ في تحريك يديه عندما يمشي، ويبالغ في تحريك رجليه عندما يقاتل؛ ولا الجندي الذي يكون شخيرته في النوم أعلى من صراخه في المعركة.
- وقال متهكماً من رجل بدين وسمين: ماذا تستفيد الدولة من رجل يشغل بطنه ما بين عنقه وفخديه.
- ندمت على ثلاث: سرّ استودعته امرأة؛ سفري بالبحر وأنا قادر على السفر براً؛ انقضاء يوم كامل دون أن أنجز عملاً مفيداً لنفسي أو لغيري.
- وقال لرجل مسن يرتكب رذيلة: أيها الصديق، ألا يكفيك عيوب الشيخوخة وأعباؤها، فتثقلها بالانحراف.
- أذاه رجل شرير فقال له: لا تكون المنافسة بيني وبينك عادلة، فأنت تعودت على النطق بالكلام البذيء، وتعودت على سماعه؛ وأنا لم أتعود على هذا ولا ذلك.
- ومن عباراته الشهيرة التي كان يختم بها كلامه في المناسبات: «قرطاج يجب أن تمحي من الخريطة» (وكانت عدو روما).

إمبراطور يقتل أمه⁽¹⁾



ظل الفتى نيرون بعض الوقت يفكر في التخلص من سيطرة أمه عليه، ومعارضتها حبّه للفتاة صابينا، وهو متزوج بأكتافيا. وكان بعض رجال القصر يتمنون أن يكسر الإمبراطور الشاب شوكة أمه الطموحة المتسلطة، ولكن لم يكن أحد يتوقع أن يصل الأمر إلى القتل.

ويذكر المؤرخ كلوفيسوس أن أغربينا (الأم) كانت مستعدة لتفعل أي شيء من أجل الاحتفاظ بنفوذها وسلطانها... بل كانت أحياناً تنتهز الفرصة عندما يكون ابنها، نيرون، في حالة سكر، فتتزين وتدخل عليه

(1) للمؤرخ Tacitus Cornelius (50 - 120م) رجل دولة، وأديب وخطيب، ومن أشهر المؤرخين في عصره. وهذه مقتطفات من كتابه Les Annales. والأم هنا هي أغربينا الصغرى، أم الإمبراطور نيرون، ولدها من زوجها الأول. وقد اتهمت بقتل زوجها الثاني بوضع السم في طعامه. وكانت شديدة الرغبة في السلطة والنفوذ. وكانت في عنفوان شبابها عندما تزوجت خالها الإمبراطور كلوديوس.

وألحت عليه كي يزوج ابنته أكتافيا لابنها نيرون، ويتبناه، ويجعله وريثاً لعرش روما؛ وعملت على التخلص من الوريث الشرعي للعرش، وهو برتانيكوس ابن الإمبراطور. وفي عام 54م مات كلوديوس زوجها (وخالها)، ويروى أنها هي التي دبرت قتله، مثلما فعلت بولده، ليخلص العرش لابنها. وكان عمره نحو 16 عاماً عندما أصبح إمبراطوراً، فتولت أمه الوصاية عليه، وبسطة سلطتها عليه في السنوات الأولى من حكمه. وكان نيرون يكره سلوك أمه، وسيطرتها عليه، ومعارضتها لعلاقته مع الفتاة صابينا... فقد نفذ صبره وقرر أن يتخلص منها، كما يروي لنا المؤرخ تاسيتوس في هذا الملخص.

في أبهى حللها وجمالها، وتغريه بالمغازلة والملاطفة، مستعدة لارتكاب الجريمة المحرمة. ويشير كلوفوس إلى أن بعض المقربين من نيرون ذكروا تبادل الأم وابنها القبالات الساخنة مما يعتبر مقدمة للفاحشة المنكرة. ويروى أن الفيلسوف سينيكا، مستشار الإمبراطور، حاول إعاقة هذه الإغراءات التي تحط من سمعة الفتى نيرون، فأرسل إليه امرأة لتلفت انتباهه إلى ما يتهامس به الناس بشأن هذه العلاقة؛ ويروى أن الأم كانت تفتخر بعلاقتها الحميمة المخزية مع ابنها الإمبراطور.

ويذكر مؤرخ آخر هو F. Rusticus بأن الإغراءات والرغبة الجنسية صدرت في البداية من نيرون الابن نحو أمه. ولكن الرأي السائد يؤيد الخبر الأول. فقد دفع أغربينا طموحها الجامح ورغبتها في السيطرة على الحكم إلى ارتكاب نزوات أخرى عديدة، منها أنها تزوجت خالها لتحقيق هذه الرغبة. ويروى أن نيرون كان يتجنب لقاءها منفرداً... وعندما تأكدا أنها أصبحت عبئاً على سلطانه وحياته، قرر أن يتخلص منها.

وتردد الفتى في اختيار الوسيلة التي يلجأ إليها للقضاء على أمه دون أن يكشف أمره. وكان عمره عندئذ نحو اثنين وعشرين سنة. فكر أولاً في «السم»، ولكن إذا حصل ذلك أثناء حفلة عشاء يصعب على الناس أن ينسبوه إلى محض الصدفة والقدر. وفكر في الضربة العنيفة القاضية، ولكن من الصعب التستر على من ينفذ هذه العملية.

ثم تقدم أحد القواد، يدعى Anicetus، وكان في نفسه حقد على أغربينا، فاقترح أن يتم إعداد حفلة عشاء على متن باخرة مزخرفة

للمناسبة في الميناء. ويجري ترتيب جزء من الباخرة بحيث يسقط في البحر عندما تلجأ إليه أغربينا للراحة بعد نهاية الحفلة، فتبتلعها الأمواج، وفي هذه الحالة يصدّق الجميع بأن الحادث كان مجرد قضاء وقدر؛ وبعد ذلك يبني الإمبراطور معبداً لأمه فيؤكد تقديره لخدماتها.

هياً الإمبراطور الظروف الملائمة لتنظيم حفلة عشاء على شرف أمه، وأشاع بأنه يرغب في إرضاء أمه وإصلاح ذات البين، وبدأ علاقات طيبة وعهد جديد يسوده التآلف من أجل مصلحة البلاد. وكان في انتظار أمه فرحب بها بحرارة وعانقها، ورافقها إلى المنصة الخاصة به فأجلسها إلى جانبه، وراح يلاطفها ويحدثها بلباقة ومودة.

وفي النهاية، اتجهت أغربينا إلى غرفتها لتستريح، ورافقها نيرون بنظرة ظاهرها العطف والمودة، وربما كان يشعر ببعض الحزن على أمّ ستلقي حتفها بعد لحظات. كانت ليلة صافية مضيئة والبحر هادئ، ولم يكن المركب بعيداً عن الشاطئ.

كان يرافق أغربينا حارسها الخاص وخدامتها. واستلقت الأم على سريرها والخدامة عند رجليها تتحدثان عن بداية مرحلة جديدة يسودها التفاهم بين الأمّ والإمبراطور. وفجأة صدرت إشارة تنفيذ الجريمة، فانهار سقف الغرفة التي توجد فيها أغربينا وخدامتها وما حولها، وهو الجزء الذي وضع فوق سطحه قطع ثقيلة من معدن الرصاص، فهلك الحارس على الفور، ونجت أغربينا لأن إطار سريرها المعدني كان متيناً ولم ينكسر تحت ثقل القطع المعدنية. أما الخادمة فقد نجت كذلك ولكن قتلها بعض الجنود ظناً منهم أنها أغربينا.

وانتهزت أغربينا جوّ الفوضى الذي ساد الباخرة فسبحت إلى أن أنقذها بعض الصيادين، وقادوها إلى منزلها. وعرفت بذكائها أن سبيل الخلاص من المكيدة هو أن تتظاهر بأن الحادث كان قضاءً وقدرًا. وأرسلت أحد خدمها إلى ابنها ليخبره بأن أمّه قد نجت من الحادث المفجع بفضل رعاية الآلهة وحسن حظ ابنها الإمبراطور، وأنها تعلم مدى حرصه على سلامتها، ولكنها ترجوه ألا يأتي الآن لزيارتها لأنها في حاجة إلى بعض الراحة.

أما نيرون فكان ينتظر أن يأتيه الخبر بأن العملية نجحت، وأن أمّه قضت نحبها تحت الأنقاض أو غرقًا في البحر. وجاء الخبر بأن أمّه قد نجت ولم تصب إلا بجروح خفيفة في كتفها؛ وأن نتيجة الحادث هي أنها أصبحت متأكدة ممّن دبر المكيدة لاغتيالها. فاشتد خوف الابن، وتيقن بأن أمّه لن تتأخر هذه المرة عن الانتقام، بأن تسلح عبيدها أو تثير حرسها... أو بأن تشكو خيانتته إلى مجلس الشيوخ وتجمع الجمهور وتندد بمؤامرة الابن على أمه.

كان على نيرون أن يسرع لضمان بقائه على العرش؛ فأرسل في طلب اثنين من مستشاريه هما سينيكا الفيلسوف وبوروس أفركانوس قائد الحرس البريتوري. وبعد صمت طويل، وجه سينيكا الكلام إلى بوروس قائلاً: لعل الحل الوحيد الآن هو إرسال الجنود للقضاء عليها، فقد أصبحت حياة الإمبراطور في خطر.

وحصل الاتفاق على أن يكلف Anicetus المذكور لينفذ المهمة. عندئذ قال نيرون: اليوم فقط يضع نيرون التاج على جبينه، وسيكون

الفضل في ذلك إلى أحد قواده المخلصين. وأمر بأن يقود Anicetus مجموعة من الجنود الأشداء ممن لا يعصون له أمراً، وأن يقضي عليها بالسلاح في منزلها.

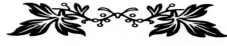
وضع القائد جنوده حول الفيلة، وطرد الحرس والخدم، وخلع الباب الرئيس، وعلا الضجيج.. وهربت آخر خادمة كانت إلى جانب أغربينا، ودخل Anicetus واثنان من قواده الغرفة وأحاطوا بسريرها، فضربها القائد الأول بهراوته على رأسها، واستل الثاني سيفه، فصاحت به: «مزق الأحشاء..» وسقطت ميتة⁽¹⁾.

هذه تقريباً هي حكاية وفاة أغربينا بإيجاز كما يتفق عليها المؤرخون. أحرق جثمان أغربينا تلك الليلة، وكانت مراسم الدفن متواضعة. لم يرفع نيرون أثناء حياته أيّ بناء حول القبر.

كانت أغربينا تتوقع أن تكون نهاية حياتها نهاية عنيفة؛ وقد سألت ذات يوم بعض السحرة عن مستقبل ابنها نيرون، ففتبأوا لها بأنه سيصبح ملكاً، وأنه سيقتل أمه، فأجابت «فليقتلني عندئذ، المهم هو أن يتولى زمام الحكم».

(1) جاءت أغربينا (الصغرى) إلى الحياة عام 15 ميلادية، وغادرتها مقتولة سنة 59 ميلادية، ولم يتجاوز عمرها 44.

تعاليم أخلاقية⁽¹⁾



عندما تكون مسافراً، وترسو السفينة في مرفأ، وتغادرها إلى اليابسة لتجلب الماء، ربما تمتع نفسك في الطريق بأن تلتقط بعض المحار أو الصدفيات... ولكن أثناء جولتك ينبغي أن تفكر في السفينة، فلعل الريان يعلن الرحيل، عندئذ تترك ما هو غير ضروري، وتركض إلى السفينة.

وكذا الحال في الحياة، فبدلاً من المحار والصدف، قد تكون لك زوجة أو ولد، وهذا شيء محبب، ولكن إذا دعا ربّان سفينة الحياة إلى الرحيل فما عليك إلا أن تلتحق بالمرفأ، ولا تنظر وراءك. وإذا تقدمت بك السن، لا تبتعد كثيراً عن السفينة، فقد لا تلتحق بها في الوقت المناسب.

أمام كل حادثة اسأل نفسك: ما هي القوة التي تحتاج إليها لتخرج سليماً منتصراً؟ فإذا لقيت شيئاً مغرياً، فأنت تحتاج إلى كبح الشهوة؛ وإذا عانيت من الألم، فأنت في حاجة إلى الشجاعة؛ وإذا تعرضت للشتم، فأنت في حاجة إلى الصبر. فإذا عودت نفسك على أساليب المواجهة الملائمة، لا تقلقك مستجدات الحياة.

(1) من أحاديث الفيلسوف الرواقي Epictetus (60 - 138).

عود نفسك على بعض الصفات لتلتزم بها عندما تختلط مع الناس: الزم الصمت في أغلب الحالات، أو تكلم فقط بما يلائم المقام؛ لا تسترسل في الحديث عن الموضوعات العادية مثل الأكل والشراب، والمباراة الرياضية... وتجنب بصفة خاصة الحديث عن الناس، فلا تشكر ولا تنتقد، ولا تقارن بينهم.

تجنب عادة القسم ما استطعت؛ ولا تكثر من الضحك، ولا تضحك بصوت مرتفع؛ وابتعد عن الحفلات والضيافات المبتذلة؛ وإذا حضرتها فلا تسترسل في التفسير والتعليق الممل لكي لا تنزلق دون قصد منك في التفاهات والمشاكل. ومن المؤكد أن المرء وإن كان سلوكه سليماً، وهو منفرد، إذا شوهد برفقة المفسدين يعتبر مفسداً مثلهم.

إذا نقل إليك شخص بأن فلاناً اغتابك بسوء، فلا تعر كلامه أية أهمية، بل قل له: «إن ذلك الشخص يجهل عيوبى الأخرى، ولو عرفها لما اكتفى بذكر ما نقلت إلي»، وإذا حضرت مناسبة اجتماعية، تقبل الأشياء كما هي، وتجنب الملاحظات والتدقيق في توافه الأمور. وامتنع عن التصفيق والتهليل والتهافت والصيح والنقد والاستهزاء والانفعالات العنيفة.

وعندما تجتمع بالآخرين، تجنب المبالغة في الحديث عن مغامراتك وما تعرضت له من أخطار؛ فمهما كان هذا الحديث محبباً إلى نفسك، ليس دوماً من المرغوب فيه لدى المستمعين. وتجنب كذلك السعي لإثارة الضحك لدى الآخرين، لأن هذا قد ينزل حديثك إلى مستوى كلام السوق المبتذل، وربما ينزل من قدرك لدى أهلك ومعارفك.

إذا حضرتك لحظة ألم أو متعة، أو عشت ساعة مجدٍ أو خزي، تذكر دومًا أن هذه هي لحظة الحقيقة، لحظة الصمود في المعركة؛ فاعتبر نفسك مصارعًا في ألعاب الأولمبياد، وخطأ واحد قد يفقدك الشهرة. صحيح أنك لست سقراط، ولكن حاول، على أية حال، أن تعيش لحظة كشخص يسعى ليكون مثله.

إن أول بند في الفلسفة هو التطبيق العملي للمبادئ، على سبيل المثال: «ينبغي ألا نكذب».

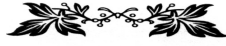
أما البند الثاني فهو البرهان، مثلاً، «لماذا ينبغي ألا تكذب؟».

والبند الثالث الذي يدعم البندين السابقين، ويجعل بينهما علاقة منطقية فهو السؤال: «لماذا هذه البرهنة».

ولنا أن نتساءل: ما هي البرهنة أو التدليل؟ ما هي النتيجة؟ ما هو التناقض؟ وما هي الحقيقة؟ وما هو الخطأ أو الضلال؟

وهكذا نلاحظ أن البند الثالث جاء بالضرورة على حساب البند الثاني؛ ويكون البند الثاني على حساب البند الأول. ولكن أهم البنود الذي ينبغي أن نعتمد عليه هو البند الأول. ولكننا نفعل عكس ذلك تمامًا، لأننا نضيع وقتنا وجهودنا حول البند الثالث، ونهمل البند الأول. ونتيجة هذا، أننا في الوقت الذي «نكذب» فيه، نجد أنفسنا على استعداد لنبرهن على أن الكذب خطأ وضلال.

إلى المؤرخ⁽¹⁾



من الأمور التي ينبغي للمؤرخ المبتدئ أن يتجنبها: ألا يهمل فحص الحقائق، والتأكد من صحة الوقائع؛ وألا يبالغ في مدح القواد والحكام، فيرفع من كان في صفه إلى السماء، ويقلل من شأن من هم في الصف المقابل. وعليه أن يتذكر دومًا أن الفرق بين كتابة التاريخ، وبين المدح والإطراء هوة كبيرة.

وهناك مدرسة تفرق بين التاريخ المفيد، والتاريخ المقبول؛ وتدافع عن فكرة المدح والإطراء في التاريخ بكونها من العمل المقبول. غير أن هذا التقسيم خاطئ. فليس للتاريخ إلا هدف واحد وهو أن يكون حقيقياً ومفيداً. والواقع أن اللجوء إلى المبالغة، لمجرد المبالغة، ليس لها ما يجعلها مقبولة في فن التاريخ؛ فالإفراط في المديح عمل منفر، وإن رحبت به أكثرية من السوقة.

ولهذا ينبغي للمؤرخ (المبتدئ) ألا يتوانى في تقدير الحوادث، وتمحيص خلفياتها، وأن يحرص على جعل أسلوبه واضحاً يسهل استيعابه. كما ينبغي أن يكون من ذوي البصيرة النافذة، وأن يكون له دراية بالخبرة الإدارية والعسكرية، وأن يزور بعض المعسكرات، ويشاهد العساكر يتدربون على السلاح، وأن يكون له إلمام بالآلات الحربية...

(1) إقتباس من رسالة للأديب اليوناني Lucian (125 - 190) ميلادية.

والخلاصة ألا يكون ممن يكتفون بالجلوس في مكاتبهم، ويعتمدون على ما ينقل إليهم من حكايات.

وينبغي للمؤرخ أن يكون مستقلاً في آرائه، لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا ينتظر جزاء من أي كان، ولا يتأثر بما يمليه عليه أصحاب المصالح. وربما كان للمؤرخ مشاعر وأفكار تجاه الحوادث والوقائع التي يتناولها؛ ولكن عليه أن يجعل الحقيقة فوق حبه أو كراهيته، وأن يفكر في مصلحة الرأي العام فقط.

ويجب عليه أن ينسى ميوله، نزعاته، معتقداته، أهواءه وتحزباته، وأن يضع نصب عينيه سؤالاً واحداً: أين هي الحقيقة. ومن المهم ألا يفكر في الجماهير المحيطة به أثناء حياته فحسب، بل عليه أن يأخذ في الحسبان الأجيال القادمة التي قد تخالفه في الرأي، وتكشف عن أخطائه.

يروى عن الإسكندر الكبير أنه قال لأحد رفقائه: ليتني أعود يوماً واحداً إلى الحياة لأسمع ما تقول الأجيال القادمة حول ما يكتب المؤرخون. أما اليوم فللناس مصالح تدفعهم إلى الترحيب بما تقولون، وإلى الثناء على ما تكتبون.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من الناس يصدقون ما كتبه هوميروس عن أخيل⁽¹⁾، على الرغم مما فيه من مبالغات، والسبب في

(1) Achilles في الأساطير الإغريقية كان من أشجع الأبطال في جيش أغممنون، في حرب طروادة.

ذلك أن أخيل لم يكن على قيد الحياة عندما كتب هوميروس عن حرب طروادة، فلم يتهم بالسعي وراء مصلحته.

وهكذا يتجلى نموذج المؤرخ الحقيقي: الشجاعة الفكرية، الاستقامة في الأخلاق، الاستقلال في الرأي، الصراحة والسعي المجد وراء الحقائق، لا يستثنى فلاناً أو يشفق على إعلان لانسجام الميول والمبادئ، بل ينهض بدور القاضي العادل، والحكم المحايد، هدفه الوحيد أن يسجل الحوادث وينقل الآراء، بعد أن يتأكد من مطابقتها للواقع. ويروى عن هيرودوت قوله: إن عملنا سيكون ملكية أبدية للأجيال القادمة؛ وليس مجرد محاولة لاكتساب الشهرة في الحاضر؛ فلا ينبغي أن نقض على الموضوعات المثيرة، بل نتأكد من أننا نورث الحقيقة كاملة للأجيال القادمة».

ولنتذكر قصة ذلك المهندس المعماري العظيم الذي شيّد منارة الاسكندرية⁽¹⁾، إحدى عجائب العالم القديم؛ وعندما انتهى من بنائها، نقش اسمه على الجدار، ثم غطى الجدار بالجص وكتب عليه اسم الملك الجالس على عرش مصر. لقد علم ذلك المهندس أن الزمن سيزيل طبقة الجص، ويزول معها اسم الملك، ويظهر من تحتها اسمه المنقوش على الصخر. إنه لم يفكر في فترة حياته القصيرة، بل استهدف المستقبل البعيد، ما دامت المنارة ثابتة صامدة.

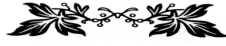
(1) شيّد منارة الاسكندرية المهندس Sostratus بأمر من الملك بطليموس الثاني، نحو سنة 280 ق.م. على جزيرة فاروس، في ميناء الإسكندرية.

القسم الثاني



ملخصات من الأدب الفرنسي

مباهج الزواج الخمسة عشر⁽¹⁾



بهجة الزواج الثانية هي عندما ترتدي المرأة ملابس فاخرة، وتشعر أنها جميلة، بل رائعة الجمال، وتذهب إلى الحفلات ... وقد لا يروق للزوج أحياناً حضورها هذه الحفلات، فترتب مشروعاتها مع قريبة أو صديقة لها، أو ابن خال أو ابن عم.. وتؤكد أم الزوجة للزوج المتردد المسكين، بأن الفتى هو حقاً ابن عم أو عمّة، من قريب أو بعيد، لكي يطمئن قلبه.

وتقول ابنة العم أو الصديقة .. للزوج: أؤكد لك أن زوجتك غير راغبة في الذهاب إلى الحفلة، إلا برضاك طبعاً، ولكننا نريدها معنا. وأؤكد لك أنها كلما خرجت معي، تفكر في العودة إلى المنزل بأسرع وقت.

يشعر الزوج المسكين ببعض الثقة وحسن النيات، ويسأل: من سيرافق زوجته؟ فتجيب ابنة العم أو الصديقة بسيل من الأسماء، ابنة عمتي ابنة جارتنا، وحماتك، وابن عمها الذي هو ابن عمك، ونساء أخريات من أهل الثقة والشهرة.

وأخيراً يوافق الزوج على أن تذهب زوجته مع المجموعة (هذه

(1) Les quinze Joies du mariage المؤلف مجهول (كتب بين 1380 و 1410).

المرّة!)؛ وتتظاهر الزوجة بأنها غير راغبة في الذهاب إلى الحفلة، فتقسم ابنة العم (أو الصديقة) ملحة على ضرورة ذهابها، مؤكدة موافقة الزوج. وفي طريقهن إلى الحفلة يتندرن عن «الزوج المحترم» ويجمعن على أنه يحب زوجته ويغار عليها.

في الحفلة يوجد مجموعة من غواة الشباب المفتتين، ومنهم من رتب مشروعاته أثناء الحفلة السابقة، ويتوقع أن يقطف بعض ثمارها في هذه الحفلة. وها هي الزوجة (موضوع الحديث) تلقى أجلاً الترحيب، وتحظى بالطف المعاملة والخدمات، وتتعم بأعظم المجاملات من الشباب، وتشنف أذناها بأحلى عبارات الغزل.

تتعش نفسها، وتبتهج ملامحها بهذه الرعاية والتكريم، وتتناول أحلى المشروبات، وترقص أجمل الرقصات، وتتماوج أطرافها مع ألطف الأغاني. ويطوف حولها الشباب، كل يظهر إعجابه، ويعبر عن ابتهاجه بلقائها وحرصه على مقابلتها في الحفلة القادمة. ومنهم من يضغط على يدها أو ساعدها، أو يمس برجله ساقها؛ ومنهم من يوجه نحوها من بعيد نظرات العاشق الولهان، ومن يظهر لها ما في جيبه من أشياء ثمينة. والجميع يحاول أن يبلغها رسالة شوق تتأجج في صدره.

وإذا حدث أن انحرفت الزوجة عن سبيل السلوك الرشيد، يجد الزوج المسكين نفسه موضوع استهزاء وسخرية، فتتهامس النساء، ويتغامز الشباب في الشوارع ويتناجون بما يشوه سمعة الزوج والزوجة معاً. وتداخل الشكوك قلب الزوج، فتشتعل في صدره نار الغيرة، وقد تسوء العلاقات، ويحدث ما لا تحمد عقباه.

الחסرات⁽¹⁾



- لا أرغب في أن أكتشف أسرار الطبيعة،

ولا أريد أن أبحث عن روح العوالم،

ولا أريد أن أزخرف لوحاتي بالألوان الزاهية،

.....

وإذا حدث ما يزعجني، أبت همومي لقصائدي،

أبثها أسراري، أبكي معها، وأبتهج معها...

(ثم يتحدث الشاعر عن السفر، ويقارن بين التجول في

العالم، وبين الحياة الهادئة المتواضعة في قريته) فيقول:

- إنه لسعيد من يقوم برحلات مثل أوليس،⁽²⁾

ثم يعود إلى قريته مغموراً بالتجارب، ليعيش بين أهله.

أه، متى أعود إلى قريتي، فأشاهد الدخان يصعد

(1) العنوان: Les Regrets

المؤلف: Joachim du Bellay (1522 - 1560)

(2) بطل ملحمة هوميروس «الأوديسة»، وملك «إيتاكا».

من مداخنها، وأتجول في حديقة منزلي المتواضع.
إنه لأحب إلى نفسي من قصور روما.

(ثم يصف الشاعر امرأة (مومساً) وقد طغت السنين

على جسدها، فيقول :)

- أيها الشعر الفضي الجميل، والجبهة الصافية المجمعة،

أيها الوجه المزخرف بالألوان الزاهية،

والعينان اللامعتان، والضم الواسع المكرم،

والأسنان الجميلة التي كانت تهوي إليها القلوب

لمجرد ابتسامة عابرة،

أيها العنق المرصع، وقد كَسَّتهُ التجاعيد،

والصدر المرقَّه الذي اهتزت للمسه النفوس،

أيتها الأطراف المنعمة المزخرفة، والساق

البيضاء الممتلئة،

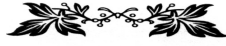
أيها الجسد الشفاف، والأعضاء الزجاجية،

أيها الجمال الرباني، أناشذك الله أن تسامحني،

إذا كنت أصدّ عن حبك، فأنا كذلك مخلوق

مصيره الفناء.

حول الخيال والمخيّلة⁽¹⁾



«أشعر أنني من أشد الناس حساسية وتأثراً بقوة الخيال، إنه يترك انطباعاً عميقاً في نفسي. إن مجرد مشاهدة شخص آخر يشقى ويتألم يشقيني ويؤلمني. أشعر كأن مشاعر الآخرين تغمرني، إن سعالاً شديداً في صدر شخص يחדش حلقي وينفخ رئتي؛ ولا أزور المرضى إلا مرغماً، لأنني أشعر حقاً أنني مريض إلى جانبهم...» .

وبما أنه لا يسع هذا الموجز أن يستوعب جميع ما ورد في مقال المؤلف، فإنني أكتفي بسرد بعض الأمثلة التي أوردها الكاتب ليدل على قوة الخيال وتأثيراته على حياة الناس وسلوكهم. ومن هذه الأمثلة أن

(1) العنوان: De la force de l'imagination

المؤلف: Maigne (1533 - 1592) من كتابه الشهير «مقالات» Essais.

يعالج الكاتب في هذا المقال ما يتعرض له المرء في حياته من إحياءات سلبية أو إيجابية، وما تحدثه في سلوكه من تأثيرات صحية أو مرضية، سواء كانت تلك الإحياءات تتبع من داخل تصوراته وتخيلاته وأفكاره، أو نتيجة ما يتعرض له من نصائح الناس وأقوالهم وانتقادات أو تشجيعات، أو ما يسمع من أخبار وحكايات مشجعة أو مثبطة.

والإنسان عندما يتخيل صوراً وحوادث سارة وإيجابية، يصبح متفائلاً ويزداد نشاطه وإقباله على الحياة؛ وعندما يتخيل أو يسمع (أو يشاهد) حوادث حزينة مفاجئة، وعندما يعرض أمام مخيلته صوراً مزعجة وسلبية ينتابه القلق وتقبض نفسه ويشعر بالخوف والارتباك، ويشعر بالإحباط والتشاؤم، فيعرقل ذلك نشاطه ويشبط همته وحماسه، فتفشل محاولاته ويعجز عن إنجاز مهامه حتى ولو كانت في نطاق السهل المعتاد.

عالمًا ركز تفكيره مدة حول الأسباب والانفعالات التي تؤدي إلى الجنون، فانتهى به الحال إلى أن أصبح نفسه مجنوناً. وحكاية رجل آخر حكم عليه بالإعدام، فظل في سجنه يتخيل صورة إعدامه وهو معلق في المشنقة. وذات يوم جاء ضابط ليخبره بصدور العفو عنه، فوجده ميتاً في سجنه.

ومن آثار التخيلات على سلوك الإنسان وفعاليتها ما يحكى عن آثار السحر والسحرة. ومن ذلك ما يدبر للرجل ليلة زواجه ليثبط همته ويضعف قدرته على مواجهة زوجته. ويروى، في هذا المجال، أن ملك مصر Amasis تزوج فتاة يونانية رائعة الجمال، ولكنه ارتبك واحتار في أمره عندما عجز ليلة الزواج عن ملاحظتها؛ فظن بها الظنون، وغضب غضباً شديداً، وفكر في قتلها ظناً منه أنها سحرتة. وكانت الفتاة ذكية فأدركت أن عجز الملك إنما نشأ عن تخيلات وحكايات أثارت في نفسه قلقاً أخلاقياً، فأسرعت بإعداد حفلة دينية مهيبة قدمت فيها القرابين للآلهة، وشعر الملك بعودة ثقته ونشاطه، فعاد إلى زوجه الجديدة.

وتلعب الزوجة دوراً هاماً في نجاح الرجل أو إخفاقه عند معاشرتها في الفراش، خاصة ليلة الزواج. فالمرأة التي تظهر مزيداً من القلق والخوف والخجل، أو تواجه زوجها بوجه عبوس ينم عن الازدراء، أو تظهر التبرم والكراهية في معاشرته الزوج... كل ذلك يطفئ شهوة الزوج ويضعف من شوقه لملاحظتها. ويروى عن سيدة شهيرة أنها قالت: ينبغي للمرأة، قبل أن تضطجع في الفراش مع زوجها، أن تترك حياءها إلى جانب ملابسها، وتلبسه عندما ترتديها.

ومن المحتمل أن أنواع السحر والتجليات والرؤيا، وجميع التأثيرات الخارجية التي تتجاوز نطاق المعتاد، تتبع من قوة التخيلات الفكرية، وهي تترك انطباعات قوية على النفوس البسيطة والعقول الساذجة الضعيفة. ويروى أن الندوب (الجروح) التي ظهرت على جسد الملك داغوبير وجسد القديس فرانسيس نتجت عن قوة التخيلات...، وأن راهباً كان يدخل في حالة من النشوة العميقة لدرجة أنه يظل فترة لا يتنفس ولا يحس بالألم. ويروي القديس أغسطين عن شخص كان عندما يسمع البكاء والصراخ المؤلم، يقع على الأرض مغمى عليه، لا يشعر بشيء من حوله، ولا يشعر بالألم.

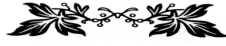
إن الإنسان وحدة متكاملة، تآلف فيها قوى الجسد والفكر والروح والمشاعر.. ويمكن إدراك التأثيرات المذكورة على أساس الصلة الوثيقة بين العناصر المذكورة. ولعل الأمر يختلف عندما تؤثر المخيلة على أشخاص آخرين، فيتبادلون المشاعر والملذات والآلام. فكما أن الشخص المريض يعدي من كان قريباً منه (إن كان المرض معدياً)، فإننا عندما ننظر إلى أشخاص عيونهم ملتهبة، نشعر بالألم، وعندما نجلس إلى جانب شخص نفسه مضطربة هائجة، فإن حالة ألمه وشقائه قد تهزنا وتنتقل إلينا.

لست ممن يؤمنون بالسحر والشعوذة، ولكن أورد ما يروى عن تأثير التخيلات والتصورات، ومن ذلك أن امرأة ولدت فتاة مكسوة بالشعر لأنها، طيلة فترة الحمل، كانت تحرق، من حين لآخر، في صورة لقديس جسده مكسو بالشعر؛ ومنها أن قطة ظلت تحرق في طائر على

غصن قريب، وهو ينظر إليها، حتى سقط يرتعش أمامها؛ والمرأة الحامل التي توحى إليها النساء بالحاح بأن مولودها سيولد وعلى جسده «علامة» على كتفه أو ساعده... فتتوقع هي الأخرى ويصدق توقعها... وغير ذلك من الحكايات.

وعلى أية حال، أضيف هنا بأنني أسجل ما يروى ويبلغ سمعي، ولكن صحة ذلك أو خطؤه، يعود إلى ضمائر الرواة. وكل كاتب حرّ في أن يختار الأمثلة والروايات التي تناسب الموضوع.

حول التجارب⁽¹⁾



المعرفة :

يميل الإنسان بطبيعته إلى اكتساب المعارف، ويتخذ جميع الوسائل التي توصله إليها؛ وعندما لا يفيد العقل وحده في مسعاه، يلجأ إلى التجارب العملية. وبما أن مجالات الحقيقة واسعة، فلا ينبغي للمرء أن يتجنب أيّ سبيل للبحث عنها.

ويحاول المرء أن يصل إلى المعرفة من ملاحظة تشابه الحوادث والظروف، غير أن الحوادث ليست دوماً متشابهة، وتشابهها لا يعني أنها واحدة في جميع الظروف.

القوانين :

إن لغتنا اليومية سهلة وواضحة، غير أنها تصبح غامضة ومعقدة عندما يتناولها أهل القوانين والعقود والوصايا. والسبب هو أن أهل الفنون القانونية يهتمون بصفة خاصة بصياغة العبارات المهيبة، وإبداع

(1) العنوان: De l'Experience XIII

المؤلف: Montaigne من كتابه "Essais" (مقتطفات). (ولد سنة 1533 - توفي عام - 1592).

الجمال الفنية الغامضة، ويتفنون في تركيب مقاطع الكلمات فيعقدون التركيب والصور حتى تصعب على الفهم. وكما قيل إذا حولت الأشياء الدقيقة إلى جزئيات أصغر، تصبح غباراً وتدخل المرء في دائرة الفوضى.

وكلما جزأنا الجزئيات، تنوعت عناصرها، وكلما نشرنا تفاصيلها توسع نطاق الشكوك والحيرة بين الناس؛ لذلك كان من الأفضل أن نحدّ من تشتت الأفكار والآراء، وبعثرة المسائل وتنوعها، حتى لا تتعقد المذاهب والمشاكل، وتتكدس في رؤوس الأجيال القادمة. لقد لاحظت أننا نبدأ الحديث، أو الكتابة عن موضوع، ثم يتفرع الحديث ويتدفق من كل جانب، فندخل في التقسيم، والتعليق، والشرح، وشرح الشرح، فنصنع من الموضوع ألفاً، وقد يتحول إلى ذرات متناثرة في كل اتجاه، ويصبح أشبه بنهر متدفق في منحدرات، كل موجة تفر أمام لاحقتها، وهذه تدفعها دون توقف، ويدخل الماء في الماء... فهل هو النهر نفسه الذي يجري؟

لاحظت أن رجل اللاهوت الألماني الشهير مارتين لوتر، أثار انقسامات وخلافات حول آرائه، نتج عنها تساؤلات حول القضايا العقائدية واللاهوتية، أدت إلى مزيد من الخلافات حول تعاليم الكتب المقدسة. وقد سأل سقراط منون⁽¹⁾: «ما هي الفضيلة؟»، فأجابته: «هناك فضيلة الرجل، وفضيلة المرأة، وفضيلة القاضي، وفضيلة

(1) انظر Meno، أحد حوارات أفلاطون.

ملخصات من الأدب الفرنسي

المواطن العادي، وفضيلة المسنّ، وفضيلة الطفل». فقال سقراط: «كنا نبحث عن فضيلة، فأتينا بست منها».

والواقع أنه لا يوجد مخلوق، ولا حادث يشبه الآخر. ولكن الاختلاف بين المخلوقات ليس مطلقاً. فلولا الشبه بيننا لما ميزنا الإنسان عن الحيوان؛ ولولا وجود بعض الاختلاف في الخلق، لما ميزنا الرجل من أخيه. وعلى هذا فإن العلاقات التي تستنتج من الحوادث والتجارب تتضمن شيئاً من النقص والخطأ. ولهذا ينبغي للقوانين أن تتكيف لتتوافق مع الظروف الجديدة.

وتتمتع القوانين بمصداقيتها ليس لأنها عادلة، بل لمجرد أنها قوانين، سواء وضعها المجانين، أو وضعها رجال امتلأت نفوسهم حقداً على «المساواة»: أو سنّها رجال أخفقوا في إدراك معنى العدالة. لذلك نلاحظ أنه لا يوجد عمل حافل بالأخطاء مثلما هي الحال في القوانين.

لقد عشت سنوات طويلة أرجو أن تمكّني من تسجيل بعض النصائح حول الحياة، ومنها:

إنني أتحكم في عاداتي، وأغيرها حسبما تقتضيه الظروف. وأسلوب حياتي، في حالتي الصحة والمرض، لا يتغير كثيراً: لا تغيير في ظروف النوم، والأكل، والشراب، مع مراعاة الاعتدال، وما تقتضيه الشهية. ومن دواعي الوقاية أن أحافظ على العادات التي لم تسبب لي قلقاً وانزعاجاً، ولا تعكر صفو حياتي.

ألتزم بالمرونة البدنية والنفسية، ميولي عادية وممتعة، ولكن بوسعي أن أتخلى عنها دون مشقة، وقد ألجأ إلى ميول أخرى معاكسة للأولى. ذلك أن تغيير الميول والعادات ينعش قوة المرء، ويزيل عن نفسه الصداً، ويحافظ على مرونتها. إن الحرص على التمسك بالنظام القاسي والقواعد الشديدة، في حياة المرء، أسلوب ضعيف، بل وأحمق. وأسوأ صفة في الرجل القوي هي أن يتحجر ذوقه، ويتعلق بعادة لدرجة الإدمان. ومن الممتع أن يعوّد الفتى نفسه على تحمل المفاجآت، ومواجهة تقلبات الحياة.

في حالتِي الصّحة والمرض أسمح لنفسي بإرضاء ما تشتهييه، وأتبع ما تميل إليه رغباتي، مع مراعاة الاعتدال. ذلك لأنني لا أرغب في معالجة الشر بالشر، وأكره أنواع العلاج التي تُوجع أكثر من ألم الداء نفسه. فإذا كنت أعاني من حصاة في الكلى، ويمنعني الطبيب من أكل المحار، أجد أن الداء يوجعني، وأن الامتناع عن إشباع رغبة بريئة يؤلم من جهة أخرى. وإذا كان المرء معرضاً للخطأ، فليتحمل الاحتمال الذي يعرضه لهذا الخطأ، بعد أن يرضي نفسه ويمتعها. ولماذا يتمسك القوم بالقول بأنه لا شيء ينفع ما لم يكن فيه ألم.

لاحظتُ أن الكلام يزعجني، كأنني أبذل جهداً كبيراً عندما أتحدث، خاصة عندما أعاني من مرض أو أية اضطرابات جسدية. إن لنغمة الكلام وموجات الصوت ونبراته تعبيراً خاصاً يصاحب المعنى والمقام، لذلك ينبغي أن أتحكم فيها ليكون حديثي واضحاً. فهناك

ملخصات من الأدب الفرنسي

طريقة في الكلام في مجال التعليم، وأخرى عند المدح، وثالثة للتحذير أو التوبيخ...، فالحديث نصفه لمن يتكلم ونصفه لمن يستمع.

إن حياتنا جزء من حوادث العالم من حولنا، تتألف من نعمات متنوعة، متناغمة حيناً ومتناقضة تارة، حادة وسلسة، قوية ورخوة، عذبة وفضة خشنة، والموسيقار الذي يركز على نوع واحد من النغمات لا ينجز شيئاً كثيراً. إن وجودنا لا يكتمل بدون وجود هذا الخليط من الحوادث والأنغام، لأنها مثل الألوان يتمم بعضها البعض الآخر.

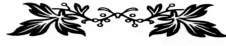
إن الإفراط في الملذات شر كبير، والاعتدال أفضل علاج يلف من غلوائه. وأسأل نفسي أن تنظر إلى اللذة والألم نظرة واحدة متساوية، نظرة ملؤها الرضى والبهجة، وفيها الشدة والتجلد. وإذا كانت تنتعش وتهتز فرحاً مع المتعة، وتكتمش وتكتئب عند الألم، فهي ضعيفة في كلتا الحالتين. فالحكم بعدل وصدق على ما هو خير ينتج عنه الحكم حكماً سليماً على ما هو شر. إن اللذة والألم نبعان، إذا ارتوى منهما بلد أو شخص أو حيوان بقدر حاجته يكون سعيداً.

وفيما يتعلق بالأفكار الفلسفية الحياتية، أتبنى منها ما كان وثيقاً راسخاً وأكثر إنسانية. وأفكاري متناغمة مع عاداتي، أي إنها بسيطة واضحة ومتواضعة. الفلسفة في نظري تكون مثل الطفل وسط لعبه، عندما تنصحنا ألا نجمع بين الأشياء المقدسة والأغراض الدنيوية، وتعلمنا بأن اللذة شيء قبيح ينبغي أن يتجنبه الرجل العاقل، وأن المتعة

الوحيدة السليمة هي ما يجلب رضى الضمير، أي عندما تتجز عملاً يتوافق مع النظام الاجتماعى والطبيعى. وليس هذا هو رأى الفيلسوف سقراط (وكثير غيره) على كل حال، لأنه يقدر المتعة الجسدية، وإن كان يفضل المتع الروحية والفكرية لأن فيها تنوعاً وسهولة، وأكثر استمرارية.

إن الطبيعة مرشد لطيف، عادل وحذر. فليستيقظ الفكر ليخفف من أعباء الجسد، ولينهض البدن ليثبت خفة الروح ويخفف من تقلباتها. إن كل من يحكم للروح بأنها الخير الأسمى، ويحكم على الجسد بأنه شر كله، فهو يشعر نحو الروح بحب دنيوي، ويفر من الجسد بطريقة شهوانية، لأنه تحت تأثير الغرور البشرى، وليس خاضعاً للحقيقة السماوية العادلة.

حديث الحب والحياة⁽¹⁾



الحب يعكس صورة حياتنا: فكلاهما يتأثر بما يحدث لنا من تغيرات وتقلبات. إن شباب الحب وشباب الحياة مفعم بالأمل والبهجة: يشعر المرء بالانتعاش والسعادة والحيوية لأنه في ريعان الشباب، ولأنه يحب. وهذه الحالة النفسية اللذيذة تدفعنا إلى تحقيق رغباتٍ ممتعةٍ أخرى.

ويواصل المرء سعيه نحو التطور والترقي، مستغلاً جميع الوسائل التي توصله إلى أهدافه. ويلجأ إلى أهل الجاه والسلطان، وأحياناً يقدم لهم ما بوسعه من خدمات طلباً للحماية والرعاية. ولا تهدأ مشاعره، وتطيب نفسه، ويشعر بالرضى إلا بعد أن يحقق مطالبه الأساسية، العاطفية منها والمادية، فيشعر بشيء من السعادة.

ولكن قليلاً ما تدوم هذه السعادة، فبمرور الزمن تصبح أمراً عادياً وحدثاً قديماً، فتفقد لذتها. ويطمح المرء إلى رغبات جديدة، بعد أن تفقد الأشياء المكتسبة إغراءها، وتصبح غير ملائمة لأذواقنا، أو لا تحدث في نفوسنا تلك المباهج والملذات التي كانت تثيرها في الماضي.

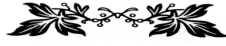
وهذه التغيرات والتقلبات من فعل الزمن الذي يمحو في كل عام مظهراً من مظاهر شبابنا، ويقلل من قدرتنا على التمتع بمباهج

(1) العنوان: "De l'Amour et de la vie" من كتاب (Maximes) المؤلف: La Rochefoucauld (1613 - 1680)

الحياة. ويحدث أن يصبح الحب مرتبطاً بممارسات جدية، ويسلك منحرجات ملتوية في عهدي الكهولة والشيخوخة... ويصبح المرء يعيش كذلك لمواجهة المتاعب والآلام، وليس للبحث عن متع الحياة فحسب.

إن الحذر والغيرة والقلق والملل والشعور بالعزلة من المشاكل التي ترتبط بشيخوخة الحب، مثلما تكون الأمراض مرتبطة بطول الحياة وتقدم السن. عندئذ يشعر المرء أنه حيّ فقط عندما يشعر بالمرض، ويشعر أنه يحبّ عندما يذوق من آلام الحب. ولا يفيق من غفوة العلاقات الودية التي عاشها طويلاً، إلا وهو يكابد الهموم والغمّ والحزن. وأخيراً، نجد، من بين جميع أصناف الضعف والعجز والألم... أن ما يحدثه منها الحب هو أشدها قساوة على الإنسان.

حديث النفس⁽¹⁾



النفس اللطيفة المرحة الراضية البارعة

أنا نفس أفكر في الحياة بطريقة بسيطة ونبيلة. أنجز أعمالتي وأنتج ما أنتج بطريقة طبيعية، وأزّين منتجاتي بما يناسبها من زخارف. وإنني أنسجم بسهولة مع أذواق الآخرين، وأطرد من أفكاري ما هو غير لائق. أعتبرني نفساً لبقّة بارعة مرنة، أتجنب المشاكل، أحافظ على مصالحي وكذلك مصالح الناس.

النفس الصالحة النشيطة الطيبة

أحاول دوماً أن أدرك الأشياء على حقيقتها، وأعطي لكل موقف ما يستحقه من أهمية. أسعى أحياناً إلى تحويل مجرى الأمور إلى الاتجاهات التي تناسبها. أنا راضية بحياتي، وأتمسك بقوة بوجهات نظري، لأنني أدرك ما فيها من قوة وخير ومعقولية.

النفس النفعية الماهرة في الأعمال والمصالح

ألاحظ أن من الناس من هو ماهر في الأعمال، ولكنه لا يركز

(1) هذا ملخص (ببعض التصرف) لمقال عنوانه: De la différence des esprits من كتاب عنوانه Maximes ألفه La Rochefoucauld (1613 - 1680). وبما أن لكلمة Esprit معان عديدة، فإني استعملها هنا بمعنى: «النفس، الروح، المزاج، السلوك».

دومًا على مصالحه. وهناك أشخاص يركزون كل اهتمامهم على ما يخصهم وأُسْرَهُمْ فقط. وهناك فئة خيرة مؤمنة تستغل كفاءاتها ومهاراتها لإنتاج ما يزيد ثروتها وشهرة، ويصلح ظروف العباد والبلاد. ولهذا فأنا أسعى إلى دعم هذه الفئة الطيبة الصالحة، ورحم الله من استفاد وأفاد، واستتفع ونفع.

النفس الجدية الرزينة

أنا نفس جدية حقًا، ولكن أميل أحيانًا إلى بعض الظرف والفكاهة. وقد لاحظت أن سلوكي يلائم كثيرًا من الناس في جميع المهن والأعمار. ولو أنني لاحظت أن روح المداعبة والممازحة تغلب على خلق الشباب.

النفس الهازلة المازحة

أعترف بأني رقيقة المرح والهزل والفكاهة والمزاح، ورقيقة كثير من ذوي النفوس الطيبة المرحمة، وخاصة منهم الشباب. ولعل بعض هؤلاء، بما أوتوا من نشاط وحيوية وقلة تجاربهم، يببالغون أحيانًا في هزلهم، فينتقلون من المزاح النظيف إلى السخرية أو الاستخفاف، وهذا ما يجعل مرافقتهم غير مريحة. ولا شك في أن الاستهزاء بالآخرين، ولو بحجة المزاح، صفة مزعجة وخلق منبوذ.

النفس المرهفة النبيهة المرضية

إنني أحاول دومًا أن أعالج الأمور بلطافة، وأراعي حساسية

ملخصات من الأدب الفرنسي

الناس ومشاعرهم. يقول معارفي إنني أعالجها بفكر ثاقب ونفس ذكية. أشعر أن الناس يحبونني، وأنا سعيدة بوجودي بينهم.

النفس الذكية الداهية

يقولون أنني أنانية، وأنني أسلك سبلاً غير محببة لقضاء مآربي. لست أدري؟ مع أن كل أملي أن أبلغ أهدافاً رسمتها لنفسي! والواقع أنني أصبحت أخشى أن يتحول استياء الناس من سلوكي إلى عراقيل تقف في سبيل تحقيق مآربي.

النفس الحماسية المندفعة

أعترف بأنني أملك حيوية متقدة وقوة تساعدني على أن أقطع أشواطاً بعيدة، بكثير أو قليل من النجاح. أسبق رفقائي وأقراني أحياناً، وتارة يسبقونني. يتهمونني أحياناً بأنني متهورة ينقصني سداد الرأي! فما قولكم؟

النفس المنظمة

أنا أهتم بالنظام في صغار الأمور وتفاصيلها، هذا من غير أن أهمل القضايا الهامة، بل أرتب لكل عمل، صغير أو كبير، زمانه ومكانه. وقد لاحظت أن هذا الترتيب يبعد عني كثيراً من الارتباك والخلط والنسيان، ويرفع فعاليتي فوق مستوى الآخرين.

النفس الساذجة، ضيقة الأفق

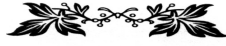
ما رأيكم في صفاتي؟ هل تعذرونني؟ أم تلومونني على صفات ورثتها؟ وهل منكم من يخلق غباوته ويصنع بلادته بيده؟!

النفس الجامعة

يقول الناس عني إنني من أهل الخير والصلاح، أسمى وراء الحكمة والمعرفة؛ أفضل الحياة البسيطة المتواضعة؛ وأحاول أن تكون حياتي معتدلة؛ وتصرفاتي خالية من الانحرافات؛ لا أهمل القضايا الصغيرة، ولا تفجعني القضايا الضخمة؛ لا أتخوف من الفشل ولا أبتهج كثيراً بالنجاح. أقدر أهل الروح الإنسانية والأفكار الواسعة النبيلة؛ أسمى إلى مواساة البؤساء والأيتام وذوي الاحتياجات الخاصة؛ وأحمد الله الذي وهبني بصيرة نافذة أميز بها الطيب من الخبيث، وأحذر الانفعالات الجامحة فألجمها بلجام العقل؛ وأخذ نصيبي من متاع الدنيا من غير إفراط؛ وكذلك من صفاتي الجد والإخلاص في العمل، دون طموح مفرط؛ أصاحب أهل العلم، وأواصل طلب المزيد منه.

ويبدو لي أن الناس يبالغون عندما يدعونني بالنفس الزكية الواعية الطيبة، وهم يرون أنني أتصف بما نُسبَ للنفوس السابقة من صفات حميدة، ولكنني أحذر نفسي من الغرور، فما يخلو أحد من بعض الهفوات والزلات، خاصة عندما تلح عليه الغرائز العاتية والمشاعر الجامحة، ويحدوني الأمل في أن الحسنات تذهب السيئات، والله يغفر لمن يتوب توبة نصوحاً.

حول الطبيعة والحظ⁽¹⁾



يبدو لي أن الحظ كثيراً ما يخفف من تقلباته لكي يتوافق مع طبيعة الإنسان واستعداداته، فيؤدي توافق هذين العاملين (الحظ والطبيعة) إلى خلق رجال استثنائيين ومتميزين. وفي مثل هذه الظروف توفر الطبيعة المواهب الشخصية، ويوفر الحظ للإنسان الموهوب الظروف والوسائل التي تساعد على إخراج المواهب إلى حيّز العمل والإنجاز، وبذلك يحقق الشخص المتميز طموحاته وأهدافه في الحياة.

وقد برز هذا التوافق بين الطبيعة (الاستعدادات والمواهب)، وبين الحظ (الظروف المساعدة)، في شخص الإسكندر المقدوني الكبير. فقد جمع بين الشباب والقوة والطبع المرح وسعة الفكر والثقافة ووسامة الملامح والمواهب العسكرية... فكانت مليئة بالإنجازات رغم قصرها. ألا نجد في ما ذكر عن تعاون الطبيعة والحظ في حياة هذا الشخص، وفي الزمان والمكان المناسبين، لتوفير الظروف الملائمة لإيجاد شاب يصبح فاتحاً عظيماً وشخصية تاريخية مشهورة؟

وإذا نظرنا إلى مدى توافق الطبيعة مع الحظ في حياة يوليوس قيصر، نجد أنهما خلقا في شخصه مميزات هائلة مثل التبصر

(1) العنوان : Les modèles de la nature et la fortune
المؤلف: La Rochefoucauld (1613 - 1680)

بالأمور، وحسن التدبير، والبسالة والحلم والكرم، وفصاحة المنطق، ورشاقة القوام، ومرونة الطبع، وعبقرية الفكر في حالتها الحرب والسلم؛ والظروف المواتية... فكان نتاج هذا التوافق إبراز شخصية يوليوس قيصر الفذة التي أصبحت نموذجاً لأعظم رجل، وأعظم مغتصب في العالم.

فقد توافق عنصر الطبيعة والحظ ليكون ميلاد يوليوس قيصر في جمهورية كانت سيدة العالم آنئذ، وقدر له الحظ أن تصبح شخصيات بارزة في صف أعدائه، ثم ساعده ليتصالح معها ليتخذ منها سلماً للصعود إلى مجده، ثم أعمى الحظ بصائرهم فأعلن الأعداء الحرب عليه، فكان انتصاره عليهم سبباً في بلوغه قمة القوة والمجد والسلطان.

ونلاحظ أن التوافق بين الطبيعة والحظ بلغ درجة عظيمة في حياة الزعيم الروماني كاتو الأصغر⁽¹⁾، ويبدو أن العاملين توافقا من أجل أن يجمعا في شخص هذا الزعيم خصال روما القديمة وفضائلها، وكذلك ليكون سلوكه وخصاله مخالفة لخصال يوليوس قيصر وطموحاته. وكانت حياة الرجلين مثلاً على أن قوة النفس والعزيمة والشجاعة.. قادت يوليوس قيصر إلى قمة المجد ليصبح مغتصباً، وقادت كاتو الأصغر إلى أن يصبح مثلاً للمواطن الصالح الشجاع.

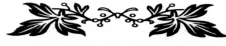
وليس هدفي هنا أن أكتب مقارنة بين هذين الزعيمين العظميين،

(1) Cato, Marcus Porcius (The Younger) (95 - 46 قبل الميلاد)

ملخصات من الأدب الفرنسي

بل فقط لأشير إلى أن عاملي الطبيعة والحظ اتفقا على أن يوجد الرجلان في مكان واحد وزمان واحد، وفي جمهورية واحدة، وكان لكل منهما مواهبه ومبادئه وظروفه، فكان للقيصر طموحات وأهداف واسعة نحو السلطان والنفوذ والملك، وكان كاتو متشدداً ملتزماً بقوانين روما وبالتيقيد والحريات.. وبلغ كل منهما شهرة واسعة بما وفرت له مواهبه وظروفه من فرص وإمكانيات.

حكاية الأسد العاشق⁽¹⁾



.....

- الحب سيد جبار، يجعل من الأسد حيواناً أليفاً؛

سعيد من لا يذوق الحب، ولا يعرف ضرباته

الموجعة إلا عن طريق الحكايات.

- يروى أنه في الزمن القديم، عندما كانت

الحيوانات تتحدث، رغبت في أن تتحالف معنا،

ولمَ لا؟ وقد كان جنسها لا يقل ذكاءً وشجاعة

عن جنسنا.

- وذات يوم، بينما كان أسد من أسرة نبيلة

يتجول في أحد المروج، لقي فتاة جميلة

ترعى قطيعها؛ فأعجب بها، وطلب

(1) للشاعر الشهير لافونتان (1621 - 1695)

أهدى هذه الحكاية إلى فتاة رائعة الجمال هي الأنسة فرانسواز، ابنة السيدة:

Madame de Sèvigné

يدها من أبيها .

- احتار الأب وتردد في الأمر طويلاً،

ولكنه في النهاية لم يستطع أن يرفض

طلب الأسد العاشق

- فقال له: إن ابنتي مخلوقة لطيفة رقيقة المشاعر؛

وأخشى أن تخذشها مخالبك عندما

ترغب في مداعبتها...

- فاسمح لي أن أقلم مخالبك، وللغرض نفسه

يستحسن أن نخفف من حدة أنيابك،

لكي تكون قبلاتك أقل خشونة؛ ولا شك

أن هذا سيطمئن ابنتي

- كان العشق قد تملك قلب الأسد،

فوافق على شروط الأب لكي يفوز بقلب حبيبته.

ولكن الأسد من غير مخالبه وأنياه مثل الحصن

الذي هدمت أسواره وفتحت أبوابه،

وأطلقوا عليه الكلاب فلم يستطع أن يردّ

هجومها ولا أن يتقي شرها ...

- أيها الحب العظيم، إنك عندما تملك

قلوب الناس، تعمي بصائرهم،

فيفقدون سلوك الحذر والتعقل.

التسلية والترويح عن النفس⁽¹⁾



أفكر أحياناً في الأساليب المختلفة التي يلجأ إليها الناس للترويح عن أنفسهم، وأفكر في الشدائد والأخطار التي يعرضون لها أنفسهم.. أجد أن كثيراً من مشاكل الناس وشقائهم ينجم من حقيقة واحدة: هي أنهم لا يستطيعون أن يمكثوا هادئين مسالمين في منازلهم. فالرجل الذي يملك ما يكفيه للعيش الكريم، لو عرف كيف يعيش في راحة وهدوء وهناء في بيته، لما كان عليه أن يغامر ويركب البحار ويحاصر المدن.. إلخ.

وعندما نفكر في المراتب الاجتماعية، نتصور أن منزلة الملك هي أكرم وأعلى منزلة. ونتصور أن الملك يحقق رغباته ويحصل على جميع المتع. ولكن الملك نفسه يحتاج إلى التسلية والترويح عن النفس، وإذا ترك في عزلة، يفكر في وضعه كملك فقط، تستولى عليه الهواجس، ويفكر في الأخطار والثورات والمؤامرات، وقد يصل به الأمر إلى هواجس القلق والمرض. وهكذا نجد أن الملك يصبح أشدّ شقاءً وتعاسة من أقل فرد من رعيته، إذا لم يأخذ نصيباً من اللهو والتسلية ومما يروح به عن نفسه.

هذا هو السبب الذي يجعل الناس يلجأون إلى مختلف أساليب

(1) العنوان : Diversion

المؤلف : Blaise Pascal (1623 - 1662) من كتابه : Pensées.

التسلية، مثل الصيد، والقمار، والرهان، والطرب، والنساء، والهوايات والمهيات، والركض وراء الثروة والمراكز، والحروب. والناس لا يقومون بهذه الأنشطة أو يرغبون فيها، لأنها في حد ذاتها تجلب لهم السعادة المنشودة، كلاً! فهم يدركون أن السعادة الحقيقية لا تكمن في جمع الأموال على طاولات القمار، أو في صيد أرنب أو احتلال مدينة.

إن المرء الذي يشعر بالملل والقلق لا يرغب في الحصول على شيء ما بسهولة وفي هدوء واطمئنان. بل يكون هدفه أن يعيش فترة وسط الهياج والصخب والأنشطة التي تستثير نفسه وتلهيه، ولو مؤقتاً، عن التفكير في همومه وتبعده عنه الملل والقلق. وهذا ما يجعل ذلك الصنف من الناس يفضل عملية الصيد وما يصاحبها من جهد ونشاط، على الإمساك بالطريدة.

الناس يفضلون الصّخب والضجيج والتغيير، لهذا يعتبر ما في السجون من هدوء ورتابة عقاباً مهيناً. فلا متعة في الوحدة، ولا لذة في العزلة. لذا نجد أن رجال البلاط يسعون دائبين لإيجاد ما يسلي الملك، فيهيئون له ما يروح به عن نفسه من وسائل المتعة المتجددة.

عندما نطلب من إنسان أن يريح فكره وأن يعيش في هدوء وعزلة، فإننا نهياً أسباب القلق، لأننا نضعه في ظروف مخالفة لما أرادت له طبيعة الإنسان. والخطأ ليس في البحث عن عوامل الاستثارة، إذا كان الهدف هو الترويح عن النفس، بل الخطأ أن يعتقد المرء أن حصوله على الأشياء التي يسعى وراءها (المركز، المال، الطريدة، المرأة...) هي التي تجلب له السعادة. وعندئذ لا يلبث أن يشعر بخيبة الأمل.

والسبب في هذا واضح. فالناس في بحثهم عن الاستثارة وسعيهم وراء اللهو والمسليات مثل الرهان والقمار والنساء والطرب والهوايات المتنوعة، إنما يرغبون في القيام بأنشطة مثيرة والاستغراق في ملهيات عنيفة ومتع جذابة لكي ينسوا المشاغل المقلقة والأفكار السلبية أو ليغيروا أسلوب حياتهم الرتيب الممل. وكما سبق القول، في مثل هذه الظروف يفضل أحدهم أن تطول عملية الصيد، ولا يرغب في نيل الطريدة بسهولة.

وهكذا قد يقضي المرء حياته ساعياً وراء «الراحة» من خلال مواجهة الصعوبات والركض وراء الأهداف، وعندما يبلغها يجد أنه لا يتحمل تلك «الراحة» طويلاً.

فما أشقى الإنسان! إنه يشعر بالقلق حتى عندما تتوفر لديه جميع وسائل الراحة والهناء والطمأنينة. وما أشد طيشه! إذ أنه حتى عندما تجتمع عليه أسباب القلق، نجد أن أقل نشاط، كلعبة «البليار»، (أو كرة السلة، أو مشاهدة راقصة...) يكفي لتسليته.

ويحق للمرء أن يتساءل: ما هدف الإنسان من كل ذلك؟ ليفتخر أمام أصحابه بأنه أحسن لاعب في الفريق؛ أو أنه استطاع أن يحل مشكلة حسابية عجز عنها الجميع؛ أو أنه احتل مدينة حاصرها قواد قبله وعجزوا عن احتلالها... إلخ.

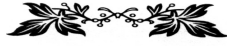
وقد نجد شخصاً يقضي وقتاً طويلاً أمام طاولة القمار متوقعاً أن يربح (أو يخسر) مبلغاً طفيفاً. قدّم له كل يوم ذلك المبلغ في هدوء، شريطة أن ينقطع عن القمار، أو أن لا يشارك في منافسات الرهان،

وستكتشف أنه بأئس حزين. إقترح عليه أن يشارك في هذه الألعاب والمنافسات كمتفرج، بصفة رمزية، وليس بالمال، عندئذ يجد هذه المشاركة مملة، خالية من الحماس والاستثارة.

إذا لا بد من نشاط يستثير المشاعر ويهز الأعصاب، ويحدث قدرًا من الخوف والقلق والحماس والاهتياج والانفعال في الإنسان ككل جسداً وفكراً ونفساً.

وهكذا نلاحظ أنه لا بد للناس، سواء كانوا ملوكاً أو من عامتهم، من نشاطات إيجابية مسلية، تروح عن النفس، وتبعد عنها الملل والهموم، وتجدد النشاط وتتعش الخيال.

حب الذات⁽¹⁾



حبّ الذات؟ وما أدراك ما حب الذات! ولكن ماذا يفعل المرء؟ فهل يستطيع أن يمنع نفسه التي يحبها من أن يكون لها احتياجاتها وأخطاؤها ونقائصها؟ إنه يرغب في أن يكون عظيمًا، ولكنه يجد نفسه صغيرًا؛ يودّ أن يكون سعيدًا، غير أنه يجد نفسه شقيًا؛ يرغب في أن يكون مثاليًا، ويجد نفسه غارقة في لجج الهفوات والنقائص؛ ويسعى لينال حب الناس واحترامهم، فيجد أن أخطاءه لا تجلب له غير الازدراء والكراهية. ويرى في تلك الحقائق التي تؤنبه وتشهر مساوئه عدوًا لدودًا، فيرتبك ويثور.

ويصعب على المرء أن يعترف بأخطائه وسلبياته، فيعيش في جو من الأوهام والاشمئزاز... ولكن ليس معقولاً أن نخادع الناس بسلوكنا، ونتوقع منهم أن يحترمونا. يكتشف الناس مثلاً ما في تصرفاتنا من أنانية فيكرهوننا. فهل ينبغي عندئذ أن نثور عليهم ونبادلهم الشعور نفسه؟ والواقع أنهم يساعدوننا على تحرير أنفسنا من جهلنا بنقائصنا وشرور أنفسنا. وأين من ذلك مشاعر الكرم والإنصاف، والمحبة والحق التي ينبغي أن تنمو في قلب الإنسان؟

عندما يبالغ المرء في حبه لذاته، يكره أن يسمع الحقيقة إذا كانت تتعلق بسلبيات سلوكه. ومن الواضح أن الشخص الذي يهمله حبنا له،

(1) العنوان : "Self - Love"

المؤلف : Blaise Pascal (1623 - 1662) من كتابه : Pensées.

لمصلحة في نفسه، يتجنب أن يقول أو يفعل ما يزعجنا، بل نجده يتصرف بالطريقة التي ترضينا. فهو يعلم أن بعض الحقائق تزعجنا فيخفيها عنا؛ ويعرف أننا نحب الثناء، فيمدحنا؛ وأنتا نحب أن نخدع فيخدعنا.

ويلاحظ أنه بقدر ما تساعد الظروف على رفع مركز الإنسان وسلطانه في الحياة، بقدر ما يُبعده ذلك عن سماع الحقيقة عن تصرفاته. وكيف يجرح الناس مشاعره، وهو يرعاهم ويخدم مصالحهم. والتصريح بالحقيقة قد يكون في مصلحة من يسمعها، وخطراً على من يصرح بها. ويلاحظ أن من يخدمون الأمراء، يراعون مصالحهم الخاصة أكثر مما يحرصون على نقل الحقيقة للأمراء، ونجدهم دوماً على حذر في تصرفاتهم، فلا يقولون ولا يفعلون ما كان في مصلحة الأمير، إذا كان ذلك يزعجه أو يجلب لهم الأذى.

وهكذا نلاحظ في النهاية أن كتمان الحقيقة مرتبط إلى حد كبير بحب الذات. وتنتشر عادة إخفاء الحقيقة بين جميع طبقات المجتمع، ولكن بصورة واضحة لدى الطبقة الأرستقراطية. فحياة الناس إذاً مخادعة وأوهام مستمرة. إنهم يداهنون ويتملقون ويكيل الثناء بعضهم إلى البعض الآخر، ليشبعوا غرورهم أو ليتجنبوا شرورهم. وتستمر المخادعة لخدمة حب الذات...

الإنسان مخلوق يجيد التمثيل، فهو يحمل قناع الزيف والنفاق والكذب ليموه الحقيقة أو يخفيها عن نفسه وعن الآخرين. تجتمع فيه صفات الغرور والأنانية وحب الذات... وهي نزعات غريزية لها جذور عميقة في طبيعته، لا يقدر على مقاومتها إلا من امتلأت نفسه بالإيمان والحق والعدل والمحبة.

أخلاق وعادات هذا العصر⁽¹⁾

« حول النساء والرجال »



حول النساء

- ليس من العسير على رجل فظ وذكي أن يدير حياة امرأة إذا حرص على ذلك. بل بوسعه أن يدير حياة عدد منهن: فهو يثقف عقولهن؛ ويوضح عقيدتهن؛ وينظم ويوجه شؤون قلوبهن؛ فيصبح مطيعات لا يوافقن ولا يرفضن، ولا يشكرن ولا ينتقدن، إلا بعد النظر إلى ملامح وجهه ونظرات عينيه. ومثل هذا الرجل الخبير يصبح مرجع رغباتهن وأحزانهن وأحقادهن ومغامراتهن العاطفية.

يصبح بوسعه أن يصلح ما فسد من علاقاتهن مع أزواجهن أو عشاقهن؛ والوسيط في تجارتهم وأعمالهن؛ ينظم علاقاتهن مع القاضي والمحامي والطبيب؛ ويرافقهن في زيارتهن وأسفارهن؛ ويدير العلاقات مع الأقرباء؛ ويسير شؤون الأطفال والخدم.

إنه يبدأ بنيل تقديرهن واكتساب ثقتهن، وينتهي بأن تصبح النساء طوع أوامرهن، ويخشين الخروج عن طاعته... وفي النهاية عندما يموت تراث النساء منه شيئاً ثميناً: حريتهن.

(1) العنوان : Les Caractères

المؤلف : Jean de la Bruyère (1645 - 1696)

- إذا عجز الرجل عن معرفة أثر السنين وما يحدثه من تغيير في بدنه، يمكنه أن يجد الجواب في نظرات فتاة حسناء يودّ التعرف عليها، وفي نبرات حديثها.. وقد يكتشف ما كان يخشى أن يعرفه.
- لا أدرك حالة الرجل الذي يتبع نزواته ويخضع لمزاجه، ولا يخفي هفواته، فيكون بخيلاً، مهملاً، فظاً، بارد الشعور، قليل الأدب.. وبعد هذا كله يأمل أن يحافظ على قلب فتاة أمام محاولات رجل ظريف لطيف كريم، رقيق المشاعر، يحسن استعمال أساليب الرقة والعناية والملاطفة والمجاملة والأناقة والكياسة والإطراء؛ ويظهر المودة والاحترام والإعجاب، ويقدم الهدايا.. فمن يفوز في هذه المنافسة؟
- ليس من طبيعة الحقد أن نعامل أعداءنا كما لو أنهم سيصبحون أصدقاءنا يوماً ما، ولا من قواعد الصداقة أن نعامل أصدقاءنا كما لو أنهم سيصبحون أعداءنا يوماً ما. فهذا الكلام يدخل في باب السياسة لا في باب الأخلاق.
- تقول حكمة إن من تكره يكلفك أقل مِمَّنْ تحب، أي إن تكاليف الصداقة أكبر من تكاليف العداوة. غير أن الرغبة في الانتقام قد تكلف كثيراً. وإذا كان من الطبيعي أن نفضل ما يضر عدونا، أليس من الطبيعي أن نحسن إلى صديقنا.
- لا يوجد في الدنيا إسراف أجمل من الإسراف في الاعتراف بالجميل.
- من الزوجات من تدفن زوجها حياً، بحيث يصبح دوره الوحيد في الأسرة أن يكون مثلاً للسكوت والخضوع؛ فهو الزوجة وهي الزوج.

فهو الذي يدفع تكاليف النفقات، ولكن الناس يقولون: نحن مدعوون إلى العشاء عند السيدة فلانة. وقد لا يعرف أهل المدينة إلا بعد سنوات أن فلاناً هو زوج السيدة فلانة.

- يلاحظ لدى بعض النساء نوع من العظمة المتكلفة، تظهر في حركة العينين، واهتزاز الرأس، وطريقة المشي، وفي مظاهر أخرى براقية وسطحية. ويوجد في نساء أخريات عظمة طبيعية بسيطة، لا تعتمد على الحركات والمظهر، بل إنها تتبع من القلب، وتدل على أنهن من أصل كريم. إنها مزايا هادئة ودائمة، تصحبها فضائل عديدة لا يُخفيها تواضعهن.

- إذا كانت المرأة تتزين فقط لتبدو جميلة في عينيها، فلها أن تختار ما تشاء من مواد الزينة والزخرفة والأثواب، مما يمليه ذوقها ونزواتها. أما إذا كانت تتزين ليعجب بها الرجال، فإنني قد سمعت ملاحظات كثير منهم مفادها أن اللونين الأبيض والأحمر معاً يجعلان مظهر المرأة منفرًا... وأن اللون الأحمر وحده يجعلها تبدو أكبر سنًا. وسمعت أن الرجال ينفرون من بعض مستحضرات التجميل على بشرة الوجه، ومن المرأة التي لا تتوقف عن مضغ العلكة، ويرون أن كثيراً من مواد الزينة ومستحضرات التجميل تقلل من جمال المرأة الطبيعي.

حول الرجال

- عندما نقول عن رجل إنه غضوب، مشاغب، مكتئب، متقلب في سلوكه، نزق، صعب المراس... ونضيف أن هذا هو طبيعه، لا نعني أننا نعذرُه ونتسامح معه؛ وإن كانت هذه نقائص يصعب علاجها.

ولا يكفي أن يكون الرجل لطيفاً طيب القلب والمزاج، بل ينبغي أن تظهر هذه الصفات عملياً في سلوكه ومعاملاته مع الناس. ولا نطلب من الشخص الماكر المخادع أن يتحلى باللطافة والمرونة، فهو يملك من هاتين الصفتين ما يساعده على نصب شباكه للنفوس الطيبة.

- إن الرجل من ذوي الفكر والسمعة الطيبة، إذا كان مكتئباً، متشددًا، صعب المراس، فإنه ينفر الشباب، ويوحى إليهم بفكرة خاطئة عن رجال الفكر والشهرة؛ ويجعلهم يعتقدون بأن ذلك كان نتيجة التطرف في التقوى والممارسات المملة. أما إذا كان الرجل ذا طبع كريم ومرن... فإنه يصبح مثلاً يحتذى، يتعلمون منه أنه بإمكان المرء أن يعيش في جو من العمل والجدِّ والمتعة والمرح؛ وأنه بوسع الإنسان أن يكون ذا آراء جدية حازمة وسليمة، من غير أن يعتزل حياة المتع الطيبة.

حول أسباب التعلق بالعقائد والديانات⁽¹⁾



الديانات والعقائد المختلفة تقدم حوافز مختلفة من أجل أن يقبل عليها الناس ويتبنوها. وهذه الدوافع والوعود والحوافز ترتبط إلى حد كبير بنوعية تفكير الناس وكيفية تصورهم للعالم والحياة.

والناس مدمنون عادة على الوثنية، غير أنهم لا يميلون بإخلاص إلى عبادة الأوثان. والناس بصورة عامة غير مغرمين بالأفكار والمبادئ النظرية والروحية. ومع ذلك فهم يتعلقون بقوة بالعقائد التي تدعوهم إلى عبادة إله سماوي روحاني. وسبب هذا هو أنهم يشعرون بالراحة والرضى، وبأنهم أذكىاء، عندما يختارون دينا يرفع مقام الإله إلى منزلة أسمى من المنزلة التي وضعته فيها العقائد الأخرى. فنحن ننظر إلى الوثنية على أنها عقيدة السذج الجاهلين، وإلى الديانات التي تدعو إلى عبادة إله روحاني سام على أنها عقيدة الشعوب المستتيرة.

وإذا أضيفت الشعائر العملية والممارسات الحسية إلى العبادات، فإن هذا يدعم بشدة تعلق المؤمن بعقيدته، لأن المرء يميل بطبيعته إلى الممارسات الاحتفالية. وتجدر الإشارة هنا إلى ما ورد عن سكان مدينة إفسوس⁽²⁾ أنهم عندما علموا بأن الآباء المؤتمرين قرروا بأنه يمكن أن

(1) العنوان : "on the Motives of Attachment to different Religions"

المؤلف : Montesquieu (1689 - 1755) من كتابه: "L'Esprit des lois" (روح القوانين).

(2) Ephese مدينة قديمة في آسيا الصغرى، على بحر إيجه، (تقع حالياً في تركيا) انعقد فيها مؤتمر آباء الكنيسة المذكور سنة 431 ميلادية.

تلقب مريم العذراء بـ«أمّ الرب»، عمّمهم الابتهاج، وراحوا يقبلون أيدي الأساقفة وركبهم، وانتشر الفرح ابتهاجاً بالنبأ.

والواقع أنه عندما تقدم لنا عقيدة روحانية فكرة الاختيار الموحى من السماء، وتوضح لنا الفرق بين من يعتنقونها ومن يرفضونها، فإن هذا التوجيه يقوي تعلقنا بالعقيدة. لاحظوا، على سبيل المثال، إلى أية درجة يتمسك المسلمون بعقيدتهم. ويعود هذا، من جهة، إلى وجود قبائل كانت تعبد الأوثان، مما يجعل المسلمين يفتخرون بأنهم يقدسون فكرة الإله الأوحى؛ ومن جهة أخرى إلى العقيدة المسيحية المختلفة (عقيدة الثالوث)، وهذا يجعلهم يعتزون بكونهم المقربين إلى الإله الواحد الصمد.

إن العقيدة التي تتعدد فيها العبادات وتتنوع، تجذب إليها الناس أكثر من العقيدة التي تقل فيها الشعائر والممارسات التعبدية والاحتفالية. فالناس يتمسكون بقوة أكبر بالأشياء التي تشغل حياتهم اليومية وتزيدهم تقارباً. ومن الدلائل على هذا حرص المسلمين واليهود على التمسك بعقائدهم، والسهولة التي تبدل بها الشعوب الوثنية معتقداتها.

إن للأمل والخوف تأثيراً عميقاً في حياة الناس، لذلك نلاحظ أن الديانة التي تحدثهم عن الجنة (الأمل)، وعن الجحيم (الخوف) تجلب اهتمامهم وتستميلهم أكثر من غيرها. وهذا ما يفسر سهولة التي انتشرت بها العقائد الأجنبية في اليابان⁽¹⁾. وتجدر الملاحظة أن

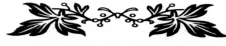
(1) الديانة المسيحية والعقائد الهندية تتحدث عن الجنة والجحيم؛ أما الديانة اليابانية القديمة (شنتو) فليس فيها جنة ولا جحيم.

ملخصات من الأدب الفرنسي

الناس، إذا أخذوا فرادى قد نجد في معاملاتهم المكر والاحتيايل، وإذا اجتمعوا فإنهم يميلون إلى الخير والصلاح. ولولا جلاله الموضوع لَمَثَلُ ذلك بما يحدث من ردود أفعال الجمهور في المسرح، فهم يعجبون بما يشاهدون على خشبة المسرح من مشاعر الخير والخلق الكريم، وينزعجون إن كان المسرح يمثل أدوار الشر والقهر والفساد.

ويلاحظ المرء أن العبادات والشعائر الدينية التي تجري في أجواء احتفالية وفي معابد مزخرفة، تحوطها الأبهة والجلال، فهذه الأجواء تجذبنا إليها وتجعلنا نشعر بالفخر والاعتزاز بعقائدنا. وكذلك يتأثر الناس إيجابياً بمظاهر الزينة والزخارف والألوان والثراء التي يشاهدونها في ملابس رجال الدين وفي المعابد. وهكذا يلاحظ أن البؤس والفقر نفسه يقوي تعلق عامة الناس بهذه العقائد التي اتخذها أناس آخرون مطية لاستغلالهم.

حول المعابد⁽¹⁾



... لا يوجد مكان يشعر فيه الناس بالراحة الحقيقية، مثل المكان الذي يشعرون فيه بوجود المعبود إلى جوارهم، المكان الذي يجتمعون فيه ليعربوا عن ضعفهم وآملهم ومخاوفهم...

ولم يكن لدى قبائل التتر قديماً مساكن مستقرة، فلم يهتموا ببناء المعابد. وكان ذلك من الأسباب التي جعلت جنكيز خان يبغض المساجد. فقد تعرف هذا القائد على المسلمين، ورحب بعقائدهم، غير أنه ظل يكره فكرة الذهاب إلى مكة، وكان يقول بوسع الناس أن يعبدوا الله في كل مكان.

وقد لوحظ أن الناس الذين ليس لهم معابد يكون تعلقهم بعقائدهم ضعيفاً. وكان هذا من الأسباب التي جعلت التتر متسامحين لدرجة كبيرة مع الأديان الأجنبية؛ ويلاحظ أن القبائل البربرية التي غزت الامبراطورية الرومانية لم تتردد في اعتناق المسيحية، وأن قبائل الهنود الأمريكية لم تكن متشددة في التمسك بعقائدهم، بل انطوت تدريجياً تحت لواء المسيحية.

وبما أن الديانات هي الملجأ الأول للبيّساء والأشقياء والفقراء،

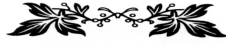
(1) العنوان : Of Temples

المؤلف : Montesquieu (من كتابه: روح القوانين).

ومنهم المجرمون، فقد شاع لدى الناس أن المعابد في مختلف البلدان، وبمختلف أشكالها، هي ملاجئ هؤلاء التعساء. وسادت هذه الفكرة لدى قدماء اليونان، حيث كان المجرمون يطردون من المدن ويمنعون من مخالطة الناس، فلم يجدوا مكاناً يلجأون إليه سوى المعابد، ولا حماة يستظلون في حماهم سوى الآلهة ...

وقد كانت القوانين التي جاء بها موسى عليه السلام تنص على أن الرجل الذي يقتل رجلاً خطأ يعتبر بريئاً، غير أنه كان يؤمر بأن يختفي عن أعين أهل القتل. ولتحقيق ذلك بنى موسى عليه السلام ملاجئ لهؤلاء التعساء. أما الذين يرتكبون جرائم كبيرة فلم يستحقوا أن يكون لهم مكان آمن. أما في عهد قدماء اليونان فكانوا يخشون أنه إذا طرد المجرمون إلى بلدان أخرى فإنهم يعتنقون عقائد أجنبية، لذلك فكروا في أن يشيّدوا لهم قرى تأويهم.

حول الطلاق⁽¹⁾



هناك نوعان من الطلاق، الأول يتم باتفاق الطرفين، في حالة انعدام التوافق والانسجام؛ ويتم نوع الطلاق الآخر على أساس إرادة طرف واحد، يراعى فيه مصلحته بصرف النظر عن مصلحة الطرف الآخر.

ومن حق الزوجة أن تلجأ إلى هذا النوع الأخير من الطلاق «التعسفي»، ولكنها تواجه صعوبات كبيرة لتحقيقه؛ ولهذا يعتبر القانون الذي يعرقل مساعيها في هذا المجال قانوناً استبدادياً يعطي للرجال حقاً ويمنعه عن النساء.

الرجل هو ربّ البيت، فهو يتمتع بوسائل عديدة لإلزام زوجه بواجباتها. أما المرأة عندما تلجأ إلى الطلاق للضرر، فهي تلجأ إلى علاج خطير عليها. إذ يكون عليها بعد الطلاق أن تبحث عن زوج آخر، وهي مهمة عسيرة، إذ تكون قد فقد سلاح شبابها وجاذبيتها مع الزوج الأول. كما يلاحظ أن الرجل، عندما يتقدم به السن، يشعر بالرضى عن ماضيه وعن نفسه، عندما يستعيد ذكريات شبابه، وما تمتع به من حب وملذات مع زوجه الفتية الحسناء الساحرة...

والواقع أنه من العدل أن يمنح القانون حق الطلاق للضرر للمرأة،

(1) العنوان : Of Divorce and Repudation

المؤلف : Montesquieu (من كتابه: روح القوانين).

ملخصات من الأدب الفرنسي

ويجعل الطلاق العادي مشتركاً، يطلبه الزوج أو الزوجة حسب الظروف. وتجدر الإشارة هنا إلى أن حق الرجل في الطلاق، بسبب عدم الإنجاب، ينبغي أن يسمح به للرجل فقط في الحالات التي تكون له فيها زوجة واحدة.

ومن الواضح أن كثيراً من حالات الطلاق التعسفي تتم نتيجة العجلة العصبية والتسرع في الحكم، بينما يفترض ألا يتحقق الطلاق عموماً إلا بعد التداول والحوار والتشاور والتأكد من أن الفراق أصبح ضرورة لا بديل عنها. وغني عن القول التأكيد بأن الطلاق قد يكون لمصلحة الزوج أو الزوجة، ولكن نادراً ما يكون لمصلحة الأولاد.

العقل والحقيقة⁽¹⁾

(نبذة تاريخية)



ظل العقل مجهولاً في بقاع واسعة من المعمورة خلال فترات طويلة من الزمن، وكان الوضع السائد في دول كثيرة هو «حق القوي». وكان من زعماء السياسة السائدة في روما وزيان هما: الحيلة والبخل. وكان العقل آنئذ مختبئاً في مغارة، برفقة ابنته «الحقيقة»، وقد أخفيا مخبأهما خشية أن يبطش بهما الطغاة المفسدون.

وذاذ يوم عشر بعض الفارين من بطش الولاة على مخبأ العقل صدفة، فأخبروه بما يحدث في العالم من شرور ومظالم، فحزن لذلك، وشجعته ابنته «الحقيقة» على الخروج إلى العالم لمعالجة بعض مساوئ الناس ومشاكلهم. وقررا أن يبدأ جولتهما بزيارة روما، آنئذ عاصمة الامبراطورية ودخلها العقل وابنته متكرين خشية أن تبطش بهما محاكم التفتيش.

رحب بهما طباح البابا، وقادهما لملاقة الحبر الأعظم، فوجداه يطالع كتاب «تأملات ماركوس أوريليوس». قال البابا: «لو علمت أنكما على وجه الأرض لكنت أول من يزوركما». وجرت بينهم مناقشات حول

(1) العنوان : Eloge historique de la Raison

المؤلف : فولتير (Voltaire) - 1694 - 1778

ملخصات من الأدب الفرنسي

موضوعات كثيرة؛ وقرر البابا أن يبدأ حالاً في إنجاز بعض الإصلاحات. ثم قاما بزيارة مدن أخرى ولقيا عدداً من أهل الخير والصالح.

قال العقل لابنته: أعتقد أنه قد آن الأوان لنقوم بواجبنا، بقدر ما تسمح به ظروف العالم، بعد أن اختفينا زمناً طويلاً. وصلا إلى مدينة البندقية، فلاحظنا أن حاكمها يمسك مقصاً كبيراً، فبادر العقل متسائلاً: هذا مقص من المقصات التي كنت أحتفظ بها عندما كنت سجيناً في المغارة مع ابنتي، فماذا تفعل به؟ فأجاب الحاكم: إننا نستعمله لقص مخالب محاكم التفتيش، وأظافرها ومناقرها، ولولا ذلك لالتهمت خيرات البلاد.

وصل العقل وابنته إلى ألمانيا حيث شعرا ببعض الارتياح لما شاهدا من مظاهر الإصلاح؛ فقال العقل: «الحمد لله لقد عاد هؤلاء الناس إلى حظيرتنا». وواصلتا رحلتهم فزارا السويد، ثم سافرا إلى بولونيا، وهنا قالت الحقيقة لأبيها: «إنني منزعة، وأشعر بالرغبة في العودة إلى المغارة»، وذلك لما شاهدت من أوضاع سيئة في هذا البلد، حيث كان الناس يعاملون كأنهم مجرد حيوانات.

وعندما وصل العقل وابنته إلى انكلترا، قالت له: «أتعرف يا أبي أن شعب هذه الدولة عانى من ظروف القساوة والشقاء فترات طويلة. وها هو الآن قد بدأت ظروفه تتحسن، وأصبح ينعم بكثير من المزايا والخيرات. غير أن انكلترا قلقة لما تواجهه من أعباء نتيجة احتلالها لأمريكا الشمالية، وكذلك في المقاطعات التي احتلتها في الهند» فأجابها العقل: لا ريب أن العبء سيكون ثقيلاً، ولكن إذا استمعت إلى بعض نصائحي، ستوفق إلى تخفيف هذه الأعباء.

وزار العقل وابنته فرنسا، وكانا قد طردا منها قبل ذلك. وقالت الحقيقة: هل تذكر يا أبتى، كم كانت رغبتنا قوية في الاستقرار في هذا البلد، أثناء حكم لويس الرابع عشر، وعهده الجميل. ولكننا لم نقدر على تحمل النزاعات السائدة آنئذ، فهربنا. وما زالت بعض العبارات ترنّ في أذني، من ذلك العهد، مثل: «لا حديث بعد اليوم عن القوتين (الله والشعب)، لأنه منذ الآن لا توجد إلا قوة واحدة: إما قوة الملك وقوانين المملكة، أو قوة الشعب ونظام جمهوري...» وعلى أية حال، تعلم يا أبتى أنني لا أكتب إلا ما تملئ عليّ. وأجابها العقل: تعلمين يا ابنتى أنني أتمنى الأشياء نفسها التي تفكرين فيها. وهناك أمور كثيرة نرغب في تحقيقها، ولكن إنجازها يتطلب مزيداً من الجهد والوقت. وقد بدأت تظهر بعض بشائر الخير والإصلاح عساها تلتطف من مرارة العيش.

إنني أعبر عما في نفسي بصراحة، لأن اسمي الحقيقة، أسمى الأشياء بأسمائها، فهذا من طبيعتي. وأودّ أن أبلغ الأجيال القادمة بأن الناس بدأوا، في هذا العهد، يفكرون في إصلاح بعض الجوانب الحياتية، يفكرون في ضمانات تحميهم إذا مرضوا، أو تعرضوا لأخطار جسيمة، كما بدأوا يفكرون في وضع قوانين تحمي الضعفاء من التعذيب، وتطالب بالتسامح...

صدقت يا بنيّتي، والآن فلنتمتع بهذه الظروف المريحة، والأيام الجميلة، ولنبق في هذا البلد آملين أن يدوم هذا العهد السعيد، وإذا زال، فسنعود إلى مخبئنا، في المغارة.

رب سيئة يعقبها خير كثير⁽¹⁾



كان يوجد في مدينة Hippone⁽²⁾ قس مسن ملهم يتكهن بالمستقبل، وكثيراً ما تزوره النساء ليستمع إلى اعترافتهنّ. وذات يوم زارته فتاة رائعة الجمال تدعى «كوزي - سانكتا»⁽³⁾، رباها والداها على الفضيلة وحسن الأخلاق. وكانت مخطوبة لرجل يدعى كاييتو، قصير القامة، فظ الطبع، شديد الغيرة على خطيبته. وكان يعمل مستشاراً في محكمة المشرفين في مدينة هييون.

جاءت الخطيبة إلى القس ليحدثها عن مستقبل زواجها، لأنها لم تكن تسكن لزواج أجبرها عليه أبواها. فكر القس ملياً، ثم قال لها: يبدو لي أن تمسكك بالأخلاق الفاضلة سيسبب لك مشاكل كثيرة، ولكنك ستخونين زوجك ثلاث مرات، وفي النهاية ستدخلين في عداد القديسين. غضبت الفتاة لقول الخوري، وغادرت عائدة إلى منزلها.

وكان يوجد في المدينة فتى وسيم، جميل الطلعة، افتتنت به نساء المدينة، يدعى ريبالدوس. وشاهد كوزي - سانكتا فأعجب بها وأحبها من كل قلبه، غير أنه صعب عليه الوصول إليها لعفتها وتمسكها

(1) العنوان : Cosi - Sancta

المؤلف : فولتير (1694 - 1778)

(2) مدينة قديمة كان موقعها قرب مدينة عنابة الحالية بالجزائر.

(3) Cosi - Sancta

بمبادئها الأخلاقية. لجأ الفتى إلى أساليب عديدة للاقتراب منها: بدأ بمصداقة زوجها الذي شك في حسن نيته؛ ثم تنكر في زي قس مرة، وفي زي بائع ملابس تارة، وزي متسول حيناً.

وكان الزوج الغيور قد علم بحيله ومحاولاته، فأجر رجالاً ليراقبوه أولاً، ثم طلب منهم أن ينتقموا منه، فأشبعوه ضرباً، وتوفي بعد ذلك بأسبوعين.

واغتتم والي المدينة هذه الجريمة لإشباع رغباته، فقد كان رجلاً شريراً، فاسد الأخلاق. أصدر الحكم بالإعدام على كابيتو (الزوج) الذي حرض على قتل الفتى ريبالدوس. وعندئذ طلب حضور الزوجة الفاتنة كوزي - سانكتا، وقال لها إنه بإمكانها أن تنقذ زوجها من الموت، بأن تقضي ليلة واحدة في فراشه. أجابته بأنها ملك زوجها، وليس من حقها أن تسلم نفسها لرجل غيره. أحضر الوالي الزوج وخيّر بين المشنقة وتسليم زوجته، وبعد التهديد والوعيد، اختار الحياة على الموت، ورضيت الزوجة بحكم القدر لتتقذ زوجها.

وبعد قليل أصيب ابنها بمرض عضال، وكان يوجد طبيب واحد قادر على علاجه، يقطن في مدينة أخرى. قررت كوزي - سانكتا أن تسافر إليه برفقة أخيها. وأثناء الرحلة اعترض سبيلهم قطاع الطريق، فقبضوا على الأخ، وهددوا بقتله. وقال لها رئيس العصابة إن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ حياته هي أن تستجيب لرغبته، وتقضي ليلة معه. ولم تجد المرأة الفاضلة سبيلاً غير الاستسلام لطلب رئيس العصابة. لتتقذ حياة أخيها. وكانت هذه هي الخيانة الثانية في حق زوجها.

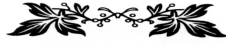
ملخصات من الأدب الفرنسي

وصلت السيدة سانكتا إلى ذلك الطبيب الشهير، الذي كان مشهوراً كذلك بفساد الأخلاق وملاحقة النساء اللواتي ترميهن الظروف بين أحضانه. وبعد أن شرحت له سانكتا مرض ابنها، قدمت له مبلغاً من المال.. فأجابها بأنه لا ينال أجرته من السيدات الجميلات إلا بطريقة واحدة، وأن كل ما يطلبه منها مقابل علاج ابنها هو أن تقضي فترة في فراشه، كما تفعل نساء أخريات. ولم تجد سانكتا الأم مناصاً من أن تدفع الثمن المطلوب مقابل علاج ولدها.

وهكذا كان مصير هذه المرأة، فقد رفضت محاولات العاشق ريبالدوس، ولكن غيرة زوجها دفعته إلى قتله، فحكم عليه بالإعدام.. فدفعت ثمناً غالياً لإنقاذه، ثم لإنقاذ أخيها، وابنها من الموت.

وعلم الناس بتضحياتها، فقالوا إن وجود امرأة مثلها في الأسرة أمر ضروري، فلقد تحملت تضحيات تخالف مبادئها الأخلاقية لتنقذ أفراد أسرتها. وبعد وفاتها كتب على قبرها «الحسنات العظيمة تمحو السيئات».

علاج لا يخيب⁽¹⁾



ذات يوم لقي فيلسوف كبير امرأة منزعجة حزينة تذرف الدموع، فتقدم نحوها وحدثها عن إحدى ملكات إنكلترا التي طردت من مملكتها، وأعدم زوجها شنعاً. فردت عليه بأنها تأسف لحال تلك الملكة، وراحت تندب حظها وتبكي سوء مصيرها .

ثم حدثها الفيلسوف عن قصة ماري ستيوارت الإنكليزية التي سجنها الملكة إليزابيث الأولى طيلة ثماني عشرة سنة، ثم أمرت بقطع عنقها؛ فأجابت المرأة بأن ذلك عمل وحشي، واستمرت في حزنها وعويلها .

حدثها الفيلسوف عن أميرة فاجأها أبوها مع عشيقها، فصفعه، وهشم العشيق رأس الأب بقطعة معدنية، قفزت الأميرة من النافذة فكسرت ساقها، وما زالت تعاني العرج حتى الآن. أما العشيق فحكم عليه بالإعدام. فقالت المرأة: وهل هذه الحادثة المؤلمة تمنعها من الحزن على مصيرها والتشكي من مصائبها وآلامها؟

وفي اليوم التالي فقد الفيلسوف ابنه الوحيد، فكاد الحزن يقضي عليه لهذا المصاب الجلل. فجاءته تلك المرأة بقائمة تضم عدداً من

(1) العنوان : Les deux consolés

المؤلف : فولتير (1694 - 1778).

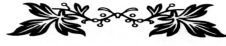
ملخصات من الأدب الفرنسي

أسماء الملوك الذين فقدوا أبناءهم، فقرأها، واعترف بصحة ما فيها، ولكنه لم يكف عن بكاء ولده الوحيد .

وبعد ثلاثة أشهر التقى الفيلسوف بالمرأة، ولاحظ كل منهما على ملامح الآخر علامات الاطمئنان والمرح، فقررا أن يشيِّدا معاً تمثالاً ينقش عليه عبارة:

«إلى الزمن، الذي يواسي ويعالج».

العشاء⁽¹⁾



حضر زاديك (Zadig) وسيدِه SétoC مآدبة عشاء، وكان يوجد من بين المدعوين هندي، ومصري، وكلداني، ورجل من قبائل السلّت (Celtes)، ويوناني، وصيني وغيرهم. ودارت بينهم مناقشة ساخنة حول العقائد والآلهة⁽²⁾.

كان الرجل المصري غاضباً لأنه فقد قريبة له، ولم يحصل على قرض.. وعندما مدّ يده ليتناول قطعة لحم، بادره الهندي قائلاً:

الهندي : هل ستأكل من هذه الدجاجة؟ ألا تخشى أن تكون روح المرحومة قريبتك قد تقمّصت هذه الدجاجة؟ إن طهي الدجاج عمل يغضب الطبيعة.

المصري : ما معنى كلامك عن طهي الدجاج، وغضب الطبيعة؟! إننا نعبد العجل أبيض، ولكن لا نتردد في أكل لحمه.

(1) العنوان: العشاء، Le souper، مقتبسة من حكاية زاديك (Zadig) للكاتب الفيلسوف فولتير. وزاديك شاب ذكي وطموح، يواجه مصاعب كثيرة منها أنه تمّ بيعه لثريّ مصري يدعى SétoC. واكتشف السيد ما يتمتع به زاديك من علم وذكاء وتجارب، فاتخذهُ صديقاً.

(2) المؤلف يجري النقاش على السنة هؤلاء الأشخاص على أساس معتقدات العهود القديمة.

- الهندي : تعبدون عجلًا؟! هل هذا معقول؟
- المصري : أجل، معقول جداً. نفعل هذا منذ مائة وخمسة وثلاثين ألف سنة، ولم ينكره علينا أحد.
- الهندي : إن إلها «براهما» نهانا عن أكل لحم العجول.
- المصري : وما الذي جاءكم به إلهكم هذا من خير؟
- الهندي : لقد علم الإنسان القراءة والكتابة. والعالم مدين له بلعبة الشطرنج.
- الكلداني : كلاكما على خطأ. ألا تعلمان أن الحوت العظيم Oannes (الإله) هو منبع جميع الخيرات؛ لا يستحق الشكر والحمد إله غيره. كان له رأس إنسان وذنب مذهب، وكان يخرج من البحر ثلاث ساعات في اليوم ليقوم بمهمة الوعظ والإرشاد...
- الصيني : إنني أحترم آراء الجميع، بما في ذلك العجل المقدس، والحوت الجميل، وآراء الكلداني والمصري والهندي... ولكن ألا ترون أن النور، والعقل، والسموات.. تعادل وتفوق العجول والحيتان. ولا أريد أن أناقش الأقدمية، لأن المهم هو أن يكون الإنسان سعيداً.
- اليوناني : إنكم جميعاً جهال. ألا تعلمون أن «الفضوى» هي أصل الكون؛ وأن الحالة الفضوية التي كانت فيها المادة والأشكال قبل نشوء الكون هي التي أعطت العالم وضعه الحالي....

(وقاطعه السلتي قائلاً)

السلتي : أقسم أنه لا يوجد إله عظيم غير «تيوتاتس»
Teutates⁽¹⁾ الذي يستحق أن نتحدث عنه.

وقف زاديك فهداً الخواطر، ووجه كلمات طيبة لكل من
الحاضرين، ثم أضاف:

أصدقائي، كل واحد منكم على جانب من الحق، والواقع أنكم
جميعاً على وفاق. فأنت، أيها المصري لا تعبد العجل Apis في حد
ذاته، بل لأنه رمز للقوة الكامنة وراء خلقه. وأنتم، أصحاب الحوت
العظيم، إنما تعبدون القوة التي أحسنت صنعه وخلقت له البحار التي
يعيش فيها. وأنتم أهل الهند والصين، تعترفون بمبدأ الخلق الأول.
وأنت يا ابن اليونان، أنا على يقين من أنكم تؤمنون بخالق أعلى، مبدع
المادة والأشكال.

فأجاب الجميع بإشارات الرضى والموافقة، وطلب زاديك منهم أن
يتعانقوا، ففعلوا.

(1) إله الغاليين.

حول أفكار السيد باسكال⁽¹⁾

الرسالة الخامسة والعشرون



«عندما يلاحظ المرء ضلال الإنسان وشقاءه، وما يكمن في طبيعته من موانع وعوائق، ويتأمل الكون وصمته العميق، والإنسان مهمل مهجور في زاوية مظلمة من زوايا هذا الكون الرهيب، دون أن يعرف من وَضَعَهُ في هذا المكان، وماذا يفعل ههنا، وما مصيره بعد وفاته، عندئذ ينتابني فزع وهلع مثل مخلوق ألقى به، وهو نائم، في جزيرة نائية قاحلة موحشة ومخيفة، ويستيقظ لا يعرف أين هو، وليس له أية حيلة للخروج من محنته؛ وفي هذا الوضع الموحش أتعجب كيف لا يستولى اليأس على الإنسان».

وبينما كنت أقرأ أفكار السيد باسكال هذه ، وصلتني رسالة من أحد أصدقائي يقطن بلداً نائياً جداً، فيما يلي بعض ما ورد فيها:

«إنني أعيش في هذا البلد كما تركتني، ليست أكثر بهجة ولا أشد حزنًا، ولا أكثر مالاً ولا أشد فقراً، أتمتع بصحة جيدة، ولدي جميع ما يجعل الحياة ممتعة، بدون حب ولا بخل ولا طموح ولا رغبة. وما دام حالي مستمراً على هذا المنوال، أعتبر نفسي رجلاً سعيداً».

(1) العنوان : Sur les Pensées de M. Pascal (Vingt- Cinquième lettre).

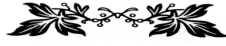
المؤلف: فولتير: (1695 - 1778)

يوجد كثير من السعداء مثل صديقي هذا. وهناك أناس يعيشون مثل الحيوانات: هذا كلب يأكل وينام مع عشيقته؛ وكلب آخر يحرك السفود (السيخ) وهو في راحة وسرور؛ وكلب آخر يصاب بداء الكلب فيقتل. أما فيما يخصني، فإنني عندما أشاهد باريس ولندن لا أجد أي سبب يدفعني إلى اليأس الذي يتحدث عنه السيد باسكال. إنني أشاهد مدينة لا تشبه بأية حال تلك الجزيرة الموحشة، بل هي مدينة مأهولة بسكانها، موسرة ومتحضرة، والناس فيها سعداء بالقدر الذي تسمح به طبيعة الإنسان.

ومن هو الإنسان الحكيم الذي يلجأ إلى الانتحار لمجرد أنه لا يعرف كيف يشاهد الإله وجهًا لوجه، ولأن عقله غير قادر على فك لغز «الثالوث»؟ وهل ييأس الإنسان لمجرد أنه لا يملك جناحين أو أربعة أرجل؟

ولماذا نجعل من وجودنا مصدرًا للربح؟ إن وجودنا ليس كله شقاء وتعاسة كما يصوره البعض. فالقول بأن العالم سجن كبير، وأن البشر مجرمون ينتظرهم الإعدام، هو تفكير رجل متعصب. وكذلك القول بأن العالم ميدان للملذات ينبغي أن يحظى فيه الإنسان بجميع المتع والطيبات؛ هو من أحلام الرجل المترف المنغمس في الشهوات. والقول بأن الأرض والحيوانات والبشر خلقوا على الحال الذي ينبغي أن يكونوا عليه، في نظام العناية الإلهية الشاملة، هو في نظري رأي الرجل الحكيم.

الأنف⁽¹⁾



ذات يوم عادت زوجة زاديك (Zadig)، واسمها أزورا، من جولتها، وكانت هذه المرة غاضبة ثائرة. سألتها زوجها: ما سبب هذا الغضب؟ فأخبرته أنها زارت إحدى صديقاتها فقدت زوجها، وكانت قد بنت له قبراً بالقرب من جدول، وأقسمت أنها لن تغادر مكان القبر ما دام الجدول يجري بالقرب من القبر.

فقال زاديك لزوجته: إنها امرأة تحب زوجها حباً حقيقياً خالصاً. فأجابته زوجته: لا تستعجل في حكمك، لقد وجدتها اليوم تحضر مجرى آخر للجدول لتبعده عن قبر زوجها. واسترسلت زوجة زاديك في انتقاد صديقتها التي لم تحفظ عهد الوفاء لزوجها.

وكان لزاديك صديق يدعى كادور (Cador)، وكانت أزورا، زوج زاديك، ترى فيه من صفات الصدق ما يجعله أهلاً لصداقة زوجها. وذات يوم ذهب أزورا لقضاء بعض الوقت في البادية. فاستغل زاديك فرصة غيابها، فوضع خطة بالاتفاق مع صديقه كادور.

(1) الأنف (le nez) مشهد من قصة Zadig (زاديك) التي تشتمل على مشاهد متنوعة، ألفها الأديب والفيلسوف الفرنسي الشهير فولتير Voltaire. وزاديك رجل غني وذكي من مدينة بابلون. ويصور المؤلف، في هذه القصة المشاكل والتجارب التي يواجهها بطل قصته أثناء حياته. وفي نهاية المطاف يلتقي برجل ناسك يكشف له سر السعادة التي تتلخص في الرضى بحكم القدر والاستسلام للعناية السماوية.

وعند عودة الزوجة (أزورا) سارع الخدم لإخبارها بأن زوجها، زاديك، توفي فجأة أثناء الليل، وأنه دفن في مقبرة العائلة. وبكت أزورا زوجها بمرارة؛ و«شاركها» كادور حزنها وآلامها. ثم سألتها أن يتحدث إليها على انفراد، فقال: لقد كتب لي صديقي (زوجها) القسم الأكبر من ثروته، ولكنني سأقتسمها معك، فعاودها البكاء، ثم هدأت.

اتفقا على قضاء مزيد من الوقت معاً، ودار الحديث بينهما على أمور متنوعة، وأثناء فترة العشاء، تظاهر كادور بأنه يشعر بالألم حاد في جنبه. وسارعت أزورا فأحضرت جميع ما لديها من عطور وزيوت، فلم تُجد شيئاً. وبعد لأي قال لها كادور: إن علاجي الوحيد الذي يخفف هذا الألم هو أن يُدلك مكان الألم بأنف شخص توفي حديثاً.

استغربت أزورا في بادئ الأمر من هذا العلاج الغريب، وبقيت برهة تفكر في قبول الطلب أو رفضه. وأخيراً تناولت سكيناً ودخلت غرفة القبر. وبعد أن ذرفت بعض الدموع، تقدمت لقطع أنف زوجها زاديك. وسرعان ما وضع يده على أنفه، وأمسك الخنجر بيده الأخرى، وهو يقول: لا داعي لأن تتقدي صديقتك، الأرملة، فسعيك لقطع أنفي أدهى وأمر من محاولتها تحويل مجرى الجدول.

ميكروميغا⁽¹⁾



كان لي الشرف ذات يوم أن أتعرف على مخلوق يدعى ميكروميغا، وهو اسم يناسب كل مخلوق عملاق مثله. انطلق هذا الكائن من أحد الكواكب التي تدور حول نجم الشعري. وبعد أن زار كواكب عديدة، وصل إلى كوكب زحل، وهناك تعرف على سكرتير أكاديمية الكوكب، وهو مخلوق ضخم، ولكنه قزم عند مقارنته بالعملاق المذكور.

قرر العملاق، ميكروميغا، وصاحبه «القزم» أن يسافرا معاً، فانطلقا في الكون الفسيح، واستقرا فترة في كوكب المشتري، ثم تابعا سفرهما مروراً بكوكب المريخ، فشاهدا ضوءاً ضئيلاً، كان ذلك هو كوكب الأرض فقصداه، ونزلا في شمال بحر البلطيق، يوم 25 جويلية (يوليو) سنة 1737 (التوقيت الجديد).

وبعد استراحة قصيرة قرر الزائران، العملاق والقزم، التعرف على كوكب الأرض، ولم يخفيا منذ البداية ابتسامة ساخرة لصغر حجم

(1) عنوان القصة Micromega، للكاتب الفيلسوف الفرنسي الشهير Voltaire. وهي قصة فلسفية يتخيل فيها المؤلف أن كائنين أحدهما من أحد الكواكب التابعة لنجم الشعري، ويدعى Micromega، والآخر من كوكب زحل ويدعى «القزم»، وصلا إلى كوكب الأرض بعد جولة عبر الفضاء. ويشير المؤلف في قصته الخيالية إلى مدى ضعف الإنسان، وصغر حجمه، وغروره، وقلة حيلته، حيث يبدو كوكب الأرض وسكانه مخلوقات منعزلة، بل لا تكاد ترى في نظام الكون الفسيح.

هذا الكوكب الذي بدا لهما كصخرة مبللة صغيرة تسبح في أعماق الفضاء. قررا الاتجاه نحو الجنوب، وأتما دورة حول الأرض خلال 36 ساعة. وحاول الزائران أن يكتشفا ما إذا كان يوجد على هذا الكوكب كائنات حيّة، ولم تستطع عيونهما الضخمة أن تشاهد لأول وهلة هذه الحيوانات التي لم تكن سوى حبات رمل أمام العملاق ورفيقه.

وذات يوم تمزق عقد العملاق الفيلسوف، المصنوع من اللؤلؤ، وتناثرت حباته على الأرض، فانحنى صديقه القزم ليلتقط حباته، فلاحظ أن حبات اللؤلؤ تعمل مثل المكبر، وتساعد على مشاهدة مخلوقات صغيرة، وشاهد الحيتان تتحرك في البحر، فدعا العملاق الذي تعجب من صغر حجم هذه الكائنات الحيّة.

وشاهد العملاق مخلوقاً آخر يتحرك في الماء، فرفعه برفق، ووضعه على ظفره. وكان ذلك «الشيء» سفينة تحمل عدداً من المسافرين. وتمكن العملاق، بعد جهد، من مشاهدة «حشرات» مثل حبات الرمل، تتحرك داخل المركب، فكانت فرحته عظيمة، ودعا صاحبه ليتمتع بذلك المشهد، وشكر الإله الذي خلق هذه الكائنات الصغيرة على هذا الكوكب التائه في زاوية من أعماق الفضاء الفسيح.

أشفق العملاق على هذه المخلوقات الضعيفة، وسألهم: هل فيكم روح؟ هل أنتم سعداء، أم أنتم في طريق الانقراض؟ لعلكم تقضون جزءاً من حياتكم في التفكير، وتتمتعون بالحب؟ هذا إن كانت لكم أرواح! فأجابه أحد رجال السفينة، وهو فيلسوف أيضاً، فقال: إذا استثنينا عدداً قليلاً من سكان كوكبنا، فإن باقيهم خلق من الأشرار والمجانين

ملخصات من الأدب الفرنسي —————

والأشقياء. لدينا كميات كبيرة من المادة التي تساعد على إتيان الشرور، كما نملك قدرًا وافراً من الروح والفكر، إذا كانت الشرور والفساد تأتي من هذين.

أيها الزائران، هل تدريان أنه في هذه الساعة التي أتحدث فيها إليكما يوجد مائة ألف مجنون من حشرات الجنس البشري، ممن يرتدون القبعات، يقتلون مائة ألف من الحشرات الأخرى الذين يلبسون العمائم؟ وأن هذه الممارسات تحدث فوق كوكبنا منذ بدء الخليقة.

وسأله الزائر العملاق: وما سبب هذه الأعمال الشرسة بين حشرات مثلكم لا تكاد ترى بالعين المجردة؟

- إنه الجشع والأنانية والنزاع حول قطع من الأرض لا تتجاوز حجم قدمكم، يتنازع عليها شخصان يُدعى أحدهما «السلطان» والآخر «القيصر». مع أنه لا أحد من البشر الذين يقتتلون يعرف من هو السلطان ومن هو القيصر.

- يا لهم من أشقياء! لقد هممتُ أن أخطو ثلاث خطوات فأسحق جميع هذه الحشرات الشريرة...

- لا تتعب نفسك، إنهم يسعون إلى حتفهم بأنفسهم، إنهم يدمرون الحياة على هذا الكوكب الجميل... والواقع أن الذين يستحقون القتل هم أولئك المتجبرون الذين يأمرّون بهذه المجازر.

- بما أنكم تنتمون إلى القلة القليلة التي تتبع في حياتها سبيل الحكمة والرشاد، لا تسلبون ولا تقتلون، فيماذا تشغلون أنفسكم؟

- إننا نُشرِّحُ الذباب، ونجمع الأرقام، ونقيس الخُطوط... ولكن كثيراً ما نتفق على نقطتين أو ثلاثة، ونختلف على ألف نقطة.

وطاب للزائر العملاق الحديث، فسأل عن المسافة بين الأرض والقمر، وبين بعض النجوم، ظناً منه أنه يعجزهم، ولكنه تعجب من أجوبتهم، بعد أن كان قبل قليل يشك في أن لهم روحاً وعقلاً. ثم سأل:

- بما أنكم تعرفون ما هو خارج أبدانكم، فهل تعرفون ما هو داخلها؟ ما هي الروح عندكم، مثلاً؟ وجاءت أجوبة فلاسفة السفينة متباينة، فاستشهد أحدهم بقول أرسطو، وقال إن الروح هي النفس صافية تتعلم قبل ميلادها جميع الأفكار الميتافيزيقية، وعندما تخرج إلى هذا العالم تضطر لأن تتعلم كل شيء من جديد.

وطلب العملاق مزيداً من التوضيح، فقال أحدهم:

- لا أدري، يقولون إنها عكس المادة.

- ولكن هل تدري ما هي المادة؟

- على سبيل المثال، هذه الصخرة لها شكل وحجم ولون، ويمكن لمسها ورؤيتها. وسأل العملاق فيلسوفاً آخر:

- هل تخبرني ماذا تفعل روحك؟

- إنها لا تفعل شيئاً؛ إن الله هو الذي يفعل الأشياء من أجلي.

وقال فيلسوف آخر من سكان الأرض: إن جميع العوالم التي

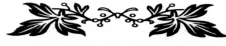
ملخصات من الأدب الفرنسي —————

مررتما بها، وغيرها من النجوم والكواكب، إنما خلقها الله من أجل الإنسان. وضحك الزائران ضحكة ساخرة، فاهتزت أكتافهما، وسقط المركب الذي فوق ظفر العملاق. وتعجب هذا الأخير كيف يكون لهذه الكائنات، التي لا يتجاوز حجمها حبات الرمل، كل هذا الكبرياء.

وقبل مغادرته كوكب الأرض، كتب لهم كتاباً حول الفلسفة، يتناسب مع مستواهم، ويوضح لهم كثيراً من الأمور. حمل الفلاسفة الكتاب إلى أكاديمية العلوم في باريس، وعندما فتحه السكرتير، لم يجد فيه غير صفحات بيضاء⁽¹⁾.

(1) فولتير (1694 - 1778).

« إميل » أو حول التعليم⁽¹⁾



ماذا ينبغي لنا أن نقول عن هذا التعليم الهمجي الذي يضحى بالحاضر من أجل مستقبل مجهول؟ تعليم يكبل الطفل بقيود متنوعة، ويجعله يشقى في حاضره بدعوى أنه يهيئ له، في الأمد البعيد، سعادة مزعومة قد لا يتمتع بها. وحتى إذا افترضنا أن هذا التعليم معقول من حيث الموضوع، فكيف لا نقلق عندما نشاهد أولئك الأطفال وهم يعانون تحت أعباء تنهك قواهم، محكوم عليهم بأن ينجزوا أعمالاً، هم أنفسهم غير واثقين من جدواها في مستقبل حياتهم.

هكذا يقضي الأطفال عهد المرح والبهجة وسط تهديدات ودموع وأصناف العقاب والاستعباد. ومن يدري كم من طفل ذهب ضحية الشطط و«حكمة» شاذة تبنها هذا الأب أو ذاك المعلم...

أيها الناس كونوا رحماء! فهذا واجبكم الأول؛ رحماء مع الصّغير والكبير! ومع كل ما يتعلق بالإنسان. أحبوا الطفولة! يسروا لهم فرص اللعب والمتعة وما يساعد على تطوير غرائزهم المحبّبة. من منكم لم يحنّ إلى عهود الطفولة، عهود الابتسامات العفوية التي عاشت فيها الأرواح في براءة وسلام. لماذا تريدون أن تنزعوا من هؤلاء الأطفال

(1) العنوان: Emile ou De l'education

المؤلف: J.J. Rousseau (1712 - 1778).

ملخصات من الأدب الفرنسي

الصغار حقهم في التمتع بسنوات تضر منهم بسرعة، سنوات حياتهم الأولى، لماذا تريدون أن تملأوها بالمرارة والآلام، إنها سنوات لا تعود إليهم، كما لا تعود إليكم....

لعلكم تردون بأن عهد الطفولة هو الوقت المناسب لإصلاح المعوج في سلوك الإنسان، وأن ما يتعرض له الصغار من عقوبات أو قساوة يهدف إلى إعدادهم لسنوات النضج. ولكن من أكد لكم أن من حقكم أن تنفذوا جميع تدابيركم؟ وأن جميع المعلومات التي تثقلون بها كاهل الطفل الضعيف ستعود عليه بالنعف وليس بالضرر؟ ومن أكد لكم بأنكم تصلحون شيئاً من سلوكه بما تسلطون عليه من دواعي الاكتئاب؟ وكيف تبرهنون لي بأن هذه الميول التي تزعمون معالجتها ليست في الواقع نتيجة سوء فهمكم لنفسية الطفل؟ وما هذه التوقعات البائسة التي تدفعكم إلى إدخال الشقاء والمعاناة على نفس مخلوق ضعيف، على أمل أن تجلب له السعادة في المستقبل؟

إننا لا نعرف السعادة المطلقة، بل كل شيء في هذه الحياة متداخل ومتعاقب؛ والإنسان لا يختبر إحساسات صرفة أو مثالية؛ ولا تمر عليه لحظات وهو متجمد في حالة واحدة. فانفعالاتنا النفسية والتغيرات في أجسادنا تتجدد على الدوام. البشر يشتركون في الشعور بالخير وبالشر، ولكن بدرجات مختلفة. وأسعد الناس من يواجه أدنى درجات المعاناة والآلام؛ وأشقاهم من يختبر أدنى درجات المتعة. والحالة التي يشترك فيها البشر هي أن معاناتهم في هذه الحياة تتجاوز درجات راحتهم ومتعهم.

الإحساس بالألم تصاحبه الرغبة في التخلص منه؛ والشعور بالمتعة تلازمه الرغبة في المزيد منها. ولكن كل رغبة يرافقها افتراض الحرمان منها. وجميع أنواع الحرمان معاناة وألم. وعلى هذا يمكن القول إن شقاء الإنسان أو سعادته يكمنان في الفرق بين مستوى رغبته وقدراته على تحقيقها؛ ويكون سعيداً حقاً إذا كانت إمكانياته مساوية لرغبته.

وأيّن تكمن إذا «الحكمة» أو طريق السعادة لدى الإنسان؟ فهي بالطبع ليست في خفض مستوى رغبته لأنها إذا كانت دون مستوى طاقاته فإن جزءاً من هذه الطاقات يبقى معطلاً، وفي هذه الحالة لا يتمتع بجميع كيانه. كما أن طريق الحكمة والسعادة لا يكمن في توسيع مجالات طاقاتنا وقدراتنا، لأنه إذا زادت رغبات المرء في الوقت ذاته على هذه الطاقات، فإن هذا يعني زيادة معاناتنا وشقائنا. ولكن الحكمة تكمن في كبح جماح الرغبات حتى لا تتجاوز الطاقات، بحيث يتحقق التوازن المثالي بين قدرات الإنسان وإرادته. ففي هذه الحالة تتبع جميع الطاقات نحو العمل، وتبقى النفس هادئة راضية، ويجد المرء توازنه الطبيعي، وهذا يفتح أمامه طريق السعادة.

صالون سنة 1767⁽¹⁾



إن كل ما يذهل الروح، وجميع ما يرسم عليها مشاعر الرعب، يقود إلى حالة من السمو والجلال. فالسهول المنبسطة لا تذهل النفس مثل البحر، ولا البحر الهادي مثل البحر الهائجة أمواجه.

الظلام يضخم شعور الرعب.. الليل يخفي الأشكال، ويضفي على الضجيج صوراً وتخيلات مرعبة، وحتى لو تعلق الأمر بحفيف الأوراق في أعماق غابة، فإن ذلك الضجيج يهيج المخيلة، ويحرك أعماق الأحشاء، ويجعل كل شيء حولك يزداد ضخامة. وهنا يرفع الرجل الحكيم درجة الحذر والانتباه؛ وترتعش أوصال الجبان فيفر؛ ويضع الشجاع يده على قبضة سيفه.

المعابد قليلة الإضاءة! الطغاة قليلاً ما يظهرون! بل لا نكاد نشاهدهم في طريقنا؛ ونعتبرهم أقوى مما هم عليه في الواقع بما يرتكبون من جرائم. إن ملاذ الرجل المتحضر والرجل المتوحش حرم معتم. ومن خداع النفس القول بأن ما يخفى في أعماق نسيج القلب شيء يتعذر التعبير عنه.

(1) العنوان: Salon 1767

المؤلف: Denis Diderot (1713 - 1784).

ملاحظة: بعد مشاهدة معرض للرسوم واللوحات الفنية في متحف اللوفر، كتب المؤلف هذا المقال حول الجمال في مختلف صورته وأوسع معانيه.

أيها القساوسة شيدوا معابدكم وهياكلكم في أعماق الغابات. وليخترق نوح ضحاياكم حجاب الظلمات! ولتتجَزَّ شعائركم السرية ومشاهد شعوذتكم الدموية في ظلام لا تنيرها إلا ومضات مشاعلكم المشؤومة. إن النور مفيد لمن يريد أن يقنع، ولكنه لا يجدي شيئاً في نفس من يرغب في تحريك المشاعر. إن النور، في مختلف معانيه وصوره، يخمد الحماس.

أيها الشعراء، تكلموا دون توقف عن الخلود، واللانهائي، وعن الأبعاد المذهلة، وعن الكون والزمان، والألوهية، والمقابر وأرواح الموتى، وعن درجات الجحيم، والسماوات المعتمة، والمحيطات العميقة، والغابات المظلمة، وعن الرعد والبرق الذي يمزق السحب. فلتكن حياتكم معتمة. إن الضجيج الشديد الذي نسمعه من بعيد، وشلالات المياه التي نسمعها ولا نشاهدها، الهدوء، العزلة، الصحراء، الأنقاض، الكهوف، دقات الطبول المقنعة، ضربات القضبان المتزامنة، دقات الأجراس المتقطعة، وأصوات الطيور الليلية والحيوانات الوحشية أثناء الليل، عندما تختلط بزمجرة الرياح، وبأنين امرأة وهي تضع حملها، وجميع الآهات والشكاوي التي تتقطع ثم تعود، وأخيراً تنتهي بالخمود، ... إنه يوجد في جميع الحوادث شيء مروع، شيء غامض ولكنه عظيم.

إن التخيلات الثانوية التي ترتبط بالليل وظلماته، هي التي تحدث الرعب في قلب فتاة تسير في أجمة مظلمة لملاقاة حبيبها. تشتد دقات قلبها؛ تقف؛ يحيط الخوف بمشاعرها فيزيدها اضطراباً؛ ترتعش ركبناها... وكل أملها أن تبلغ حبيبها ليضمها بين ذراعيه ويطمئنها...

إن الأفكار المتعلقة بالقوة لها جلالها وعظمتها. غير أن القوة التي تهدد تثير المشاعر أكثر من القوة التي تحمي. فالثور القوي أجمل من البقرة؛ والثور ذو القرنين الذي يهزّ خواره المسامع، أجمل من الثور الذي يرعى في هدوء. والفرس الطليق في البراري، ومنظر عرفه يتماوج في الهواء، أجمل من الفرس تحت فارسه؛ وحمار الوحش أجمل من الحمار؛ والملك الطاغية من الملك المسالم؛ وربما نضيف أن الإجرام أجمل من الفضيلة؛ والآلهة الغاضبة الشرسة من الآلهة الرحيمة. ولا ريب أن صانعي القوانين يعرفون ذلك جيّداً.

إن فصل الربيع لا يتلاءم مع مشهد مهيب. فالروعة والجلال لا يكتسيان ثوب الجمال إلا في المشهد الفوضوي. كدسوا الأواني الثمينة، ثم غلفوها، وهي مقلوبة، وفي قماش ثمين كذلك، تلاحظوا أن الفنان لا يرى فيها إلا كتلة ذات أشكال جميلة. أما الفيلسوف فقد يتساءل: من الرجل القوي الذي يملك هذه الأشياء، ثم يتركها عرضة لينهبها المارّة...؟

الوداع يا صديقي؛ عمّت مساءً، وليلة سعيدة. فكّر جيّداً فيما سمعت، سواء أثناء نومك أو يقظتك. وستعترف بأن معالجة موضوع «الجمال» في الفنون ما زال يتطلب جهوداً كبيرة، على الرغم من كل ما كتبت في «الصالونات» السابقة، ومما أقول في هذا «الصالون».

حول سلوك النساء المستهترات⁽¹⁾



عندما نبحث قضية سلوك النساء المستهترات، نجد أنه على الرغم من أنهن معروضات للوم والنقد في بعض الجوانب، أنهن في واقع الحياة يقدمن خدمة للمصلحة العامة. فهن ينفقن من ثرواتهم ما يخدم المجتمع أكثر مما تفعله النساء العفيفات. ذلك أن رغبتهن الشديدة في التجميل، والزخرفة، وتحسين المظهر، وفي مسايرة الأذواق الجارية وكل ما يجذب اهتمام الرجال، يدفعهن إلى إنفاق المال، وهذا يساعد على إنشاء مشروعات لإنتاج الكماليات فيوفر فرص العمل، وينقذ أسراً كثيرة من ضيق العيش. وبالإضافة إلى ذلك نجد هؤلاء النساء أكثر حماساً للمساهمة في المشاريع الخيرية لصالح المعوزين والمحرومين.

... إن معظم من يسعون لتهديب أخلاق الناس يلقون مواعظ تجرح المشاعر، وكان عليهم أن يعلموا أن القذف والإهانات لا تستطيع أن تقف أمام المشاعر؛ وقد يكون من الممكن دعوة النساء المستهترات إلى توخي بعض التحفظ والحياء، بأن نوضح لهن أن التجميل والزينة لا تعنيان الغرور والإفراط في الزخرفة والتبرج؛ وأن الحياء جزء من الحب، وهذا الأخير متعة مهذبة متواضعة؛ وأن معظم المتع تتبع من

(1) عنوان الكتاب: De l'Esprit

المؤلف: Helvétius (1715 - 1771).

ذلك الغطاء الشفاف الذي هو الحياء الذي يستر جمال المرأة ويزيد في رغبة الرجال وتشوقهم إلى اكتشافه؛ وأنه في بعض المقاطعات الأمريكية، حيث تبرز المرأة عارية، يفقد الرجال ذلك الفضول وتلك الرغبة الجامحة في اكتشاف مواطن سحرها وجمالها؛ وأن الجمال المهان لا يجد له قيمة إلا في سوق الاحتياجات؛ وأنه لدى الشعوب التي يكون الحياء فيها حجاباً بين الرغبات وكشف العورات، يكون هذا الحجاب هو السحر الذي يجعل الحبيب يركع أمام محبوبته؛ وأن الحياء هو الذي يضع بين يدي الجمال الضعيفتين القوة التي يخضع لها السلطان.

وبالإضافة إلى ما ذكر، لتعلم المرأة المستهترة أن الأشقياء والبؤساء في الدنيا كثيرون، وهم يحسدون عادة من ينعم بالرخاء والرفاهية، ولذلك كان من الحكمة إخفاء مشاهد لهوها وتبرجها وتسليتها عن عيون أولئك المحرومين، لأن انعدام الحياء والاحتشام يكشف عن مباحج الملذات وأسرار النعمة، ويعرض النساء المستهترات إلى احتمالات الانتقام.

ولعله إذا لجأ الوعاظ إلى توضيح المصالح الشخصية (المادية والمعنوية)، بدلاً من أسلوب التوبيخ والقذف والإهانة، يمكنهم تبليغ رسالتهم بإحسان وفعالية.

تهذيب السلوك؟ والقوانين:

لننظر إلى شمال المعمورة وجنوبها، وشرقها، وغربها، نشاهد في كل مكان سيوف الأديان مشهورة على النساء والأطفال والشيوخ، ودخان الضحايا الذين أحرقوا باسم آلهة مزعومة يتصاعد من على وجه الأرض. إنه لمشهد مرعب ومرعب لوحشية الإنسان وشراسته. وأي مسيحي يؤمن بأخلاق المسيح، وأي رجل مؤمن فاضل لا يتصدع قلبه لشكوى هؤلاء التعساء، ولا ينهض ليكفكف دموعهم ويرحم ضعفهم؛ وأي عاقل لا يفكر في تدعيم الاستقامة والخير والفضيلة ليس على أساس التعاليم العقائدية فحسب، بل وعلى أساس مبادئ يصعب على الإنسان العبث بها، مثل: المصلحة الشخصية.

... وجدير بنا أن نتساءل: هل كانت عقائد الوثنيين أقل صلاحية وفعالية من عقيدتنا في مجال تكوين الإنسان الخير الفاضل العادل الصادق المستقيم..؟ وهل كان قدماء اليونان والرومان أسوأ منا أخلاقاً؟ ومن ينكر أن القوانين الوضعية، ورجال الدرك، وقوات الأمن، استطاعوا أن يقضوا على المجرمين بفعالية تفوق ما فعلته المواعظ العقائدية؟ وأن الرجل الإيطالي، وهو أشد ورعاً من نظيره الفرنسي، يلجأ إلى استعمال الخنجر والسم أكثر منه؟ وأنه في الزمن الذي ينتشر فيه الورع والتقوى، وتحسر فيه قوات الأمن، تزداد فيه حوادث الإجرام أكثر من العهود التي ينحسر فيها الورع وتنشط قوات الأمن؟

وهذا يعني أن القوانين الفعالة هي التي تدعم قوى الخير، وتخلق الأجيال الصالحة والمواطن المستقيم. فمهمة المشرع هي أن يحمل

ملخصات من الأدب الفرنسي

الناس على الخير والأخلاق الفاضلة، وأن يجعلهم يفعلون ذلك محبة لأنفسهم وخدمة لمصالحهم. ذلك أن الإنسان أناني بطبعه، والمصالح الشخصية هي التي تجمعهم أو تفرقهم. إن الأحاسيس الجسدية الغريزية هي التي تجعلنا نسعى وراء الملذات ونفر من الألم. واللذة والألم خلقا في الإنسان حب الذات؛ ومن هنا نشأت مشاعرنا، وانبعثت منها جميع محاسننا ومساوئنا.

أكتفي هنا بأن أذكر المواطن الغيور الذي يرغب في تكوين مواطنين مستتيرين متمسكين بالأخلاق الفاضلة بأهمية وضع قوانين تهذب المشاعر السلبية وتوجهها لخدمة الصالح العام؛ وبأن مشكلة برمجة ثقافة مثالية تتلخص أولاً في أن تحدد كل دولة من الدول التي يرمينا فيها القدر، نوع المواد والأفكار التي نود أن نثقف بها ذاكرة الشباب؛ وثانياً بأن تحدد الوسائل والأساليب المؤكدة التي تحبب إليهم مشاعر الحب والاحترام، وتثير في نفوسهم الحماس الذي يدفعهم نحو الإنجازات الكبرى، نحو الطموح إلى مجتمع أفضل.

نظام الطبيعة⁽¹⁾



كلما حاول بعض المفكرين أن يوفقوا بين المسائل المتعلقة بالروح وبين العمليات المادية، لجأوا إلى فرضيات حاذقة ولكن غير مقنعة. وإن الفكر البشري ليتيه عندما يهمل ما يتعلمه من حواسه بفطرته، ويسلم قيادة فكره إلى التأملات والنظريات اللاهوتية الحماسية.

إذا أردنا أن نحصل على فكرة واضحة للروح فلنخضعها للتجربة، ولنترك التعصب والأحكام المسبقة جانباً، ولنبتعد عن التخمينات والمضاربات اللاهوتية، ولنمزق الحجب المقدسة التي لا هدف لها سوى أن تغمض أبصارنا وتبلبل أفكارنا وعقولنا.

لنجمع الأطباء، كل في مجال اختصاصه، ليستنتقوا تجاربهم، ليقولوا لنا ماذا ينبغي أن نعرف عن حقيقة «الروح». وليوظفوا اكتشافاتهم ليشرحوا لرجال الدين والوعاظ الأسباب والدوافع الحقيقية التي تؤثر على سلوك الإنسان؛ وليبيّنوا للمشرعين ما هي العوامل والحوافز التي ينبغي أن يستخدموها ليشجعوا الناس على العمل الصالح من أجل خدمة المجتمع؛ وليشرحوا لذوي السلطة الوسائل والامكانيات التي تساعد على تحسين ظروف معيشة الشعوب التي تخضع لنفوذهم.

يجب أن نعمل أولاً على تحسين الجوانب المادية من حياة

(1) العنوان: Le Systeme De la Nature .

المؤلف: Paul Henry, baron d'Holbach (1723 - 1789) .

الإنسان، وأن نجعل معيشته مريحة ممتعة، عندئذ تتحسن معنوياته، ويسود حياته الرضا والإطمئنان، فيقبل أن يسير دون إكراه على درب الأخلاق الفاضلة. ومعنى هذا أن الوسائل العلاجية الناجحة تبدأ بتحسين ظروف المواطنين المادية، عندئذ فقط يهتمون بالمبادئ والنظريات التي نرغب في إدخالها على عقولهم وأرواحهم. إن النفوس تظل شريرة ما دامت الأجسام ترزح تحت أعباء البؤس والشقاء. والعقل السليم في الجسم السليم، كما قيل.

وكلما تعمقنا في التفكير ازداد اقتناعنا بأنه لا يمكن تمييز الروح عن الجسد، لأنها هي الجسد نفسه الذي خلق كوحدة متكاملة ليؤدي وظائف متنوعة محددة، وليفيد ويستفيد ويتمتع بنعمة الحياة. فالروح هي القدرات والطاقات الكامنة في الإنسان، وتتمثل في التفكير والإحساس والتأمل والعمل...، وهي طاقات نابغة من الطبيعة، وتتأثر بما يتعرض له الإنسان من تغيرات بيئية، وبما يطرأ على الإنسان من تطورات نتيجة تفاعله مع الآخرين.

إن الذين يحاولون فصل الروح عن الجسد لم يزدوا عن كونهم يريدون فصل الدماغ عن الجسد. إذ أن هذا العضو المركزي هو مصدر جميع النشاطات التي ننسبها للروح. ذلك لأن المؤثرات التي تنطبع على الجهاز العصبي، عن طريق الحواس، تؤثر على الدماغ الذي يتفاعل معها، ويحلل ما تقدمه من معلومات، ويستجيب لها بما يناسب المقام، ويرسل أوامره إلى مختلف أجهزة الجسم... وتكون النتيجة مجموعة ردود الأفعال الحيوية بما يصاحبها من مشاعر وحركات وخواطر وطاقات.. وجميع ما يلزم حياة الإنسان من نشاطات بدنية ومواهب فكرية.

من نتائج الحضارة المتطورة⁽¹⁾

حياة المبادئ وحياة الوقائع اليومية



حياتي كلها شبكة من المتناقضات بين المبادئ ووقائع الحياة اليومية. لا أحب الأمراء، ولكن أجد نفسي مرتبطاً بأميرة وأمير؛ أوؤمن بالمبادئ الجمهورية، ولكن كثير من أصدقائي يحملون أوسمة ملكية؛ أتجنب المراكز والتشريفات، ولكني أراها تنقاد في اتجاهي؛ الأدب هو تسليتي الوحيدة، غير أنني لا أخالط أهل الفكر والأدب؛ أوؤمن بأن بعض الأوهام ضرورية للإنسان، غير أن فكري خال منها؛ أعتقد أن المشاعر أعمق تأثيراً من العقل، ولكني لا أعرف ما هي المشاعر....

المقولة 335

إن الرجل الأمين الشريف هو الرجل المثالي، إذا خلا فكره من الأوهام. فهو لا يعلق أهمية كبيرة على الأشياء، ولهذا فهو بعيد عن

(1) العنوان: Produits de la civilisation perfectionnée

المؤلف: Nicolas de Chamfort (1740 - 1794). ينتقد الكاتب في هذه الفقرات القيم الغربية، وما يختفي وراء المظاهر من جشع ونفاق، وسعي وراء المصالح على حساب المبادئ والفضائل. وقد لقي المؤلف نفسه صعوبات ومناوءات من أجل التمسك بالمبادئ الأخلاقية التي يؤمن بها.

التكلف والتحذلق. إنه متسامح، صحبته مرغوب فيها؛ وهو أكثر مرحاً وطمأنينة من غيره. إنه يعيش في مكان مضيئ، ويسير في طريق مستقيم؛ ويشاهد الحركات الطائشة التي تصدر عن يتلمسون دروبهم عن غير هدى. إنه ينكر وهو يبتسم، المقاييس الخاطئة التي يزن بها الناس الأشياء والحوادث؛ ويحكم بها بعضهم على البعض الآخر.

المقولة 339

هناك حقيقة قاسية، وهي أن كل ما يجري في عالم الناس، خاصة في عالم الطبقات العليا، من معاملات وعلاقات يتم على أسس فنية، وبأساليب محسوبة سلفاً. شاهدت رجالاً، بدت لي حركاتهم وتصرفاتهم بديهية، في بادئ الأمر؛ ولكن سرعان ما ظهر أنها تركيبة مصطنعة بطريقة نبيهة ذكية...

وأقول، بصفة عامة، الويل لمن يكشف عن نقاط ضعفه ومواطن أسراره حتى لأصدق أصدقائه. لقد شاهدت أصدقاء حميمين يجرحون كرامة أصدقائهم ويؤذونهم بعد أن اطلعوا على خفايا أسرارهم. وأرى أن الناس (والحديث عن الطبقة المذكورة) يستعملون أرق وسائل اللباقة، ويلجأون إلى أدق أساليب اللطافة، حتى لا يرتاب الآخرون في سلوكهم، وحتى لا يتهموهم بأنهم ممثلون بارعون، لأن الجميع يعيشون في وسط طبقة يتقن أهلها التمثيل.

المقولة 204

للنساء نزواتهن، وهي تتفاوت بين الافتتان والاشمئزاز، وقد ترتفع علاقاتهن إلى درجة الحب والشغف. والشيء الذي لا يتوقع منهن هي علاقة الارتباط المتين. ومن مكرهن ودهائهن أن يبدأن التسرب إلى قلب الرجل عن طريق حماقاته وانحرافاتهن، وليس عن طريق عقله.

والملاحظ أنه توجد بينهن وبين الرجال علاقات تعاطف لا تتجاوز سطح البشرة؛ وليس فيها إلا قدر قليل من تعاطف النفوس والأرواح والطباع. ومما يوضح هذا نظرتهن إلى رجل تجاوز الأربعين من العمر؛ فحتى عندما تعطيه المرأة شيئاً من التقدير والأولوية، فإن وراء ذلك غاية خادعة ولعبة شريرة، وحسابات هدفها إشباع الأنانية والغرور، وما شذ عن هذه الحالات يؤكد القاعدة.

المقولة 355

حول الحقوق السياسية لسكان السود في المستعمرات⁽¹⁾



... ومن هو الرجل الذي يملك بعض الإحساس بالعدالة، يمكنه أن يقول، بدون ترو، إلى ملايين السكان: إننا نعتزف بأن لكم حقوقاً، وأنكم مواطنون نشطاء، ولكن سنلقي بكم في بؤرة البؤس والإذلال؟ سنضعكم تحت سيطرة أولئك الحكام المتجبرين الذين ساعدناكم على كسر طفيانهم.

ولكن قد يقال بأن الأمر هنا يتعلق بأمور تافهة، ليس لها أهمية بالنسبة لسكان السود؛ فالمسألة تتعلق بالحقوق السياسية فقط، وسنترك لهم المجال ليتمتعوا بالحقوق المدنية.

ولكن ما هي الحقوق المدنية التي نسمح بها لسكان المستعمرات، إذا نزعنا من حياتهم الحقوق السياسية؟ وما قيمة الرجل الذي يحرم من حقوقه كمواطن تحت سيطرة الرجل الأبيض؟ إنه مواطن ليس له الحق في أن يتحاور ويتداول في أيّ حال من الأحوال، ولا يستطيع أن يؤثر، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، في أهم المصالح التي تهتم المجتمع الذي هو جزء منه. إنه إنسان يتحكم فيه الولاة والقضاة ويسيروون

(1) من خطاب لـ Robespierre (1758 - 1794) من أشهر زعماء الثورة الفرنسية.

حياته، وليس له أية وسيلة إدارية أو قانونية يدافع بها عن نفسه وينال بها حقوقه كمواطن. إنه رجل مستعبد، مصيره متروك في أيدي الطبقة المسيطرة تتصرف فيه حسب أهوائها، وتوجهه وفقاً لمصالحها ونزواتها.

أهذه هي القضايا التي لا نوليها إلا أهمية ثانوية متواضعة؟ كيف نفكر على هذا النحو ونحن نعتقد أن الحرية أقدم مكتسبات الإنسان، وأنها الخير الأعظم لدى كل إنسان غير متوحش؟ وهل يحق لنا أن نقول إن الحرية شيء غير ضروري يمكن للشعب الفرنسي أن يستغنى عنه، إذا وفرنا له الخبز والراحة؟! فليفكر على هذا المنوال من شاء. أما أنا فإن الحرية ستظل معبودتي، فلا أرى سعادة ولا ازدهاراً ولا أخلاقيات لدى الإنسان ولا الدول، ما لم تتوفر الحرية أولاً... وإني أناشد عدالتكم أن تعملوا من أجل تحقيق الحرية والعدالة، ومن أجل مراعاة المصالح الوطنية لجميع المواطنين السود الأحرار، في المستعمرات.

رسائل مواطن من جنيف⁽¹⁾



.....

لنفرض أن فرنسا فقدت فجأة خمسين شخصاً من كل فئة من الفئات التالية: أفضل الأطباء؛ خبراء الكيمياء؛ علماء الفيزيولوجيا؛ الرياضيات؛ الشعراء؛ الرسامين؛ النحاتين؛ الموسيقيين؛ المهندسين؛ خبراء تسيير الأجهزة الآلية؛ الصيدليين؛ قواد البحرية؛ الضباط؛ الجراحين؛ رجال الأعمال والمصارف؛ وفقدت 200 من أكبر تجارها؛ و600 من أكبر مزارعيها؛ وعدداً من أرباب الصناعات المعدنية؛ وصناعة الأسلحة؛ ومن أصحاب الحرف والمهن؛ ومن خبراء ومديري المناجم؛ وصناع الأقمشة و القطن والحريز؛ وصناعة الزجاج ومختلف الأواني؛ و50 شخصاً من أرباب البواخر، وملاك الناقلات؛ ومثلهم من أصحاب المطابع؛ ومن الحدادين والبحارين؛ و100 شخص من المتخصصين في كل صناعة، وفي مراكز العلوم والفنون والمهن الأخرى.

وبما أن هؤلاء الفرنسيين هم أفضل المنتجين، وأساس الإنتاج في جميع الفنون والصناعات، وهم زهرة الإقتصاد والمجتمع الفرنسي، فإن فقدهم يجعل البلاد جسداً بلا روح.

(1) مقتطفات من «رسائل مواطن من جنيف» للكاتب C.H. de (1760 - 1825) .saint-Simon

ولنفترض الآن أن فرنسا فقدت، فجأة، السيد أخ الملك، والدوق أورليان، ودوق بوربون، والدوقة كوندي؛ وأنها فقدت كبار ضباط العرش، وعدداً من الوزراء، والمستشارين، والقضاة، والكرادلة، والأساقفة، والولاة.. وفوق ذلك فقدت عشرة آلاف من أغنى الإقطاعيين ممن يعيشون حياة النبلاء. فلا شك أن هذا الحدث المفجع سيحزن الفرنسيين، فليس هيناً عليهم فقدان كل هذا العدد من المواطنين الطيبين. ولكن هذه الخسارة تحزنهم فقط من الناحية العاطفية؛ لأنها لا تسبب أي ضرر سياسي للدولة.

فمن المؤكد أنه يوجد كثير من الفرنسيين قادرين على القيام بدور أخ الملك، وغيره من الأمراء والنبلاء، والدوقات والولاة... إن ازدهار فرنسا لا يتحقق إلا بتقدم العلوم والفنون والمهن والصناعات. ولا شك في أن الأمراء والضباط والولاة والأساقفة وأصحاب العقارات... لا يسعون بطريقة مباشرة إلى تطوير العلوم والفنون. بل ربما عملوا على عرقلة تطورها، لأنهم يرغبون في الإبقاء على ما يحفظون به من امتيازات ورفعة شأن، ويخشون أن يذهب التطور بامتيازاتهم.

وبالإضافة إلى ذلك فهم يكلفون الدولة مبالغ باهظة في كل سنة، تحت عنوان التعويضات، والمنح التقاعدية، والعطايا، والوظائف الصورية، والمناصب التي لا تعود بأية فائدة على الدولة.

ولهذا كان من الأهمية بمكان أن تسلم مسؤولية تطوير الصناعات، وازدهار الزراعة والإنتاج والتجارة للخبراء في الصناعة، والزراعة، والتجارة، والمهن الأخرى.

نظرية الحركات الأربعة⁽¹⁾



إنه لمن العيب، أيها الفلاسفة أن تكدسوا المكتبات للبحث عن السعادة، ما دمننا لم ننقذ الناس من المساوئ الاجتماعية، أعني من مساوئ التفكك والتنافر الذي تحدثه حضارة الصناعات، وهو أمر مناقض للإرادة الإلهية. إنكم تشتكون من أن الطبيعة ترفض أن تكشف لكم عن قوانينها؛ وكان أولى لكم أن تعترفوا بعدم صلاحية مناهجكم، وتبحثوا عن أساليب أخرى.

فهل الطبيعة لا تحب الخير للناس؟ أم أنها تشذب أساليب بحثكم التي عجزت عن كشف أسرارها. ألا تلاحظون أن الطبيعة التي تنفر من مساعدكم، ترحب بجهود الفيزيائيين؟ ذلك لأنهم يدرسون قوانينها، في حين أنكم، أيها الفلاسفة، تملون عليها قوانينكم. إنكم تدرسون الفن الذي يخنق صوت الطبيعة، ويخنق القوى التي تعبر بها عن

(1) العنوان: Discours préliminaire.

المؤلف: Charles Fourier (1772 - 1837).

ملاحظة: يهتم فورييه في نظامه الاجتماعي الخيالي (اليوطوبيا) بقوانين الحركة الاجتماعية (نظرية الحركات الأربعة)؛ ونظرية الوحدة العالمية؛ ويرى أن الإنسان يتألف بطبعه مع نوع خاص من الناس، وينجذب نحو صنف معين من العمل؛ ويقول بنبذ الحضارة الحالية لأنها تدعو إلى كبت المشاعر الإنسانية...؛ كما ينبغي القضاء على تناقض المصالح بين الناس، ليحل محلها نظام يحقق التآلف والانسجام بينهم. فإذا عاش الناس في أحضان مجتمعات منظمة على أساس هذه المبادئ، فإنهم يستمتعون بالرفاهية والسعادة.

نفسها، لأن الطبيعة في جميع حركاتها تهدف إلى خلق الأجناس المتطورة.

ما أشد التناقض بين ما تتورطون فيه من أخطاء، وما تحققه العلوم الدقيقة من معجزات. إننا سنعيش مشهداً لا يحدث إلا مرة واحدة: ألا وهو الانتقال من طور التفكك الاجتماعي، إلى مرحلة التنظيم الاجتماعي. ولا شك أن توقع هذا الحادث يواسي الأجيال الحاضرة عن همومها. وخلال هذا التحول المنتظر، كل سنة تعادل قرناً من وجود الإنسان، وتحقق مجموعة من الحوادث المفاجئة ينبغي إعداد العدة لاستقبالها...

ويكفي، في الوقت الحاضر، التلميح إلى النتائج العامة مثل تصنيع المناطق المتأخرة اقتصادياً، وتحرير النساء والرقيق، وإنشاء وحدات للغة، والمقاييس، والطباعة، وللعلاقات الاجتماعية الأخرى على مستوى جميع بقاع المعمورة.

أما ما يتعلق بخصوصيات هذا النظام الاجتماعي (الحركة الاجتماعية) وما يحقق لنا من متع الحياة، فينبغي أن نتوخى بعض التحفظ في إعلانها إلى الفئات المتمدنة. لقد أرهقتهم المشاكل والآراء الفلسفية، فظنوا أن الله حكم عليهم بأن يعيشوا في إطار سعادة متواضعة محدودة؛ وقد لا يستطيعون أن ينسجموا مع ما ينزل في رحابهم من رفاهية مفاجئة؛ وربما تثور مشاعرهم إذا عرضنا عليهم، دون تحفظ، الملذات والمباهج التي سيتمتعون بها في المستقبل القريب.

ملخصات من الأدب الفرنسي —————

والواقع أنه يكفي عامان من الوقت لتنظيم إقليم اجتماعي؛ ولا يتطلب الأمر أكثر من ست سنوات لتنظيم الأوضاع الاجتماعية فوق المعمورة كلها.

وتجدر الإشارة إلى أن الإنجازات العلمية، في إطار الحضارة السائدة، أضرت برفاهية البشر أكثر مما أسعدتهم. فقد زادت وسائل التمتع بالحياة لدى فئات محدودة، غير أنها تركت الأغلبية العظمى من سكان الأرض محرومين من الضروريات. والواقع أن العلوم وفرت مزيداً من المواد الكمالية لفائدة طبقة الماكزين والمخادعين، لأنهم يحرزون على ثروات لا ينالها السكان المجدون الصادقون. ولا ريب في أن هذا الوضع الشاذ من نتائج هذه الحضارة المفجعة.

حول الحب⁽¹⁾



يقول ستاندال، في حديثه عن الحب والمحبين، إن ما يحدث في النفس عند ميلاد الحب هو كالآتي:

1 - الإعجاب.

2 - يقول الفتى (أو الفتاة) في نفسه: ما أحلى أن أقبلها أو تقبلني...

3 - يولد الأمل.

يبدأ الرجل بالتفكير في جوانب جمال المرأة ومواطن فتنتها وكمالها. وفي هذه المرحلة تحاول المرأة أن تبدو في أجمل مظهر جسدي يمتع المحب. وقد تحمر العينان في فترة الأمل والرجاء، أو تدمع لمطلع شمس الحب. وتظهر على ملامح المحبين وتصرفاتهم علامات لا تخفى.

4 - يولد الحب، يشعر المحب بالمتعة عندما يتحدث إلى المحبوب، أو يلمسه، وتشمل المتعة جميع حواسه، ويحاول أن يكون أقرب ما يمكن إلى المحبوب.

يغدق عليه ألف صفة من صفات الكمال، ينظر إليه بعين معجبة ونفس راضية، ويتخيل ما سيحظى به من متعة وسعادة. ويتخمر

(1) العنوان: De l'Amour

المؤلف: Henri Beyle Stendhal (1783 - 1842)

الموضوع، ويزداد الشغف، فتبلور مخيلته صوراً ممتعة مبهجة متكاملة عن المحبوب. ويسمى المؤلف هذه المرحلة مرحلة «التبلور» الأولى، أي تركيز الاهتمام على شخص المحبوب. وتأتي هذه المرحلة تحت رقم (5) في مقال المؤلف.

يقول ستاندال ما مفاده:

إن عملية «التبلور» هذه تدفع إليها الغريزة التي تحث المرء على الاتجاه نحو اللذة... واللذة ترسل مزيداً من الدم إلى الدماغ، فيتعمق الانتعاش، وتشتد الملذات بقدر ما يزداد شعور المحب برقعة المحبوب وحنانه وكمال صفاته...

غير أن الاهتمام لا يمكن أن يستمر على وتيرة واحدة، بل قد يخف ويتضاءل بمرور الزمن، لأن النفس تمل ما هو رتيب، حتى ولو كانت بين أحضان السعادة. وبذلك تنشأ المرحلة التالية.

6 - مرحلة الشك: يستفيق العاشق تدريجياً من «سكرته»، فيحاول من جديد تعميق شعوره بالسعادة. وقد يجد نفسه في حاجة إلى مزيد من التأكيدات ليقنع نفسه بأنه سائر في طريق الصواب. وربما تستفيق المرأة كذلك من سكرة الحب، فتعود إلى أحضان الاحتشام، إما لأنها ندمت على إهمالها... أو للحذر من العواقب، أو لمجرد دواعي الفنج والدلال.

7 - مرحلة التبلور الثانية:

يقول المحب لنفسه: إنها تحبني! ويعود إلى عملية التركيز على

شخص المحبوب، فيجدد البحث عن مواطن الإعجاب، ويؤكد لنفسه «إنها المرأة الوحيدة التي تسعدني وتمنحني من المتعة ما لا أجده عند غيرها». وقد تتناوبه بعض الشكوك فيكرر: ولكن هل تحبني حقاً؟
وبيتية بين أفكار ثلاثة:

- إنها تملك جميع صفات الكمال.

- إنها تحبني.

- ماذا أفعل لأنال منها أوثق دلائل الحب؟

الثورات⁽¹⁾



- انهضوا! فإن البشرية لا تعيش على فكرة واحدة!
إنها تطفئ كل مساء الفكرة التي قادتها بالأمس؛
وتوقد أفكاراً جديدة في مشعل الحياة الخالد.

.....

- الأجيال تنقرض، تدفن بأثوابها، وتجر وراءها
رموز العهود الغابرة.
الآلهة تتحرك، العادات تتجدد، وكذلك سيوف
الطغاة، وتعاويز القساوسة، والأثواب الرثة
التي التصقت بها تلك العقائد والقوانين البالية.
- ليست البشرية عجولاً تحرث الأرض، وعندما
تتعب تستريح لتجتر غذاءها.
بل هي أشبه بالعقاب الذي يجدد ريشه وشبابه،

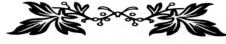
(1) العنوان: Les Revolutions (قصيدة)

المؤلف: لامرتين (1790 - 1869).

ويصعد فوق السحاب، ليتأمل نور الشمس.
- أيها الشباب، لاتفشلوا لحادث جديد يهز النفوس،
امبراطورية تتصدع، عهد ينقضي، وعهد يولد.
لا تأبهاوا للأنقاض، أنقاض الحادثات، على جانبي الطريق.
لا تتركوا أمواج الحوادث تلعب بآمالكم،
فالأمواج تجرّ وراءها من كان إيمانهم ضعيفاً.
وماذا يهمكم الضجيج والرياح والغبار والانحلال...
ما دامت العناية الإلهية ترعى القوانين الخالدة.

ستيلاو⁽¹⁾

(استشارات الطبيب نوار)



- الفصل بين حياة الشاعر والحياة السياسية.

ولتحقيق ذلك ينبغي:

1 - أتركوا ما لقيصر لقيصر، أي حقه في الوجود، في كل ساعة وكل يوم، سواء كان يواجه التشنيع والمخادعة في الشارع أو في القصر، يحارب خفية، أو توضع الألغام في طريقه، أو يغلب ويطرد بالقوة.

إن محاربة السلطان، أو مدحه، بقوة الفن يعني تشويه أعماله، وجعلها هشة مؤقتة في خضم الحوادث اليومية. اتركوا للقيصرة رحاب الساحة السياسية، دعوهم يضطلعون بمهامهم ما داموا لا يفسدون عملكم في النهار، ولا يزعجون نومكم في الليل. أشفقوا عليهم إذا أفسدتهم السلطة، فتلك سنة قديمة. انظروا إلى الأنوار تتطفئ حولكم ليلاً، واسهروا! ستكونون سعداء إذا ساعدتكم سهراتكم على إنتاج ما يجمع الناس حول نور سماوي جديد.

(1) العنوان: (Les Consultations du docteur Noir). Stello.

المؤلف: Alfred de Vigny (1797 - 1863).

رواية يتحدث فيها المؤلف عن الشاعر وأصحاب السلطة. ويدور الحوار بين الشاعر الشاب ستيلاو، الذي يرغب في احتراف العمل السياسي، والطبيب نوار الذي يحاول أن يصدّه عن هذه المهنة.

2 - استكملوا مهامكم في رحاب العزلة والحرية.

- الزموا ظروف حياتكم الخاصة، وتجنبوا تأثير الجمعيات (الأحزاب) مهما بدت مبادؤها سليمة نظيفة. العزلة هي منبع الإلهام والوحي.

- في جميع الهيئات والمنظمات عيوب أشبه بعيوب مدارس الراهبات. فهي تسعى إلى تصنيف المواهب وتوجيهها، وبصورة تدريجية تخلق سلطة استبدادية تخنق المواهب والحرريات الفردية، وتعرقل العبقريات، وتسودها الغيرة.

- في الجمعيات والهيئات التعليمية والرابطات وما شابهها، يسعى ذوو المواهب المتوسطة من أهل المكائد والدسائس إلى السيطرة تدريجياً على مقاليد الأمور، وكثيراً ما يبلغون مرادهم بفضل نشاطهم المادي وفضاظة طباعهم. ولا شك في أن أصحاب العقول الناضجة والأفكار السامية لا ينزلون إلى هذا المستوى. أما جمهورية الأدب والأدباء فيمكن أن تتألف من مواطنين أحرار حقاً، إذا عملوا وأنتجوا في ظلال العزلة والحياد.

3 - تجنبوا الأحلام المرصية التي تذبذب الفكر، واعتمدوا على قوة إرادتكم لتتجنبوا المؤسسات التي تغريكم بجعل حياتكم مريحة منعمة. والشخص الذي يفقد همته وشجاعته تغلب عليه الرغبة في الانخراط في المصالح العامة لأنها تسهل له صعود سلم مطامحه. وبهذا يبتعد عن دوره كفنان، ويفقد حياد المفكر المنعزل الحيادي.

ملخصات من الأدب الفرنسي

لقد قيل «إن اللعنة تحوم حول حياة الشاعر أثناء حياته، وإن البركة والعناية تغمره بعد وفاته. إنه رسول الحقيقة، لذلك يسبب بعض القلق لأصحاب السلطة. وهو يترك وراءه أعمالاً تمثل سجلاً يحكم به الناس على المنجزات الاجتماعية، وعلى الذين أنجزوها. فلا تحيدوا عن السبيل القويم الذي تمليه رسالتكم. إن ملكوتكم ليس في هذا العالم، بل هو في عالم الغد، عندما تغمضون عيونكم.

الجلد السحري⁽¹⁾



... قبل دخولك إلى هذا الدكان، قررت أن تتحرر، وفجأة خطر ببالك شيء خفيُّ ألهاك عن تنفيذ انتحارك. أيها الفتى! لعل كل يوم من حياتك يأتيك بلغز أعجب مما حدث لك. لقد كنت مثلك أعيش حياة البؤس والشقاء، أتسول لأحصل على خبز يومي. أما الآن وقد بلغت مائة واثنين من العمر، فقد أصبحت غنياً بعد الفقر، ونلت حظي من المعرفة بعد الجهل.

سأكشف لك، في عبارات موجزة، سرّاً من أسرار حياة الإنسان. إن المرء ينهك قواه في ممارسة عملين، مدفوعاً بغريزته، وهذان العنصران يؤديان إلى استنزاف منابع حياته. وهناك عبارتان تعبران عن جميع الأساليب التي تكمن فيها أسباب فنائه: الرغبة والمقدرة.

(1) عنوان هذه الرواية: La Peau de chagrin لمؤلفها Honore de Balzac. وهي رواية اجتماعية خيالية، هذا مشهد منها. ويحدثنا المؤلف عن فتى خسر ماله وضاعت به الدنيا، فقرر الانتحار، بأن يرمي نفسه في نهر السين (باريس). ودخل في المساء صدفة إلى دكان يبيع الآثار القديمة، فظهر له صاحبه في هيئة شيخ غريب الأطوار، وقدم له «جلداً سحرياً» من خصائصه أنه يحقق لمن يرتديه جميع ما يرغب فيه، ولكن كلما حقق له رغبة يضيق على جسده قليلاً. وكأن هذا الجلد السحري يرمز إلى أسلوب الحياة الذي يختاره الرجل الطموح الجشع الذي لا تنتهي رغباته ومطالبه، وكلما نال مزيداً من متع الحياة وملذاتها ضيقت عليه الحياة الخناق (أي ضاق الجلد السحري على جسده). ويشذب الأديب بلزاق في هذه الرواية أسلوب حياة الطموحات غير المتوازنة والأنانية الفردية الفوضوية.

ملخصات من الأدب الفرنسي

وبين هاتين القوتين، هناك صيغة ثالثة يلجأ إليها القلة من الحكماء، ويعود إليها الفضل فيما أنعم به من سعادة وطول العمر.

إن الرغبات تحرقنا، والمقدرة (القوة) تحطمنا. ولكن المعرفة (وهي أسلوب الحكماء) تساعد كياننا على العيش في هدوء واطمئنان. ويمكنني القول بأن فكري قتل ما كان في نفسي من رغبات. وباختصار، فأنا لم أسلم حياتي إلى القلب الذي يتقلب ويتحطم، ولا إلى الحواس التي تضعف وتكل، بل وضعتها في الدماغ الذي يصمد أمام كل التقلبات، فلم يدنس الإفراط جسدي ولا روحي.

تسلقتُ أعلى الجبال في آسيا وأمريكا، وتعلمتُ كثيراً من لغات البشر، عشت في ظل جميع الأنظمة، نمتُ في خيمة رجل عربي ثقة بعهد، وقعت على عقود في عواصم أوروبية، وضعت ثروتي لدى الهنود الأمريكيين، وفي خاتمة المطاف نلتُ كل شيء، لأنني زهدت في كل شيء. لقد كان طموحي الوحيد هو أن أشاهد كل شيء. أليست المشاهدة منبع المعرفة؟ أليست المشاهدة هي المتعة بالحدس والبداهة؟

تصور، أيها الفتى، كم تكون حياة المرء جميلة إذا استطاع أن يطبع جميع الحقائق والمشاهد في فكره، وهو بذلك ينقل منابع السعادة إلى روحه، ويستخلص منها ألف بهجة ولذة مثالية مطهرة من دنس الأرض. إن الفكر هو مفتاح الكنوز، بل إنه يوفر للبخيل كثيراً مما يسره دون أن يعرضه للخوف والقلق.

هكذا كانت مسراتي، وأنا أحلق فوق العالم، متعاً فكرياً، وكانت

مغرياتي هي أن أتأمل البحار، والشعوب، والغابات، والجبال... لقد زرتُ كثيراً من الأماكن القريبة والنائية، في هدوء وبدون مشقة. انتظرت كل شيء، ولم أَلح على شيء؛ تجولت حول العالم، وفي الكون، مثلما أتجول في حديقة منزلي. وما يسميه الناس الكآبة والحب والطموح والفشل والحزن.. هي بالنسبة لي مجرد أفكار أحولها إلى أحلام. وبدلاً من أن أحس بها، فإنني أعبر عنها وأترجمها؛ وبدلاً من أن أتركها تلتهم حياتي، فإنني أمسرحها (أفرغها في قالب مسرحي)، وأتسلى بها كما لو كنت أقرأ رواية.

لم أرهق أعضاء بدني أبداً، وأنا الآن، كما ترى، أتمتع بصحة جيدة. وبما أن دماغي ورث جميع الطاقات التي لم أُبذرها، فهو الآن مؤثث بأفضل مما يوجد في المخازن. وأشار الشيخ إلى رأسه وقال: هنا توجد الملايين الحقيقية. إنني أقضي أوقاتاً ممتعة وأنا ألقى نظرة ذكية على الماضي: أستذكر المشاهد التاريخية، والبلدان بتفاصيلها، والبحار والمحيطات، والصور الملهمة الجميلة، لديّ سراي أملك فيه جميع النساء اللواتي لم أنلهنّ. وكثيراً ما أتأمل ثوراتكم وحروبكم ومنازعاتكم، وأصدر حكمي عليها.

فكيف تفضلون الكوارث التي تتجم عن الرغبات الخادعة على القدرة الخارقة الرائعة التي تصور لكم العالم داخل أنفسكم؟! وكيف تفضلون تلك الرغبات على متعة الانتقال والترحال من غير أن يقيّدكم شباك المكان والزمان؟! وعلى متعة الإلمام بكل شيء، ومشاهدة كل شيء، والوقوف على حافة عالم لمحادثة عوالم أخرى، بل والاستماع إلى الإله الأعلى؟!!

ملخصات من الأدب الفرنسي

قال الشيخ هذه العبارات بصوت قوي مؤثر، وهو يعرض الجلد السحري. وأضاف: فيه سرّ القوة والإرادة والرغبات، فيه أفكاركم الاجتماعية، ورغباتكم الجامحة؛ فيه سرّ إفراطكم وجشعكم، وملذاتكم وطموحاتكم القاتلة، وفيه آلامكم التي تساعد على الحياة، لأن الألم قد يكون عنواناً للذة عارمة. ومن يستطيع أن يحدد الدرجة التي تتحول فيها اللذة إلى ألم، والدرجة التي يصبح فيها الألم لذة.. ألا ترى، أيها الفتى، أن مدلول الحكمة مرتبط بمعنى المعرفة. وماذا يعني الجنون إن لم يقصد به التطرف في الرغبات، والمغالاة في استغلال القدرة لطلب المزيد⁽¹⁾.

(1) ولد بلزك سنة 1799، وتوفي عام 1850.

أسطورة العصور⁽¹⁾

الضمير



جمع قابيل أهله، وحملوا ما استطاعوا من متاع، واستعدوا للرحيل. ولكن مما يفر قابيل، وإلى أين؟ إنه يفرّ من الإله «يهوه»⁽²⁾. أسرعوا في السير حتى أقبل الليل، فوصلوا إلى سفح جبل. كان التعب قد نال من زوجه وأولاده، فقالوا لنستريح ونم في هذا المكان.

بقي قابيل قلقاً مهموماً، ورفع عينيه نحو السماء فشاهد وسط الغيوم «عيناً» تحديق في وجهه وسط الظلام. توجس خيفة، وارتجف بدنه، فأيقظ زوجه وأولاده، ليواصل الهروب المشؤوم عبر الفضاء الواسع. واصلوا سيرهم ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة. وكان قابيل لا يلوي على شيء، وجهه مصفر ولسانه صامت، وفكره حائر. وبلغ وأهله منطقة رملية على ساحل بحر بعيد. فقال لأهله لنتوقف هنا ونستريح، لقد بلغنا مكاناً آمناً.

وما إن استلقى لينال قسطاً من الراحة حتى شاهد في عمق الأفق تلك العين تحديق في وجهه وتراقبه. ارتجف بدنه خوفاً، وقال لأحد أولاده، وكان ممن يحملون الخيام ويسوقون الأنعام ويجوبون

(1) العنوان : - La Légende des siecles - La Conscience -

المؤلف : Victor Hugo (1802 - 1885).

(2) يهوه Jehovah : الرب، الله.

ملخصات من الأدب الفرنسي —————

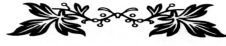
الصحاري: أنشر في هذا الجانب جناح خيمة كبيرة وثبته جيّداً....
غير أن ذلك النسيج المرتفع من الوبر لم يحجب تلك العين العنيدة التي
ظلت تلاحقه.

قال أحد أولاد قابيل، وكان ماهراً في فن البناء، سأبني لك
حاجزاً يحجب عنك ما تشاهد من الأذى. فشيّد جداراً ضخماً من
البرونز، واختفى قابيل وراءه. غير أنه ما كاد يرفع رأسه حتى صاح في
أهله مستغيثاً: أحجبوا عني تلك العين العنيدة، إنها تقلقني وتخيفني.

قال شخص آخر من ذوي الخبرة والقوة: لنبن مدينة تحيط بها
الأبراج. وبعد جهود جبارة شيّدت مدينة ضخمة بكتل من الصخور
والحديد، فكانت أبراجها مثل الجبال تنشر الظل على المناطق
المجاورة. ثم وضعوا قابيل داخل قلعة محصنة في وسط المدينة،
وسألوه: أما زلت تشاهد تلك العين المخيفة الآن؟ فأجاب: إنها أمامي،
تراقبني وتحقق في وجهي. ولا حيلة لي الآن سوى أن أسكن تحت
الأرض، فلا يصل إلي أحد.

حفروا خندقاً عميقاً تحت الأرض، ونزل قابيل منفرداً إلى
الحفرة العميقة المظلمة، فجلس على فراش، وأغلق عليه الخندق.
ولدهشته وجد تلك العين (الضمير) داخل «القبر» تحديقاً في وجهه
وتقضى مضجعه وتقلق نفسه.

تشجيع الإنتاج الأدبي⁽¹⁾



سادتي،

إن تشجيع الإنتاج الأدبي أمر مهم ومفيد ومشرف، مهما اختلفت مصادر هذا التشجيع. وإذا صدرت هذه المبادرة عن الدولة فإنه يدعى «رعاية»، وهي رعاية مباركة تحفز على تنظيم لقاءات سعيدة تحت أضواء ساطعة.

وعندما تتبنى الأكاديميات رعاية الإنتاج الأدبي، تتخذ طابعاً هادئاً طيباً ومزخرفاً، ربما يؤدي إلى خجل العبقريات في بعض الأحيان، لما يحيط بهذه الرعاية من قيود ومشارطات.. نظراً للأعراف والمبادئ السائدة في هذه الأكاديميات.

ويوجد نوع آخر من الرعاية والتشجيع الأدبي أكثر نبلاً وألطف استقبالاً، لأنه يستلهم روح الزمالة، وينشد تعاون الجميع دون تمييز. إنها الرعاية النبيلة التي يتبرع فيها أحد أعضاء جمعية الأدباء بالجوائز لتنظيم مسابقة أدبية.

إن ظروف الأديب، مثل غيرها من ظروف الحياة، قد تغيرت؛ وقد

(1) من تقرير أعده sainte - Beuve (1804 - 1869) باسم لجنة التحكيم بشأن الهدايا التي اقترحتها جمعية الأدباء. وقد قرئ هذا التقرير أثناء الجلسة العامة التي عقدتها اللجنة بتاريخ 17 أبريل 1856. (هذا ملخص).

ملخصات من الأدب الفرنسي

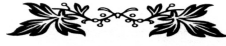
يستمر هذا التغيير ويتسع. وهي ظروف تخضع لقوانين المنافسة، والمساواة. وإنه لسعيد من لا يزال يتعاطى مهنة الأدب ويهتم به، كما كان الأمر في عهد آبائنا وأجدادنا... إن الأدب هو ريحانة الروح وعبيرها. ولكنه، أيها السادة، شيء أعمق من ذلك بكثير. إنه الوسيلة القوية النافذة والفعالة، وسيلة التعبير عن الأفكار، وأداة الأديب للإفصاح عن إنتاجه مدى الحياة.

ولكن مهنة الأديب، مثل المحامي والطبيب الذي ينال قوته من قلمه. وهي مهنة تعتمد على جمهور القراء، وعلى عدد الأصدقاء والقراء الذين اكتسبهم الكاتب. إنها مهنة نبيلة مشرفة، ولكنها لا تخلو من عنصر المادة الذي لا يستطيع أن يتجاهله الكاتب في كثير من ظروف الحياة و تقلباتها.

وما دام يوجد إنتاج مادي في المجتمع، فمن العدل ألا تخطئ الثروة فئة المبدعين، وتتركز في أيدي كثير ممن ليسوا جديرين بها. وهنا تبرز قضايا أخلاقية إيجابية تتعلق بظروف حياة الأديب بصفة عامة، وبما يتمتع به من حرية حقيقية.

ولعلّ برنامجكم يتضمن بعض هذه القضايا المعقدة، وستظل مدة طويلة في نطاق المقترحات... ونأمل أن تجد حلولاً بالتدريج، وأن تسيير في اتجاه يكرم ويشرف رجال الأدب في نهاية المطاف؛ ويساعد على تطوير النفوس، وترقية الفكر والعقل.

الجمال والتجميل⁽¹⁾



... من حق المرأة، بل وإنها لتقومُ بعمل محمود، عندما تجتهد وتتزين لتبدو جميلة ساحرة فاتنة، فتخرج في مظهر يفوق الجمال الذي حبتها به الطبيعة. من حقها أن تأتي في مظهر ينعش النفوس، ويسحر العيون؛ ومن حقها أن تبرز مفاتها لتسحر الرجل، وتلهم العاشق، وتتغش المشاعر المريضة.

وفي هذه الاعتبارات يجد الفنان الفيلسوف ما يبرر جميع الممارسات التي تلجأ إليها المرأة، في جميع الأزمان والبلدان، من أجل إبراز جمالها، ورفعها إلى مستوى التمجيد.

وإذا اختصرنا الكلام على ما يدعى في وقتنا «التجميل بالمساحيق» الذي يقتصر على استعمال «مسحوق الأرز» فالهدف هو إخفاء البقع غير المواتية على البشرة، وإعطاء الوجه وما حوله مسحة متمائلة متناسقة اللون، بحيث تجعل مظهر المرأة أقرب إلى التمثال المثالي الساحر.

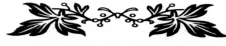
أما اللون الأسود الاصطناعي الذي يوضع حول العين، واللون

(1) هذا الموجز من دراسة خصصها الأديب Charles Baudelaire (1821 - 1867) للرسام C. Guys وعنوان الموضوع Eloge du maquillage، ويشير فيه الكاتب إلى أن عمليات التجميل، وإن كانت خارجة عن الطبيعة، فإنها تساعد المرأة على إبراز جمالها فتصبح ساحرة فاتنة معبودة، ولو إلى حين.

ملخصات من الأدب الفرنسي

الأحمر الذي يزين الجزء الأعلى من الخدين، فمع أن الهدف من هذه الزخرفة هو تعزيز ما وهبته الطبيعة من جمال، فإن اللونين يستعملان لهدف آخر كذلك. فهذان اللونان يمثلان حياة رائعة ساحرة منعشة في العيّنين والخدين. فاللون الأسود يضفي على النظر عمقاً براقاً؛ ويعطي للعين صفة نافذة مفتوحة على اللانهائي. أما اللون الأحمر فإنه يلهب شعلة الخدين، ويزيد في لمعان حدقة العين وصفائها، ويضفي على وجه المرأة الجميلة ذلك الشغف العاطفي الرباني الذي ينبعث من وجه الكاهنة المؤمنة.

خوري القرية⁽¹⁾



كان خوري القرية رجلاً طيباً، يحب سكان القرية ويسهر على رعاية شؤونهم، غير أنهم لم يكونوا يستجيبون بإخلاص لمواعظه. وذات يوم، أثناء عيد الفصح، تغيب معظمهم عن الصلاة. قلق القس مارتان (وهذا اسمه) لهذا الغياب، ودعا الله أن لا يوافيه أجله حتى يصلح قلوب سكان القرية ويعودوا إلى حظيرة الإيمان. فاستجاب الرب لدعائه.

وفي يوم الأحد حضر جمع منهم إلى الكنيسة، فخاطب القس الحضور قائلاً: رأيت في المنام، ليلة أمس، أنني مثلتُ أمام باب الجنة، ففتح القديس بطرس الباب، وسألني ماذا أريد. فأجبت بأنني أودُّ أن أعرف ما إذا كان يوجد لديكم في الجنة بعض سكان قرיתי (كوكونيان).

فتح القديس بطرس السجل وفتش بعناية، فلم يجد أحداً منكم هناك. فأشار عليّ أن أفتش في المطهر⁽²⁾. كان الطريق وعراً، مملوءاً بالأشواك والعراقيل، ولكنني وصلت إلى المكان بعد مشقة. قرعت الباب الضخم، فأدخلوني، وجدت أمامي ملكاً له جناحان رماديتان، وفي يده سجل ضخم.

شرحت سبب زيارتي، ففتش طويلاً، غير أنه لم يجد أحداً منكم

(1) عنوان القصة: Le Curé de Cucugnan

المؤلف: Alphonse Daudet (1840 - 1897)

(2) المطهر: Le purgatoire.

في المطهر. فقال لي المَلَكُ: لم يبق إلا مكان واحد. اذهب في هذا الدرب وستجد في نهايته باباً كبيراً.. ولكن انطلق مسرعاً لتجنب العراقيل والأخطار. وبما أنني كنت ألبس الخف الذي أعطاني إياه القديس بطرس، استطعت أن أتحمّل الحرارة الشديدة تحت قدمي.

وصلت إلى الباب فوجدته مفتوحاً على مصراعيه، وكم كان رعبِي لهول ما شاهدت. كان جسدي يرتعش من الخوف، والعرق يتصبب منه لشدة الحرارة. كانوا يرمون الناس أفواجاً داخل الأفران الملتهبة، وهم يصرخون. وأسرع أحدُ زبانية جهنم إليّ فوكزني بالمدرة وقال لي: ادخل...، فقلت له: لستُ منهم، بل أنا من عباد الله الأتقياء؛ وإنما جئتُ لأبحث عن جماعة من سكان قريتي.

وبينما أنا أحاور ذلك الشيطان، شاهدتكم داخل الجحيم تقضون فترة عقوبتكم بأنني لا أتخلى عنكم، وأن إقامتكم هناك لن تطول. وضعت لكم برنامج عمل، مبتدئاً بالنساء والشيوخ، وحسب ما فعل كل واحد منكم من السيئات. وعدتموني بالطاعة والعمل الصالح، وعشنا بعد ذلك حياة ملؤها الحب والإحسان.

وجاء الأحد التالي، فكان يوماً مشهوداً، كان يهب على قرية (كوكونيان) نسيم الإيمان والتقوى والتعاون والمحبة. وفي الليلة السالفة رأى الرجل الطيب، خوري القرية، في منامه أنه كان يقود موكباً رائعاً من أهل قريته، يسيرون في طريق ممهد تنيره مئات الشموع، وسط سحابة من البخور والعطور الزكية، كانوا جميعاً يصعدون نحو مدينة الله، والأطفال ينشدون صلوات الرحمة والغفران.

الشعور بالعزلة⁽¹⁾



تناولتُ العشاء برفقة صديقي، ثم خرجنا نتجول، فمشينا في شارع شانزليزي. كان السكون يغمر المكان، ونسيم بارد يدغدغ الوجه. قال صديقي: «أشعر أن تنفسي ليلاً ينعش جسدي كله... يتخيل لي أحياناً أننا سنكتشف الأسرار السماوية الكامنة في المخلوقات، وسرعان ما يختفي التخييل».

ومررنا بمقعد كان يجلس عليه مخلوقان، فقال صديقي: أشعر بالشفقة عليهما. إن من أشد المقلقات أن المرء يعاني من الشعور بالعزلة طوال حياته؛ وجميع جهودنا تهدف إلى التخلص من هذه العزلة، وهذا هو ما يسعى إليه هذان المخلوقان، الفرار من الشعور بالوحشة والوحدة.

إنني أعاني ذلك الشعور المؤلم بالعزلة منذ فترة، وحاولت القضاء عليها فعانقت وقبلت وعاشرت.. ولكن دون جدوى. جاء في الإنجيل المقدس «إن السعداء هم أصحاب العقول البسيطة». ذلك لأنهم لا يشعرون بمرارة العزلة، ولا يهيمون على وجه البسيطة مثلي بل ولا يتوهمون أنهم سعداء.

(1) العنوان : Solitude

المؤلف : Guy de Maupassant (1850 - 1893)

أشعر أنني أسير منفرداً في نفق مظلم طويل، لا أرى له نهاية، وهذا النفق هو حياتي. أسمع ضجيجاً وأصواتاً غامضة، وأتابع سيرتي وسط غمار هذه الضوضاء، دون أن ألتقي بشخص، ومن غير أن أجد يداً ممتدة نحوي في هذا النفق المظلم.

يقول الأديب Musset :

«مَنْ هناك؟ مَنْ يناديني؟ لا أحد، إنني وحدي - إنها دقائق الساعة، يا لها من عزلة! يا لتعاستي».

وكتب فلوبيير إلى صديقة هذه الجملة «إننا جميعاً نعيش في صحراء قاحلة، حيث لا يفهم شخص شخصاً آخر». فلا يدرك امرؤ ما يجول في خاطر شخص آخر. إننا نعيش مجتمعين، ولكن هناك مسافات كبيرة تفصل بين الناس، لأن الفكر بحر عميق، ويتعذر كشف خباياه وأسراره.

وكم أشعر بالوحشة والعزلة عندما أبث أسرار قلبي إلى صديق! إنه أمامي، يحدق في وجهي، يستمع إلى كلامي، ولكنني أجهل ما يجول في فكره، وما يخفي في زوايا نفسه. أقول لنفسي: لعله يكرهني، أو يسخر مني! وأني لي أن أعرف شعوره نحوي، لقد حاولت أن أكشف خبايا صدري، ولكنني لا أريد أن أستسلم أو أخضع. بل إنني أحفظ في أعماق نفسي بذلك الجزء الخفي من «الأنا» حيث لا يستطيع أحد أن ينفذ إليه.

فهل تدرك قصدي؟ هل اطلعت على خبايا سريرتي الآن؟ أم ما

زلت تحذرنني وتدرس حالتي؟ وتتساءل: هل أنا معتوه. ولكنك إذا استطعت يوماً أن تدرك مدى معاناتي.. ستقول: لقد أدركت حقيقة آلامك ووحشتك، عندئذ تجعلني أشعر بالسعادة لحظة قصيرة فقط.

إن معاشرة النساء، أكثر من أي شيء آخر، هي التي جعلتني أشعر بالعزلة. فلکم عانيت بمعاشرتهن! المرأة تجعلني أشعر بأنني لست وحيداً معزولاً. وعندما يندمج المرء في أعماق الحب يشعر أنه أصبح طليقاً، هل تعرف لماذا؟ ومن أين يأتي ذلك الإحساس بالسعادة؟ لأننا نتخيل أن عزلتنا قد انتهت.

ولكن المرأة تعاني أشد المعاناة من فقدانها للحب؛ هذا الحب الذي يضني القلوب الوحيدة. ولذلك يكون حبها، في نهاية الأمر، هو أكبر كذبة في ذلك الحلم. إن الساعات الممتعة التي يقضيها الرجل مع هذه المخلوقة اللطيفة، ذات الشعر الطويل، والملامح العذبة، والنظرات الساحرة، ليست سوى أوهام تهيج مشاعرنا... ولكن بعد التمنيات الطيبة وطول الانتظار، أجد نفسي وحيداً، وتتبخر الآمال، ويزداد مجال العزلة عمقاً. وكما قال أحد الشعراء⁽¹⁾:

«ليست ملاطفات الحبيب ومداعباته سوى فورات فرح
حائرة، لحب قلق يقوم بمحاولات مستحيلة لتوحيد
الأرواح عن طريق الأجسام».

وفجأة ينتهي كل شيء. وبعد حين لا يكاد الرجل يتعرف على تلك

(1) Sully Prudhomme.

المرأة التي كانت بالأمس تمثل كل شيء في حياته، والتي ظل يجهل خبايا نفسها ومتاهات أسرارها وأفكارها.

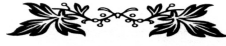
وهكذا، قد تكفي كلمة واحدة، أحياناً، لتكشف خطأنا، ومضة برق تضيء لنا ذلك النفق المظلم الذي يفصل بيننا. ولعل الأجدى من ذلك أن يقضي المرء أمسية برفقة امرأة يحبها، دون أن يكثُر من الكلام، يكفيه سعادة ومتعة وجودها إلى جانبه. أجل يكفيه هذا الشعور، في هذه اللحظة، لأنه من شبه المستحيل أن يتحد مخلوقان.

لقد أغلقت الآن منافذ روعي فلا أفشي أسراري لمخلوق، فلا أبوح بخلجات نفسي، لا بما أحب ولا بما أكره؛ مصيري أن أعيش في عزلة، لا أستطيع أن أشارك أي شخص في أي شيء. لقد فَقدْتُ اهتمامي بكل شيء، فهل تفهمني؟!

كنا أثناء جولتنا قد صعدنا الشارع الطويل وبلغنا قوس النصر، ثم نزلنا حتى ساحة الكونكورد. وقف صديقي؛ وفجأة رفع ذراعه نحو المسلة العالية الراسخة في بلاط باريس. كانت معالمها الفرعونية غير واضحة وسط النجوم المتلألئة، يا له من تمثال تغرب عن مواطنه. ثم صاح صديقي:

«إذا، كلنا نشبه هذا الكوكب في عزلته»، ثم ذهب من غير أن يضيف كلمة. يبدو لي أحياناً أنه على صواب، وأحياناً أخرى أنه فقد صوابه.

النافذة⁽¹⁾



التقى السير دي بريفز بالسيدة الأرملة جادال في باريس. كانت سيدة سمراء، رشيقة القد، لطيفة الخلق، فأعجب بها ورغب في الزواج بها. قالت بأنها تود أن تتعرف عليه عن قرب لأن الزواج كثيراً ما يفشل بسبب انعدام الانسجام والتفاهم وتباين العادات والطبائع.

اقترحت جادال على دي بريفز أن يزورها في منزلها لتعميق التعارف. كانا يقضيان معظم النهار في نشاطات مسلية، وفي الليل ينام كل منهما في غرفته. وحرصت جادال أن تراقب حركات ضيفها، وأن تتعرف على طبيعه وسلوكه وأفكاره.

شعر الضيف أن الخادمة التي تنام في غرفة مجاورة تراقبه عن كثب. فقرر هو الآخر أن يتقرب منها ويغريها لتحديثه عن طبائع سيدتها، ولتوضح له ما خفي عليه من مخابئ جسدها، لأن ملابسها العريضة لا توضح ما يختفي تحتها، كأن تحشو القطن مثلاً في أماكن محددة لتبدو ممتلئة مستديرة... إلخ. ووضع مبلغاً من الفرنكات في يدها، فأجابته بأن جسم سيدتها مماثل تماماً لجسمها في مختلف تفاصيله، وأن الفرق الوحيد هو أن سيدتها سمراء البشرة. وتطورت

(1) العنوان : La Fenêtre

المؤلف : Guy de MAupassant (1850 - 1893).

ملخصات من الأدب الفرنسي —————

علاقة الضيف مع الخادمة فكان يقضي معها من حين لآخر أوقاتاً ممتعة في ساعة الغفلة.

وذات صباح استيقظ دي بريفز مبكراً، فخرج إلى إحدى الشرفات ليشاهد منظر الفجر الجميل؛ وشاهد الخادمة منحنية على نافذة مقابلة، تتمتع هي الأخرى بنسيم الصباح العليل. والواقع أنه لم يشاهد إلا جزءاً من بدنها، لأنها كانت منحنية تنظر إلى اتجاه آخر.

تسلل الضيف بهدوء نحو الخادمة، فلم تشعر به إلا بعد أن انحنى خلفها على ركبتيه وراح يقبل الأجزاء الخافية تحت ثوبها. فجأة نزلت على أنفه ضربة شديدة، تلتها صرخة مدوية... لم تكن الخادمة، بل كانت سيده المنزل هي الواقفة أمام النافذة.

وبعد دقائق حملت إليه الخادمة رسالة من سيدتها تطلب منه أن يغادر المنزل فوراً. فهل كان مشهد النافذة مجرد سوء تقدير من الضيف؟ أم كان من كيد النساء: الخادمة وسيدتها؟

عندما تكتب التوصيات⁽¹⁾،

إحذر العواقب!



جاء الشاب جان ماران إلى باريس، مثل كثير من الشباب، لدراسة القانون، واستقر في الحيّ اللاتيني. كان يتردد على المقاهي حيث يلتقي بأصدقائه، وكثيراً ما يدفع الحساب مكان رفاقه عندما تتوفر لديه النقود. وظل مثابراً حتى حصل على الدبلوم المطلوب.

وذات يوم انتخب أحد أصدقائه إلى مجلس النواب، فرافقه في عمله. وبعد فترة عين صديقه وزيراً، وبعد بضعة شهور أصبح جان ماران مستشاراً لدى الدولة. لم يخف غبطته، بل صار يفتخر بمنصبه، ويتحدث إلى الناس مبدئياً استعداداً لمساعدتهم على حل مشاكلهم.

كان لا يتردد في كل مناسبة في أن يتناول ورقة ويكتب توصية لرفيق أو زميل، قريب أو بعيد، وكانت تدخلته لمساعدة الناس تشعره بالغبطة وترضى غروره.

وبينما كان ذاهباً إلى مكتبه ذات يوم، لقي قسّاً وعرف أنه ذاهب إلى القصر الملكي لقضاء حاجة له، فعرض عليه أن يرافقه وأن يحتمي

(1) العنوان : Le Protecteur

المؤلف : Guy de Maupassant (1850 - 1893).

ملخصات من الأدب الفرنسي

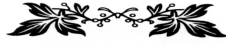
تحت مظلمته من المطر. وصل المستشار إلى مكتبه، وعرض على القس أن يكتب لبعض أصدقائه ليساعده في قضاء حوائجه، فرحب القس بذلك.

عاد المستشار ماران إلى منزله حيث قضى ليلة مريحة. وكم كانت دهشته في الصباح عندما قرأ في الصحف عن مؤامرات تحاك ضد النظام، وعن قس يدعى «سانتور» كان له دور في تلك الأحداث، واتهمته الجرائد بأعمال مريبة، وأشارت إلى أنه وجد داخل النظام موظفًا يكتب التوصيات بالمساعدة.

وركض المستشار إلى زميل له في العمل كان قد كتب إليه يوصيه بمساعدة القس، فوبخه هذا الزميل على كتابة توصيات لمثل هذا القس الشرير. فاعتذر له المستشار ماران محتجًا بأن نيته فعل الخير، وأنه انخدع بمظهر القس.. وقرر أن يكتب إلى وكيل الجمهورية، وإلى رئيس الأساقفة ليشرح حسن نيته ويؤكد براءته من أفعال القس المتآمر، وأنه إنما وقع ضحية لرغبته في فعل الخير.

والتفت ماران إلى زميله وقال له: هذا درس لنا جميعًا، وفيه موعظة لكل من يحرص على مساعدة الناس دون التأكد من سيرتهم.

الطلاق⁽¹⁾



السيد بونترون محام مشهور يتراجع في قضايا الزواج والطلاق.
حضر إلى مكتبه ذات يوم رجل وحدثه بما يلي:

أنا كاتب عدل (موثق)، عمري سبعة وثلاثون سنة، أسكن مدينة
روان، وغير مطمئن في زواجي. وراح يشرح قصته فقال: قرأت ذات
يوم في إحدى الجرائد إعلان زواج تقول فيه امرأة إنها جميلة، مهيبة،
حسنة الخلق، ولديها ثروة محترمة... ، وشاورتُ بعض زملائي في
الأمر، فنصحوني بالاتصال بها، فلعلها فرصة تساعدني على تسوية
مشاكلي المادية.

وبعد تفكير طويل قررت أن أتصل بهذه السيدة باسم أحد
زبائني. وبعد بضعة أيام زارتي امرأة وقدمت نفسها بكونها صاحبة
الإعلان، حضرت بنفسها للتعرف على الشخص الذي راسلها. سألتها
عن أسرتها وثروتها وبقية ظروفها... ثم قررت أن أتخلص من فكرة
«الزبون» الذي اخترعته، خاصة بعد أن أخبرتني بأن ثروتها مليونان
وخمسمائة ألف فرنك، فقلت لها بأن الرجل بئس ومريض، وأنه سافر
إلى الخارج.

(1) العنوان : Le divorce

المؤلف : Guy de Maupassant (1850 - 1893).

ملخصات من الأدب الفرنسي

وقبل مغادرة مكثبي أبلغتني أنها نزلت في أحد فنادق المدينة، وأنها ستمكث بضعة أيام. وعرضت عليها أن أتصل بها لأسئليها فوافقت. وزرتها ذات مساء في غرفتها، فأطلعتني على الوثائق المتعلقة بثروتها. وفي الختام عرضت عليها الزواج، فوافقت.

عشنا في تفاهم ووافق بضعة شهور. ولكنني لاحظت أن الزوجة تغادر المنزل أحياناً دون أن تخبرني، ويطول غيابها أحياناً، ولا تخبرني بالمكان الذي تذهب إليه. ذات يوم تنكرت في زي بائع فحم، وتتبعته خطاها إلى أن دخلت إلى محطة القطار. وصل القطار، خرج المسافرون، وتوجهت الزوجة نحو امرأة (خادمة) كانت تحمل طفلة، فأخذتها منها وضممتها إلى صدرها؛ ثم تقدمت إلى امرأة ثانية فأخذت منها طفلة وعانقتها بحرارة. ثم عاد كل واحد إلى منزله.

وأثناء سهرة العشاء سألت زوجتي عن الطفلتين اللتين قبلتهما في المحطة، فاندهشت وصرخت حتى أغمى عليها. وعندما أفاق، أخبرتني بأن لها بنتين وابنين تلقاهم خلال فترات على انفراد، وأنها تزوجت قبلي أربع مرات.. وأن ثروتها إنما جمعتها من المهر الذي حصلت عليه من أزواجها السابقين.

وفي الختام طلب كاتب العدل (الموثق) من المحامي أن يشير عليه بالحل لمشكلته، فقال له: أنصحك أن تتقبل الوضع الجديد، وترضى بوجود الأطفال مع أمهم.

ثمرات الأرض⁽¹⁾



نتانيال، متى سنرمي جميع الكتب في النار! إنني لا أكتفي بأن
أقرأ أن رمال الشاطئ رطبة الملمس، بل أرغب في أن أمشي عليها
برجلين حافيتين. ليست المعرفة مفيدة، ما لم يسبقها الإحساس العملي.
لم أشاهد شيئاً جميلاً إلا ودفعتني الرغبة إلى لمسه بجميع ما
أملك من رقة وحنان وحماس....

منذ ذلك اليوم، في كل لحظة من حياتي، أتذوق كل جديد
بموهبة حماسية وشغف شديد. أصبحت كأنني أعيش في دهشة
مستديمة، وفي حالة «سكر» وبهجة ونشوة وذهول.

كنت أرغب في تقبيل كل ابتسامة أشاهدها على الشفاه؛ ولثم كل

(1) العنوان : Les Nourritures terrestre

المؤلف: André Gide (1869 - 1951).

هذه فقرات من كتاب «ثمرات الأرض»، ألفه على مراحل وهو في ريعان الشباب
(28 سنة). وقد جاءت أفكاره في هذا الكتاب وكأنه «مريض» يتمثل للشفاء ويعود
إلى الحياة برغبة ولهفة وحماس. فهو يتغنى بالحياة، يكتب لها نشيداً، يرغب في
قطف ثمارها أينما وجدت، وفي إشباع الرغبات الحسية. ويدعو الناس إلى التحرر
من سلاسل التقاليد والعادات البالية؛ ويكرر عبارة «سأعلمك حماس الحياة
وحرارة الوجود، يا نتانيال».

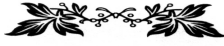
ويرد على منتقديه بأنه إنما يدعو في كتابه هذا إلى نبذ التعليم عن طريق نسخ
التعليم، وإلى التهذيب عن طريق التجرد من المعارف النظرية، وإلى معانقة الحياة
والامتزاج بمباهجها بطريقة عملية.

ملخصات من الأدب الفرنسي

حمرة وردية على الخدود؛ والإعجاب بكل دمعة على الخدود. أجل، كنت أرغب في تذوق كل فاكهة تميل بها الغصون نحوي؛ وأشعر بالجوع أمام كل طعام شهوي؛ وبالعطش أمام كل نبع؛ وتعددت رغباتي وتنوعت: رغبة في السير كلما لاح درب أمامي؛ وفي الراحة كلما دعاني الظل؛ وفي السباحة في كل شاطئ عميق؛ ورغبة في الحب وفي النوم في كل سرير مريح.

وضعت يدي بجرأة على كل الأشياء، وشعرت كأن لي حقوقاً على كل حقل من حقول رغباتي. والواقع، يا نتانيا، أن ما نتمناه ليس أن نملك، بقدر ما هو أن نحب. فليت جميع الأشياء والمخلوقات تكتسي أمامي بألوان قوس قزح، وليت كل جمال يتزين بألوان حبي.

ديبورو⁽¹⁾



- أي بني، أَحَبُّ مهنتك، إنها أجمل مهنة!

إنها تثري حياتك بمتع ومباهج سامية،

وتتسيك متاعبك وهمومك.

إنها لمتعة عميقة عندما تشاهد الجمهور

يضحك مبتهجاً أمامك؛

صدى الحناجر المرححة في القاعة إحساس رائع.

.....

- يرفع الستار، يخيم الهدوء على الجميع،

تدخل فجأة، تقوم بحركة، تلفظ كلمة..

(1) العنوان : Debureau

المؤلف : Sacha Guitry (1885 - 1957).

توضيح: شارل ديبورو ممثل كوميدي اشتهر بإتقان التمثيل الكوميدي المسرحي بالإيماء والإشارات. فاختره المؤلف ليكون عنوان هذه المسرحية التي تعالج مهنة الممثل الكوميدي.

وفي هذا المشهد الأخير، يصف المؤلف ظروف هذا الكوميدي الشهير وقد عجز عن مواصلة مهنته، واختار ابنه ليواصل رسالته المسرحية؛ ويقدم له بعض النصائح في إطار المهنة.

ملخصات من الأدب الفرنسي

فينفجر الجمهور في ضحكات تحطم الهدوء...

وتتطلق المسرحية الهزلية.

.....

- لعل الناس لا يسارعون إلى شكر من يدخل

المرح والبهجة إلى قلوبهم، لا بأس..

فلنترك المجد لمن يبكي الناس ويسيل دموعهم.

- واصل عملك، كن مهرجاً! أطردهم من القلوب!

وإذا نسيك الناس، لا بأس، لا تستعجل!

لعله سيأتي يوم تشعر فيه بسعادة أكبر

من الأمجاد العابرة، أجل ستصبح يوماً مشهوراً

لك شعبية واسعة وسمعة طيبة،

وهذه متعة مضممة بالحب والسعادة.

(المشهد الرابع)

هل أتكلم؟⁽¹⁾



- أود أن أقول كل شيء، ولكن تخونني العبارات،
ينقصني الوقت، وتنقصني الجرأة.
لم تكن حياتي سعيدة، لم أعود على التعبير الصريح.
- أود أن أتحدث عن الرجل، عن الناس،
عما ينعش الحياة، وما يقود إلى اليأس،
وعن كل ما يوضح أعمال الرجل وآماله، وتاريخ حياته.

...

- هل لي الجرأة أن أتحدث عن سعادة طفل،
عن لعبه وأيامه الجميلة؟
هل لي أن أتحدث عن سعادة رجل؟
كما تراها زوجته ويشعر بها أطفاله.

(1) العنوان : Pauvoir tout dire .

للشاعر : Paul Eluard (1895 - 1952).

- هل يسعفني التعبير لأشرح معنى الحب

وأساليبه، ومسراته، وماسيه؟

هل يسعفني الكلام ويساعدني لأقضي على الكراهية

تحت أجنحة الغضب المسيطر؟

- هل أتحدث عن الضحية وقد حطم الجلادين؟

هل يمكنني أن أضع ألواناً زاهية على عبارة «الثورة»؟

- من حقنا أن نبتم. غير أننا لا يمكننا أن نبتم

إلا إذا توفرت الصحة، وساد التآخي،

وإذا أحببنا الآخرين كما نحب أنفسنا...

- إنني أكتب هذه القصيدة اليوم،

لعلني أمحو شيئاً من مساوئ الأمس.

محاولة وصف حفلة عشاء⁽¹⁾



.... إلى من يؤمنون، ومن يظنون أنهم يؤمنون؛
إلى من لهم بطون كبيرة، ومن يخفضون أبصارهم؛
إلى من يباركون الشرور، ومن يعطون المدافع للأطفال،
ويعطون الأطفال للمدافع...
إلى من يطفون فوق الحوادث ولا يغرقون،
ومن تمنعهم أجنحتهم الضخمة من الطيران؛
ومن يضعون قناع الذئب عندما تتقصصهم الخرفان،
إلى من يركضون، ويسرقون، ويزعمون أنهم ينتقمون لنا؛
إلى هؤلاء جميعاً، وكثير غيرهم، ممن يحضرون إلى قصر
الإيليزي (Elysee)، وهم يشعرون بالكبرياء،
ليحضروا حفلة عشاء.

.....

(1) العنوان : محاولة وصف حفلة عشاء هامة في باريس - فرنسا .
للشاعر : Jacques Prévert (1900 - 1977) .

ويقف الرئيس ليتحدث، فيسود صمت عميق،
عميق يجعل الحاضرين يسمعون طنين الذباب،
إن الذباب مهم، لأن الرئيس يتحدث أيضاً،
عن الذباب ودوره في ميدان الاستعمار.

ويقول الرئيس:

لولا الذباب لما وجدت مذبة الذباب؛
ولولا هذه لما وجد داي الجزائر، ...
ولا قنصل الجزائر... ولما حدث ما يدعو إلى
الانتقام «للكرامة»، ولما وجدت المزارع،
ولا الجزائر نفسها.

.....

إن الشمس تشرق لجميع الناس، غير أنها لا تشرق
داخل السجون، ولا لمن يكذبون داخل المناجم...
ولا لمن يربون الأبقار ولا يشربون ألبانها،
ولا لمن يخضعون لعمليات جراحية دون مخدر،
ولا لمن هم عاطلون عن العمل،

ولا لمن يأملون أن يأكلوا لقمة ليعيشوا،

ولا لمن يشيخون قبل الأوان،

ولا لمن ينحني ليلتقط إبرة،

ولا لمن لا يقتلهم الملل يوم الأحد،

لأن الملل يظلهم طيلة أيام الأسبوع.

بيكاسو يتجول⁽¹⁾



رسام ممن يرسمون الواقع كما يشاهدونه،
جلس وأمامه تفاحة جميلة، على صحن من الخزف.
حاول أن يرسم التفاحة كما هي، غير أنها تمردت،
وتكررت في شكل فاكهة أخرى.

عندئذ أدرك أن التفاحة لا ترغب
في أن ترسم في مظهرها الحقيقي.
وبدأت التفاحة تدور، ...

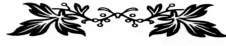
فذكرته بشجرة التفاح، وبالجنة على الأرض،
وبحكاية آدم وحواء، وبالخطيئة الأصلية...
واستولى الذهول تدريجياً على الرسام،
واختفى شبح التفاحة (الموديل) عن عينيه، ونام.

(1) العنوان : Promenade de Picasso .

للشاعر : Jacques Prévère (1900 - 1977) من كتابه : Paroles .

عندئذ مرّ الرسام بيكاسو، وكان من عادته
أن يمر في ذلك الطريق.
شاهد التفاحة، والصحن، والرسام النائم،
فقال في نفسه: يا لها من فكرة أن أرسم تفاحة.
أكل بيكاسو التفاحة، فقالت له «شكرًا».
وكسر الصحن، ثم واصل جولته مبتسمًا.
واستفاق الرسام من أحلامه،
فوجد نفسه وحيداً، أمام لوحته
التي لم يستكمل رسمها،
وفي وسط الأنية المكسورة:
بذور الحقيقة المروعة.

مذكرات فتاة⁽¹⁾



... كانت نظرة أبي إلى الجنس اللطيف تزعجني، إذ كنت أرى أن الرجال والنساء مخلوقات متساوية، ينبغي أن تتم المعاملة بينهم بالمثل. وكانت الأخلاقيات المتعلقة بالسلوك الجنسي تثير في نفسي الاستنكار بما فيها من تساهل حيناً وصرامة أحياناً. قرأت ذات يوم، في إحدى المجلات، أن الإجهاض جريمة؛ ورأى هو أن ما يجري داخل جسمي أمر يهمني وحدي.

وبدأت تسوء علاقاتي مع أبي، فعزمت على أن أقرر مصيري بنفسي، فقد كانت آرائي وأذواقي مخالفة لآرائه. أصبحت أرفض نظام الطبقة، والرسميات، والقيم التقليدية البالية، التي تتميز بها طبقة «صفوة المجتمع». قررت أن أنتمي إلى المجتمع في مجموعته، لا إلى طبقة في محيطها الضيق. وحاولت البرجوازية أن تقنعني بأن مصالحها تتوافق مع مصالح البشرية، وحاولت أن أجد إلى جانبها تفاهما حول المبادئ التي أؤمن بها، ولكن دون جدوى.

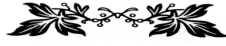
لم يتقبلني أحد كما كنت، فقررت أن أحب نفسي لأعوض ما أشعر به من عزلة... ودخلت في عالم أذهلتني مستجداته، وتعلمت

(1) العنوان : Mémoire d'une jeune fille rangée .

الكاتبة : (1908 - 1986) Simone de Beauvoir .

الفرق بين حياة الصفاء والرضى وعدوبتها، وحياة الجفاء والكآبة والشدة. وذقت طعم الحيرة ومشاعر البهجة الجامحة، وكانت نفسي تتتعش في حماس، كما يحدث عندما أشاهد السماء تتلألأ ليلاً خلف الهضاب الزرقاء. كنت أعيش لنفسي، لأنني حيّة موجودة، مبهجة بهذه العزلة التي دفعتني نحو متع سامية، وكنت أكره من ينكر هذه المشاعر المثيرة، وأتعجبُ كيف عشتُ مدةً بدونها.

شرح الشباب⁽¹⁾



... بعد ذلك بفترة نظمنا سهرة أدبية (سرية). وكان بيكاسو⁽²⁾ قد أعدّ مسرحية⁽³⁾ ذكرتنا ببعض أعمال الأدب الطليعي خلال العشرينات، فاقترح لييري⁽⁴⁾ أن نقرأها على الحاضرين، فوافقنا.

تولى كامو⁽⁵⁾ إدارة الأمور، فأمسك بعضى غليظة يدقّ بها على الأرض ليعلن تغيير المشاهد، وتولى تنظيم ديكور الصالون، وتقديم «شخصيات المسرحية»، وتوجيه المترجمين... وقام لييري وسارتر⁽⁶⁾ وغيرهما (وكاتبة هذه الصفحات) بتمثيل أدوار المسرحية.

رتبنا صفوفًا من الكراسي في صالون لييري، وحضر أناس كثيرون، وأتى الجميع على بيكاسو. وبعد ذلك انتقلنا إلى غرفة الطعام. وكان سروري كبيراً عندما تقدم بيكاسو وهنأني على تناسق ألوان ملابسي؛ وكنت ذلك المساء أشعر بالرضى عن نفسي، مبهتجة بلقاء الأصدقاء، وكان الجو مفعماً بالدعابات والمجاملات والثرثرة...

(1) عنوان الكتاب : La force de l'age (1960) .

الكاتبة : Simone De Beauvoir (1908 - 1986) .

(2) بابلو بيكاسو، رسام ونحات أسباني شهير (1881 - 1973) .

(3) عنوانها : Le Désir attrapé par la queue

(4) Michel leiris ، كاتب وشاعر فرنسي (1901 - 1990) .

(5) Albert Camus ، كاتب وفيلسوف فرنسي (1913 - 1960)

(6) J. P. Sartre ، كاتب وفيلسوف فرنسي شهير (1905 - 1980) .

ما كنا نتصور، قبل سنة، أن نجتمع ونقضي ساعات من المرح تُتعش النفوس وتطرد الهموم، كأننا كنا نحتفل مسبقاً (وبطريقة سرية) بالنصر الذي سيأتي⁽¹⁾، وذلك على الرغم مما كان يواجه عددًا كبيراً من أصدقائنا من خطر.

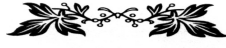
وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً أنصرف معظم المدعوين، وطلب لييري من المترجمين ومن بعض الأصدقاء أن يبقوا لمواصلة السهرة. وعندما دقت الساعة الثانية عشرة وجدنا أنفسنا مضطرين لمواصلة السهرة حتى الصباح بسبب الظروف الأمنية التي فرضها الاحتلال.

كانت كمية المشروبات كافية لمواصلة السهرة وطرد حالة الفتور، لكن توقفنا عن الرقص، وخفضنا صوت الموسيقى، لكي لا نزعج الجيران، وغنى لنا Mouloudji بصوت رقيق ما زالت فيه نغمة الطفولة؛ وقرأ كامو ولييري مشهداً من تمثيلية، ونشط بقية الأصدقاء كل بما يحسن ويبهج. وبدأ النوم يرخي بدني، ولكنني كنت أشعر بمتعة عميقة طوال السهرة، في ليلة غير عادية.

وفي الخارج كانت الحواجز تملأ الشوارع، لا يشاهد فيها إلا المحتلون والموالون لهم. لقد كانت باريس تشبه معتقلاً كبيراً.

(1) كانت باريس حينئذ تحت الاحتلال الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية.

عودة إلى الوطن⁽¹⁾



- إلى الذين لم يخترعوا البارود ولا البوصلة،

وقوة البخار والكهرباء، ولم يستغلوا المحيطات والسماء،

ولكنهم يعرفون وطن الشقاء والآلام.

- إلى من لم يعرفوا سوى رحلات التهجير

التي اقتلتهم من بلادهم،

وأجبروا على أن يحنوا ركبهم أمام الغرياء.

- إلى الذين استعبدوا، وجرى تنصيرهم بالقوة،

وتلا ذلك تهجينهم وإفساد أخلاقهم،

- أنا إنسان أسود، ولكن زنجيتي ليست صخرة،

ولا حفنة ماء في أرض ميتة،

ليست زنجيتي برجاً عالياً ولا كاتدرائية،

(1) العنوان : Cahier d'un Retour au pays natal .

الكاتب : Aimé Césaire، ولد سنة 1913 في جزيرة Martinique الواقعة شرق بحر الكاريبي.

بل إنها تغوص في جسد الأرض الحمراء،
وتصعد إلى أعماق السماء المضطربة.

....

- اجعلوا مني⁽¹⁾ ثائراً على كل أشكال الغرور،

ومواطناً كريماً مع كل عبقرية،

اجعلوا مني أباً لهذا الشعب الفريد، وأخاه، وابنه، ومحباً له.

اجعلوا مني رقيباً على دمائه، ومتعهداً لكبريائه وحرمانه،

ورجل البداية والنهاية.

اجعلوا مني رجل التأمل والتدبر،

ولكن كذلك رجل الزراعة، رجل الأرض.

(1) يعني: من كل مواطن زنجي.

القسم الثالث



ملخصات من الأدب الإنكليزي

الملك أرتور وفرسان المائدة المستديرة⁽¹⁾



عندما بلغ أرتور سن الثامنة عشرة، أظهر قوته بأن نزع سيفاً كان منغرزاً داخل صخرة. وبعد أن تغلب على عدد من صغار الملوك، أعلن أسقف كانتربري أن أرتور ينبغي أن ينصب ملكاً على بريطانيا. وتزوج الملك الشاب الحسناء غوينيفير⁽²⁾ وكانت هدية زواجه المائدة المستديرة؛ ونصب بلاط ملكه في كاملوت.

وهناك أساطير تبين كيف حصل الملك أرتور على سيفه الشهير Excalibur من سيدة البحيرة؛ وكيف انتصر في معارك شهيرة. وكان ميرلين الساحر مستشاره الملازم له في كثير من مغامراته.

وبدأ عدد من فرسان المائدة المستديرة، أنصار الملك، ينالون شهرة واسعة بفضل بطولاتهم وشهامتهم. وأصبح السير لانسلوت^(Sir Lancelot) أول فرسان المائدة المستديرة بفضل شجاعته وكرمه أخلاقه. وبرز فرسان آخرون اندمجت حكاياتهم ومغامراتهم ضمن أسطورة الملك أرتور ومنجزاته.

(1) يعتقد أن الملك أرتور الأسطوري كان بطلاً من أبطال السلتيين الذين كافحوا غزو القبائل الجرمانية لبريطانيا في القرن الخامس الميلادي. وقد شاعت حكايات هذا الملك (الفارس) في منطقة ويلز (بريطانيا) قبل القرن الحادي عشر. وانتشرت حول شخصه، وحول من التف حوله من فرسان المائدة المستديرة، حكايات شعبية، وأشعار رومانسية، وأساطير بطولية بمرور القرون. وهذه مقتطفات من كتاب «الأدب الإنكليزي» للمؤلف Guy E. Smith، طبعة 1959، نيو جيرسي، الولايات المتحدة.

(2) Guinevere.

وبدأت الحكايات تتناول مغامرات الحب السري بين لانسلوت والملكة غوينيفير؛ وتُصوّر هذه الملكة في هيئة شخصية نبيلة وجليلة، وذات جمال وغنج وحياء. وكانت ترسل عشيقها أحياناً في مهمات خطيرة. وفي إحدى هذه المغامرات، يجد نفسه على فراش الأميرة إيلين، ابنة الملك بيليس، وينجب منها ولداً يدعى غالاهاد، يصبح من أصدق فرسان المائدة المستديرة وأنبلهم.

وبعد أن نال هذا الفارس مكانه ضمن المجموعة، بدأ الفرسان يهتمون بالبحث عن الكأس المقدسة⁽¹⁾. ويروى أن الفارس غالاهاد، تمكن من رؤية معجزة الكأس المقدسة، بفضل براءته، ومقاومته للإغراء، وكرم أخلاقه.

وبعد فترات طويلة، قام خلالها الملك وفرسانه بمغامرات في البر والبحر، وحققوا إنجازات بطولية، وكان الساحر ميرلين يلعب دور العراف وراء قوة الملك أرتور، بدأت تظهر على أسطورة الملك وفرسانه بوادر الضعف والتدهور؛ وراح فرسان المائدة المستديرة يواجهون مزيداً من الإهانات والمآسي؛ وأصبح أعداؤهم يتكاثرون.

وبدأ الملك يشك في علاقة زوجه السرية بالفارس لانسلوت؛ فأرسل جماعة من الفرسان ليقتلوه. ولكنهم قتلوا جميعاً، ما عدا مودريد، ابن الملك أرتور. وأصبح هذا الفارس يمثل دور الخائن في أسطورة الملك أرتور. وأنقذ لانسلوت الملكة التي كانت ستقتل حرقاً، واعتزلاً في حصن منيع.

(1) هي الكأس التي يروى أن السيد المسيح عليه السلام شرب منها ليلة العشاء الأخير.

هاجم الملك ذلك الحصن... وسعى البابا إلى عقد صلح بين الملك ولانسلوت، الذي رحل إلى فرنسا برفقة أتباعه، وهناك أصبح ملكاً. وهاجم الملك أرتور فرنسا ليقضي على لانسلوت، الذي كان فيما مضى فارسه المفضل. واستولى مودريد، ابن الملك، على عرش بريطانيا، وحاول أن يجعل غوينيفير ملكته، ولكنها لجأت إلى حصن في لندن.

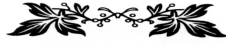
وعاد الملك أرتور إلى بريطانيا ليعزل الخائن مودريد عن العرش. وعُقد اجتماع بين أرتور وفرسانه ومودريد وفرسانه لعقد صلح بين الطرفين. وأثناء اللقاء، استل أحد الفرسان سيفه فجأة ليقتل أفعى، فأحدث هذا الفعل المفاجئ بلبلة وسط الفرسان، وهاجم كل فريق الفريق الآخر. وقتل الملك أرتور ابنه مودريد، وأصيب هو الآخر بجرح قاتل.

طلب الملك أرتور، وهو على فراش الموت، من السير Bedevere أن يعيد سيفه الشهير Excalibur إلى سيدة البحيرة. وحاول هذا الأخير إخفاءه مدة. وأخيراً رماه في البحيرة حيث ارتفع من أعماق الماء ساعد فتلقاه. ونقل الملك، وهو يموت، إلى أحد الشواطئ، فوضع على زورق غامض، اقتيد إلى مكان يدعى Vale of Avelon، حيث كان يتوقع شفاؤه. وظلت بريطانيا تنتظر، خلال قرون، عودة ملكها.

وعلم السير لانسلوت بما حدث، فأسرع إلى بريطانيا لينتقم للكه السابق... وعرف أن الملكة لجأت إلى دير؛ وأن مودريد قتل، فلجأ هو الآخر إلى أحد الأديرة ليقضي ما بقي من حياته في الصلاة والتوبة، وليكفر عن ذنوبه.

وعندما علم بوفاة الملكة، نقل جثمانها إلى المكان الذي دفن فيه زوجها، الملك أرتور. وتوفى السير لانسلوت، أشهر فرسان المائة المستديرة، بعد ذلك ببضعة شهور، وظل يوصف خلال قرون بأنه الفارس المثالي في تاريخ فروسية القرون الوسطى.

وفاة الملك أرتور⁽¹⁾



.... ثم امتطى السير لأنسلوت (Sir Lancelot) جواده، واتجه غرباً، وسار سبعة أيام أو ثمانية، وأخيراً وصل إلى دَيْر للراهبات. وشاهدته الملكة Guenevere، فأغمرى عليها. وهرع الناس لمساعدتها، ولما خف ما ألمَّ بها، نادى النساء والرجال، وقالت: لعلكم تعجبون لما حلَّ بي؟ إن السبب هو رؤية ذلك الفارس، وأرجوكم أن تتادوه ليقترب مني. وحضر السير لأنسلوت أمامها، قالت:

لقد كنت، وكان هذا الفارس، سبباً في جميع الحروب، وسبباً في موت أنبل الفرسان في العالم⁽²⁾؛ أجل كان حبنا الذي عشناه فترة سبباً في قتل مولاي، أنبل الملوك.

وكما تراني، أيها الفارس، في هذه الحالة، جئت إلى هذا الدير لأعالج روحي وضميري. وإني لأطمع في رحمة الله وعفوه لأشاهد وجه المسيح المبارك، وأن أجلس يوم القيامة إلى يمينه. ولذلك أطلب منك، سير لأنسلوت، بل أرجوك من أعماق قلبي، وباسم الحب الذي

(1) تصور هذه الفقرات المشاهد الأخيرة من القصة الأسطورية التي ألفها Sir thomas malory تحت عنوان Le Morte d'Arthur (هكذا في النص الإنكليزي) حوالي عام 1470. وتمثل قصته هذه ملخصاً للكمية الضخمة من الأساطير التي حيك حول الملك أرتور وفرسان المائة المستديرة. ومن أشهرهم: Sir lancelet.

(2) تقصد زوجها، الملك أرتور.

كان بيننا، ألا تتظر إلى وجهي بعد اليوم. أناشذك الله أن تعود إلى مملكتك، وأن تحفظها من الحروب والدمار.

ومهما كان حبي لك عميقاً، فإن قلبي الآن لا يطاوعني على رؤيتك؛ لأنه بسببي وبسببك سقط سيد الملوك وفارس الفرسان. أرجوك أن تهتم بشؤون ملكك، وتتخذ لك زوجاً لتعيش معها في ظلال البهجة والطمأنينة. ورجائي منك أن تصلي من أجل أن يساعدني الرب على إصلاح ما فسد من حياتي.

قال السير لانسلوت: أيتها السيدة الكريمة، تودين أن أعود إلى بلدي، وأن أتزوج؟ كلا ياسيدي، لن أفعل ذلك أبداً، لأنني لن أحميد عن عهدي لك، ولن أخون وعودي؛ بل سأتابع المصير نفسه الذي اخترته لنفسك، من أجل أن أرضي الرب والمسيح، وسأظل أصلي من أجلك.

وقالت الملكة: احفظ وعودك، إذا كانت هذه هي إرادتك. ولكنني أظن أنك ستعود إلى العالم الدنيوي مرة أخرى. وقال لانسلوت: هل رجعت عن وعودي مرة في حياتي؟ كلا! بل سأعتزل العالم كما فعلت. ولقد سعيت في البحث عن الكأس المقدسة⁽¹⁾، وتركت حياة الأباطيل والغرور. ولقد اخترت الطريق بكل جوارحي وقلبي وفكري؛ وتجاوزت في تلك المساعي جميع الفرسان الذين بحثوا عن الكأس المقدسة، باستثناء ابني السير غالاهاد⁽²⁾.

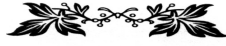
(1) الكأس المقدسة التي شرب المسيح منها في العشاء المقدس، والتي ظل المسيحيون فيما بعد يجدون في البحث عنها.
(2) Sir Galahad.

وعلى هذا، أيتها السيدة، بما أنك ألزمت نفسك بالحياة المثالية، حياة التقوى والورع، فإنني سألزم نفسي بمثلها. ولقد وجدت فيك، شهد الله، مسراتي الدنيوية؛ ولو أنني وجدتك اليوم مستعدة لموافقتي، لكنت سعيداً بأن نعيش معاً في مملكتي... ولكن عندما رأيت ما أنت فيه، فإنني أؤكد لك أنني سأسعى لأكفر عن ذنوبي ما دمت حياً، إذا وجدت أي ناسك يقبلني بجواره.

ولذلك، أيتها السيدة، قبليني مرة أخيرة، قبله الوداع الأخير. فأجابت الملكة: كلاً! لن أفعل ذلك، وأرجو ألا تلح عليّ. وافترق لانسوت والملكة.

وما من رجل أو امرأة حضر ذلك المشهد الحزين، استطاع أن يمسك دموعه. وقد غلب الأسى والتفجع والألم على الحبيبين كأن مائة سهم تخز جسديهما وخزاً متواصلًا؛ وكاد أن يغمى عليهما. وأسعفت الملكة إلى غرفتها. أما السير لانسوت فإنه استفاق من همه، ورجع إلى وعيه، فامتطى جواده، وسار طيلة ذلك اليوم، وطوال الليل خلال الأدغال، والدموع تبلل خديه.

روبن هود ورفاقه⁽¹⁾



كان روبن هود بارعاً في الرمي بالسهم. وبينما كان ذات يوم ماراً خلال غابة، تحداه حارس الطرائد ليجرب مهارته في رمي غزال. ولم يسمح روبن هود لهذا الحارس أن يسخر منه، فرمى سهماً قتل أَيْلاً من حيوانات الملك؛ واضطر للفرار إلى غابة لينجو من الحراس. ولحق به أحدهم، فرماه روبن هود بسهم وقتله.

أصبح روبن هود يواجه عقاب الموت، فلجأ إلى غابة شيرودود Sherwood. وسرعان ما انضم إليه عدد من المشردين والمضطهدين، وأصبح روبن هود قائدهم. وأعلن عمدة بلدية توتنغام عن مكافأة قدرها مائتي جنيه لمن يأتيه بروبن هود حياً أو ميتاً.

وهكذا دخل هذا الرجل في مغامراته الشهيرة، وأصبح يعتبر «خارجاً على القانون». ومنها أنه لقي ذات يوم رجلاً عملاقاً فوق جسر ضيق للمشاة، وكان روبن هود يسير في الاتجاه المعاكس، ورفض أن يترك الأولوية للرجل الضخم. وتدافع الرجلان بالعصي الطويلة، واستطاع روبن هود أن يرمي منافسه في النهر ببراعته. وفي هذه المناسبة اكتسب رفيقاً هو جون الصغير، أصبح من أخلص أصدقائه.

(1) مقتطفات من كتاب «الأدب الإنكليزي» لمؤلفه: G.E. smith - طبعة 1959 - (الولايات المتحدة).

وتروي حكايات كثيرة حول كيف سعي كثيرون إلى القبض عليه وأخفقوا. وكان عمدة القرية منزعجاً لتوبيخ الملك له لكونه لم ينجح في القبض عليه، ولا على رفاقه. ونظم العمدة ذات يوم مباراة للرمي بالسهم. فشارك فيها روبن هود وبعض رجاله؛ وكان روبن هود متخفياً في هيئة رجل غريب يرتدي ثياباً بالية. وفي نهاية المباراة فاز روبن هود بالسهم الذهبي. وبعد ذلك أرسل إلى العمدة كلمة شكر.

وراح رفاق روبن هود يسرقون المسافرين الأثرياء أثناء مرورهم بالغابة، ويوزعون ما يغنمون على الضعفاء والمعوزين من سكان المناطق الريفية. وذات يوم تنكر روبن هود في هيئة جزار ثري، وأقنع العمدة بأن يبيع له قطيعاً من أفخم الحيوانات، وكانت في واقع الأمر ملكاً للملك نفسه. فاشتد غضب العمدة، وضاعف من تصميمه على معاينة روبن هود عندما اكتشف الخدعة.

وحدث ذات مرة أن اشتغل جون الصغير، وهو متتكر، لدى العمدة، طيلة ستة شهور. وعندما سئم من عمله، تظاهر بأنه سيذهب للبحث عن روبن هود، فأخذ معه طباخ العمدة، ولجأ إلى الغابات.

وحدث أنه سمع روبن هود ورفاقه براهب ثري، فقرروا أن يسرقوا ماله. وبينما كانوا يتجولون في الغابة، مروا براهب غريب، يغني بجانب نهر. وسأل روبن هود الراهب أن يحمله عبر النهر. فحمله الراهب وعندما بلغ وسط النهر ألقاه فيه. وبعد عراك شديد، تغلب في النهاية روبن هود على الراهب. وصار الاثنان صديقين حميمين. لقد

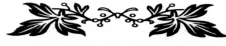
كان هذا الراهب من أطف الناس وأكرمهم أخلاقاً؛ وأصبح عضواً مخلصاً ضمن مجموعة روبن هود.

اقترحت الملكة، ذات يوم، على الملك أن ينظم مباراة، تأتي الملكة فيها بثلاثة رماة بالسهم، يتبارون ضد أبرع الرماة في جيش الملك. فرحب الملك بفكرة زوجه، وقبل شروطها؛ وجاءت الملكة بروبن هود واثنين من رفاقه (متنكرين) إلى مدينة لندن. وبدأت المباراة. فكان كلما حاول أحد رجال الملك أن يرمي نقطة الهدف بسهمه، أرسل روبن هود سهماً فقسم سهم خصمه شطرين. واغتاز الملك لهذه الخدعة، ولكن الملكة أجبرته على الوفاء بشروط الاتفاق.

وتروي حكايات أخرى، منها كيف ساعد رفاق روبن هود ألان إدل (Allan a Dale) على الفوز بالحسنة إيلين من الإقطاعي الشرير؛ وكيف أجبر عدد من الأساقفة وكبار الشخصيات على اقتسام أموالهم مع روبن هود ورفاقه؛ وكانوا يتحايلون على العمدة المرة تلو الأخرى؛ وكيف فاز روبن هود بعشيقته التي كانت لا تقل عنه مهارة في رمي السهام.

ومرت السنون، وتواصلت مغامرات روبن هود ورجاله... وفي نهاية المطاف تعب الرجل ومرض، فلجأ إلى أحد الأديرة. وحزن رفاقه لذلك. واشتد عليه المرض ذات يوم، فأخرج البوق، ونفخ فيه ثلاث مرات، فسمعه جون الصغير، فحضر وساعده على الاقتراب من النافذة، ورمى روبن هود بسهمه الأخير ليحدد المكان الذي يرغب أن يدفن فيه. وتفرق رفاقه بعد وفاته، ولكن شهرتهم ظلت ترن في الأذان عبر القرون.

الإنسان⁽¹⁾



يدخل رسول يتحدث إلى الجمهور، ويذكرهم بأن كل شيء في هذه الحياة زائل؛ وعلى الإنسان أن يتذكر دومًا أن الموت يتقدم نحوه. وقد يجد المرء أن الإثم حلو المذاق، ولكنه يجعل الروح تبكي عندما يصبح الجسد ترابًا.

وفي المشهد التالي، يخاطب الإله الجمهور، ويشكو من أن الإنسان قد نسي التعاليم الدينية والمبادئ العقائدية، ويقرر بأن كل نفس ستذوق الموت؛ فيذهب الموت إلى الإنسان ويقول:

«عجبًا! أرى الإنسان يمشي؛ عجبًا! كيف
لا يفكر في أنني قادم إليه؛ أرى فكره
مهتمًا بالمال وبمتع الجسد؛ ولكن ذلك
سيسبب له آلامًا شديدة عندما يواجه
ملك السموات.»

يسمع الإنسان رسالة الموت، فيحتج... ويقول بأنه ليس مستعدًا

(1) العنوان: "Everyman"، مسرحية أخلاقية رمزية، كتبت حوالي 1508؛ المؤلف مجهول.

- وهذه مقتطفات من كتاب «الأدب الإنكليزي» لمؤلفه Guy E. Smith، طبعة 1959 - الولايات المتحدة.

للموت الآن. فيرفض الموت أعضاره. فيتأكد الإنسان ألا مناص من الموت، ومفارقة متع الحياة، ويوافق على اقتراح الموت بأنه يمكنه أن يختار عددًا من الرفاق ليصحبوه في رحلته إلى الآخرة.

ويلتقي الإنسان بالرفيق الأول، ويدعى «الصديق» فيسأله أن يرافقه في رحلته الطويلة. فيعرب هذا الرفيق عن استعداده، إذا كان في الرحلة ما يوفر الربح والمتعة...، ويقول:

«إذا كنت ستأكل وتشرب، وتمرح، وتصيد النساء،
فسوف لا أفارقك ما دام النهار جميلاً...»

ولكن عندما اطلع «الصديق» على تفاصيل الرحلة، رفض أن يرافق صديقه.

اتصل الإنسان بعد ذلك بأفراد أسرته لمعرفة من يرافقه في رحلته الطويلة. كان أقرباؤه كرماء في وعودهم قائلين:

«سنكون إلى جانبك في السراء والضراء؛ لأن
المرء ينبغي أن يسارع إلى مساعدة قريبه...»

غير أنهم لما عرفوا أن الأمر يتعلق بمرافقته في رحلة الموت، وقدروا ثقل المهمة وتكاليفها، نكصوا عن وعودهم.

ومن عادة الإنسان أن يعتمد في رحلاته على البضائع والسلع، فحاول جهده أن يأخذ شيئاً منها. ولكنه سرعان ما اكتشف أنها لا تجدي نفعاً في حالات العسر والشدة، فاستولى عليه الغضب، وأنشد:

ملخصات من الأدب الإنكليزي

«أيتها السلع الذميمة، لتنزل عليك اللعنة!
فلقد خنتِ حكمة الإله، وخَيَّبْتِ أُملي،
وأوقعتني في شرك المتع والملذات...»

وهكذا، فشل الإنسان في إيجاد من يرافقه في رحلته، ما عدا ما قدم من الحسنات وفعل الخير. ورغبت حسانته في مرافقته، ولكنها اشتكت من ضعفها وعجزها عن تحمل مشاق الرحلة. والواقع أن سبب عجزها هو ضعفها عن مواجهة حجم السيئات التي اقترفها.

نصح «فعل الخير» الإنسان بأن يزور أخته «المعرفة». فوافقت هذه الأخيرة أن ترافق الإنسان لزيارة «الاعتراف»، وقالت:

«لنذهب الآن برفق ولطافة إلى «الاعتراف»،
ذلك النهر الزكي الذي يطهر الإنسان...»

وعمل الإنسان بنصيحة الاعتراف، فقرر أن يطهر جسده من الذنوب، وأنشد:

«الآن، ينبغي لي أن أستحم في مياه النهر
الطاهرة، لأكفر عن ذنوبي، وأخلص جسدي من
خطاياها، وأنقذه من نار الله الموقدة...».

عندئذ، عرض فعل الخير على الإنسان مساعدته ليزيد من حسناته وأفعاله الخيرية، وابتهجت المعرفة عندما رأت أن الإنسان أصبح الآن بين أيد زكية صالحة.

ارتدى الإنسان أثواباً جديدة مصنوعة من قماش التوبة
والحسنات؛ وجمع رفاقاً جديداً لمرافقته في رحلته، منهم: التعقل، القوة،
الاعتدال، الطيبة، الجمال...

وأثناء الرحلة بدأ رفاقه يفادرونه واحداً تلو الآخر، لأن الموت لا
يسمح له أن يقابله إلا برفيق واحد هو: فعل الخير. وفي نهاية المطاف،
لخص فعل الخير الحقيقية بالنسبة للإنسان، فقال:

«ما متاع الحياة الدنيا إلا غرور:

فلا ينفع الإنسان جمال، ولا قوة، ولا تحفظ...

ولا ينفعه الأقباء، والأصدقاء...

فقط فعل الخير، وحسناته تقول له:

لا تخف! نحن بجانبك.»

عندئذ، سلم الإنسان نفسه للموت. وجاء الملك فحرر سجله قائلاً:

«إن حسابك صاف، وسجلك طاهر،

الآن، يمكنك أن تدخل ملكوت السماء، في أمان»

لقاء كليوبترا ومارك أنطونيو⁽¹⁾



إليكم كيف وقع مارك أنطونيو في حب كليوبترا. كان أنطونيو يستعد للحرب ضد البارثيين، وعندما وصل إلى سيليسيا، أرسل إليها لتمثل أمامه شخصياً، لتجيب عن اتهامات وجهت إليها، مفادها أنها ساندت القائدين الرومانيين، كاسيوس وبروتوس، في الحرب ضد أنطونيو.

كان الرسول الذي أرسله أنطونيو إلى كليوبترا يدعى ديليوس. وعندما شاهد هذا الأخير جمالها وحلاوة كلامها وحسن منطقتها، تأكد أن القائد العظيم أنطونيو لا يمكن أن يؤذي سيدة بهذا النبل وهذه الرفعة والعظمة؛ فأكرمها وعظم قدرها، وأقنعها بأن تقدم إلى سيليسيا في أبهى التجهيزات وأجمل مظاهر العز والتبجيل؛ وطمأنها بالألا تخشى أنطونيو لأنه من أعظم القادة لطفاً وكياسة.

صدقت كليوبترا كلام الرسول، نظراً لما نالته سابقاً من تكريم لدى يوليوس قيصر، وكنيوس بومبي (ابن بومبي الكبير)، بفضل ملكها وجمالها، وقوي أملها في أنها ستحظى بتقدير أعظم لدى القائد أنطونيو. خاصة وأنها أصبحت الآن في قمة جمالها ونضجها وحسن تديرها.

(1) العنوان : حياة مارك أنطونيو.

المؤلف: Sir Thomas North (1535? - 1601?).

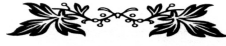
جهزت كليوبترا نفسها بأثمن الهدايا وأجملها، وبقدر كبير من الفضة والذهب والحلي المزخرفة والأثاث الفخم، وبكل ما يليق بملكة لبلد غني مثل مصر. ولكن أعظم شيء حملته معها هو ثققتها بنفسها وبسحر جمالها.

وتقدم موكبها في نهر كيدنوس، وكان الجزء المرتفع من مركبها مطلي بالذهب، وأشرعته من الأرجوان، والمجاديف من فضة، وهي تجدف على نغمات موسيقية متناسقة.

وكانت كليوبترا مستلقية تحت قبة من قماش مذهب، ترتدي ملابس فاخرة مزخرفة، فتبدو كأنها الإلهة فينوس في أبهى مظاهرها. وعلى جانبيها أطفال في روعة وسامتهم وزينة ثيابهم صورة عن كوبيد، إله الحب، يحملون مروحات صغيرة يروّحون بها عن كليوبترا؛ وبرفقتها خدم وخادمات في ثياب مزخرفة، منهم من يدير دفة المركب، ومن يضبط حباله. وكانت تنتشر من المركب روائح الطيب فتعطر الرصيف.

وخرجت من المدينة جماهير توجهت نحو الميناء وتجمعوا على الرصيف؛ لدرجة أن القائد أنطونيو بقي وحده في مقر الحكم، في ساحة السوق. وانتشرت شائعات على ألسنة الناس تقول بأن الإلهة فينوس حضرت لزيارة الإله باخوس (إله الخمر) لرعاية سكان آسيا.

دفاع عن الشعر⁽¹⁾



فيما يتعلق بجميع العلوم... نجد أن الشاعر هو الملك. إنه لا يمهّد لنا الطريق فحسب، بل يعرض علينا، على الدرب، مشاهد مريحة منعشة، فيشجعنا على مواصلة السير؛ وهو يقدم لك أثناء جولتك عناقيد من العنب اللذيذ، فيشوقك إلى مواصلة رحلتك.

إنه لا يبدأ كلامه بتعاريف غامضة (كما يفعل غيره) تزيد في تعقيد التفسيرات، وتثقل الذاكرة بالشكوك؛ بل يلقاك بعبارات مكسوة بنغمات متناسقة، وألحان موسيقية سحرية. وقد يأتيك بحكايات تنسى الأطفال لعبهم، وتلزم الشيوخ زاوية المدفأة...

وبما أن قصائد الشعر الأصيل مفعمة بالمباهج التي تيسر على الناس الانقياد إلى الفضائل؛ وتزخر بالمواهب التي ينبغي أن تدرج ضمن قاموس المعارف النبيلة؛ وبما أن ما يلاقي من سوء التقدير في إنكلترا سببه بعض الشعراء المقلدين؛ وبما أن لغتنا قادرة على تشريف الشعر والشعراء، وهي أهل لأن تتشرف بهم:

فإنني أناشد كل من ساقه سوء الحظ إلى قراءة هذه العبارات، باسم إلهات الشعر التسعة، ألا يسخر من أسرار الشعر المقدسة؛ وألا

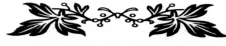
(1) العنوان : An Apologie for Poetry .

المؤلف : sir Philip Sidney (1554 - 1586) .

يضحك من أسماء الشعراء، كما لو كانوا من جنس المجانين؛ وألا يستهزئ أبداً من عبارة «ناظم الشعر»؛ بل أن يعتقد كما كان أرسطو يقول «إن الشعراء هم خزائن لآلهة اليونان»؛ وأن يعتقد مثل Bembus بأن الشعراء هم أول من حفظوا لنا فضائل الكياسة واللطافة؛ ومثل Scaliger بأنه ما من مبادئ فلسفية تخلق منك رجلاً شهماً شريفاً مثل قراءة أشعار فرجيل؛ ومثل Clauserus الذي قال: لقد ابتهجت آلهة السماء وهي تقدم لنا، عن طريق Hesiod، وهوميروس، في إطار حكاياتهم، جميع أنواع المعرفة، والمنطق، والبلاغة، والفلسفة، والآثار الطبيعية، والتصرفات الأخلاقية. وأن تعتقدوا مثلي بأنه توجد في قصائد الشعر أسرار عميقة، سجلت عن قصد بأساليب غامضة حتى لا تفسدها النفوس الجاهلة. وأن تعتقدوا، مثل Landin، بأن الشعراء محبوبون لدى الآلهة، بحيث أن جميع ما يكتبون ينسكب من فيض إلهي؛ وأخيراً، أن نثق بكلامهم عندما يقولون إنهم سيحققون لك الخلود بأشعارهم.

وإذا حدث ذلك، فإن اسمك سينشر ويزدهر، ويسجل في العديد من مقدمات دواوين الشعر؛ وإذا تم ذلك، ستصبح من أطيب الناس ذكراً، وأوسعهم شهرة....

عن العادة والتربية⁽¹⁾



تتطور أفكار الناس وفقاً لـرغباتهم وأهوائهم؛ وتجري أحاديثهم ولغاتهم وفقاً لتعليمهم وما تلقوا من أفكار؛ أما أفعالهم فتكون وفقاً لما مارسوه وألفوه. ولقد صدق ماكيفيلي في قوله (ولو أنه قاله في معرض الفتنة والمكر): «لا تثق كثيراً بطبيعة الإنسان ولا بشجاعته في الكلام، ما لم تؤيد كلامه العادة والممارسة». وكان حديثه يدور حول إنجاز المهام الخطيرة، فنصح ألا يعتمد المرء على شراسة طبع الإنسان وتعهداته وتصميمه مَهَمًا أكد ذلك نظرياً؛ بل ينبغي أن ينتخب للمهمة الخطيرة من خاض المخاطر وتعود على سفك الدماء. ولكن ماكيفيلي تحدث عن تعودوا على فعل الشرور، وتناسى من تعودوا على فعل الخير.

ونلاحظ في جميع الحوادث والتصرفات أن العادة والممارسة تتغلب على طبيعة الإنسان. ألا نلاحظ في سلوك الناس من حولنا أن الشخص يصرح، ويدعى، ويلتزم، ويقسم، ويتعهد... ثم يعود بعد حين إلى ممارسة ما تعود عليه. أجل نراه يتصرف وكأنه صورة أو تمثال أو آلة تحركها عجلات العادة.

وكم نلاحظ لدى الأمم والقبائل إلى أيّ درجة تطفئ العادات على سلوك الناس وتسيطر على تصرفاتهم. ففي الهند مثلاً، نجد بعض

(1) Francis Bacon (1561 - 1626).

الرجال (من طبقة الحكماء) يضطجعون على حزم من الحطب، ويضحون بأرواحهم بإشعال النار فيها. ومن نسائهم من تقبل، بفعل العادة، أن تحرق إلى جانب جثمان زوجها. ويروى أن بعض شبان أسبارطة، قديماً، تعودوا أن يُجلِّدوا على مذبح الإلهة ديانا، دون أن يتململوا أو يتضوروا من الألم. ويروى أن كهنة في روسيا كانوا يجلسون داخل وعاء من الماء طوال ليلة كاملة، تعبيراً عن توبتهم، إلى أن يتجمد الماء حول أجسادهم.

وإذا كان للعادات كل هذا التأثير على أفكار الناس وأبدانهم، فلماذا لا يتعودون على الممارسات الصالحة؟ وخاصة إذا مارس المرء هذه العادات منذ صغره. وهذا ما نسميه «تربية». وهو في الواقع يعني اكتساب عادات صالحة في سن مبكرة. ألا نلاحظ بالنسبة للغات أن اللسان يصبح أكثر مرونة وطلاقة للنطق بجميع الحروف والأصوات: وأن المفاصل تصبح أكثر مرونة للقيام بالحركات الرشيقة والدقيقة... وكل ذلك بفضل التعود المبكر. ومن الواضح أن من يبدأ تعليمه وتدريبه في سن متأخرة لا يتقن المهنة العويصة مثل من يتعلمها في صغره. والتعليم العملي التطبيقي هو الذي يصبح عادة يمارسها المرء بسهولة وعفوية.

وإذا كان تأثير العادات التي يمارسها المرء منفرداً بهذا العمق والقوة، فإن تأثيرها يتضاعف عندما يمارسها الإنسان في إطار الجماعة، لأن هذه الأخيرة تسلي، وتواسي، وتشجع، وتظهر في نطاقها المنافسة والمقارنة بين الأصدقاء والزملاء... وفي مثل هذه الظروف يبلغ تعلم العادة وتأثيرها أوجه.

ملخصات من الأدب الإنكليزي

ومن المؤكد أن انتشار الممارسات الصالحة والفضائل، وسيطرتها على طبائع الإنسان السلبية ينتعش ويزدهر في المجتمعات حسنة التنظيم والتدريب والانضباط. وقد أصبح بوسع الحكومات والمجتمعات المحلية أن توفر الغذاء الصالح لنمو الأخلاق والعادات الطيبة وهي لا تزال في أطوار نموها الأولى؛ كما تستطيع أن ترشدها وتوجهها في أطوار ازدهارها ونضجها.

عن الثروة⁽¹⁾



أفضل القول عن الثروة أنها أمتعة الفضيلة. وأفضل ما يعبر عن «الثروة» الكلمة الرومانية Impedimenta (المعوقات). لأن الأمتعة التي يحملها الجنود (من سلاح ومؤن) لا يمكن الاستغناء عنها، ولكنها تعوق مسيرتهم. والفائدة الحقيقية بالنسبة للثروات الضخمة تكمن في توزيعها واستغلالها؛ وما عدا ذلك فهو عجب وغرور.

فهل يتمتع الرجل الثري بجميع ثروته؟ فهو يرهاها ويكفلها؛ أو يقدم صدقات وتبرعات؛ أو يجمعها لمجرد الشهرة، فيستمتع بالنظر إليها، من دون أن ينتفع بها. ألا ترون الأسعار الضخمة الزائفة التي تدفع لشراء الجواهر الصغيرة والأمتعة النادرة. وكم تبذل من جهود لإنتاج آثار فنية ثمينة لا يشتريها إلا ذوو الثروات الضخمة لغرض التباهي والتفاخر.

ويمكنك أن تقول: قد تصلح الثروة لإنقاذ صاحبها من المشاكل والأخطار؛ فالثروة حصن منيع في نظر من يملكها. ولكن وقائع الحياة تشير إلى أن الثروات الضخمة كانت سبباً في هلاك أصحابها، أكثر مما جلبت لهم من الراحة والسعادة. فالحكيم لا يركض وراء المال لغرض التفاخر، بل يجمع منه ما يكفي للأساليب المشروعة، ليتمكن

(1) Francis Bacon (1561 - 1626).

ملخصات من الأدب الإنكليزي

من استغلاله باعتدال، ويوزعه برضى وراحة البال، ويفارقه غير آسف ولا حزين.

ولكن لا تنفر من المال نضور الرهبان، أو تزدرية بطريفة نظرية تجريدية. وكما قال شيشرون عن رجل: «إنه بذل جهداً لجمع المال، ولكن لا ليتركه سجيناً للبلخ، بل ليتخذة وسيلة لفعل الخير» وكما قال سيدنا سليمان: من يتلهف لجمع الثروة بسرعة يتعذر عليه أن يثبت براءته». إن الثروة التي تجمعها بعرق جبينك (مثل الأعمال الزراعية والحرف..) تكون خطواتها بطيئة، ولكن مؤكدة. والثروة التي تحصل عليها بالميراث والهبات والوصية، تهال عليك فجأة. وكذلك ما تناله بالاحتيال والطرق غير المشروعة.

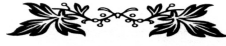
وقد يتعب المرء ليجمع ثروة صغيرة، فإذا نالها، سهل عليه الوصول إلى ثروة كبيرة، لأنه يصبح قادراً على الحصول على صفقات مربحة، وأن يشارك في الصناعات المتطورة مع معظم الشباب المبتدئين. ومما يساعد على ازدهار الأعمال التجارية والمهن والحرف العادية الاجتهاد والعمل الدؤوب، والسمعة الطيبة وحسن المعاملة.

ومن التجار من يقتتص الصفقات المربحة والمقايضات الاضطرارية، فينال من البائع والمشتري. ويُعتبر الاستثمار في الأسهم المالية من وسائل الثروة، إذا تم ذلك بواسطة أيدي تتوفر فيها الخبرة والثقة. والربا وسيلة للريح، ولكنه وسيلة سيئة منبوذة. من الناس من يعتمد على الريح المؤكد، ومنهم من يغامر بما لديه، وقد يخسر كل شيء.

لا تصدق من يتظاهر بأنه يكره الثراء؛ فلا يكرهه إلا من عجز عن الوصول إليه. ولا يفيد كثيراً الاقتصاد في الأشياء التافهة، فللثروة أجنحة، أحياناً تفر من بين يديك دون أن تشعر؛ وأحياناً ينبغي لك أن تجعلها تطير لتجلب لك المزيد.

وتذكر أن من يرث ثروة كبيرة تكثر حوله الذئب، ما لم تكن له تجارب تحميه من جشعها؛ وأن الهدايا، ومؤسسات الأوقاف، والمشاريع الخيرية، قد لا تتجاوز أن تكون مدافن للصدقات، وسرعان ما تتعفن وتفسد من الداخل؛ ولذلك لا تزن إنجازاتك بكميتها. ولا تؤجل أعمالك الخيرية إلى حين ضعفك وموتك، فإن ما ينجز عندئذ من هذه الأعمال يكون أجرها وسمعتها لمن يرث ثروتك.

حول الوظائف ومناصب المسؤولية⁽¹⁾



الرجل في المركز العالي خادم لثلاث: خادم للملك أو للدولة؛ وخادم للشهرة؛ وخادم للأعمال. فليس له حرية في شخصه ولا في نشاطه؛ ولا في توظيف وقته. إنها لرغبة غريبة أن يبحث المرء عن السلطة والمسؤولية، ويفقد حريته؛ أو يبحث عن السلطة فوق الناس ويفقد السلطة على نفسه.

الصعود إلى المركز والنفوذ متعب؛ يمر المرء بالإهانات ليصل إلى المنصب الرفيع؛ وقد يظل وضعه زلماً متزعزعاً؛ وإن حدثت نكسة يجد نفسه في منحدر وعر، أو على الأقل يخفيه الكسوف. وعندما يصبح على غير ما كان عليه تضيق أمامه السبل لطلب المزيد من أسباب الحياة.

ألا نلاحظ أنه حتى لدى المتقاعدين من وظائفهم أنهم يعانون من العزلة. وشبيه بهم شيوخ القرية المسنون الذين يجلسون على حافة الشوارع، وفي نفوسهم شيء من الضجر، ليكرروا أحاديث الأمس.

لا شك أن الأثرياء غريباء حتى عن أنفسهم، بينما هم منهمكون في أعمالهم، لا يجدون وقتاً لرعاية صحتهم الجسدية والنفسية. «إن الموت عبء ثقيل على من يكون معروفاً لدى الناس، ويفارق الحياة وهو يجهل نفسه».

(1) للكاتب الفيلسوف ورجل الدولة (1561 - 1626) Francis Bacon.

وقد تكون المواقف ملائمة فتسمح للمرء أن يفعل الخير، أو يرتكب ما يجلب عليه اللعنة. وبينما يكفي لتجنب الشر ألا يرغب المرء في إتيانه، فإن فعل الخير يتطلب أن يكون المرء قادرًا عليه. على أن النوايا الطيبة (وهي مقبولة عند الله) ليست عند الإنسان أفضل من الأحلام اللذيذة، ما لم تدخل حيز التنفيذ.

وعند إنجازك مهامك ومسؤولياتك، ضع نصب عينيك الأمثلة الحسنة والقذوة الصالحة، لأن التقليد ساحة مفتوحة لمبادئ السلوك المحمود. تفحص ما بذلت من جهود، وما حققت من نتائج إيجابية؛ وقارن ذلك بنتائج من سبقوك لتعرف ما ينبغي أن تتجنب من تصرفاتهم؛ ولكن لا تنس أن تستفيد من إيجابيات سلوكهم.

حاول أن تجعل مسيرة أعمالك واضحة منتظمة، حتى يعرف الناس ما يمكن أن يتوقعوه منك؛ ولكن لا تكن إيجابياً أكثر مما تسمح به مسؤولياتك ويفرضه الواقع. وادرس الضوابط والقواعد والامكانيات جيداً لتعبر عن وضعك بوضوح. تحمل واجباتك بهدوء، وتجنب التحدي، واعتبر أنه مما يشرفك أن تدير القضايا وتتجز مسؤولياتك بالإنصاف. واستفد من مساعديك، وتقبل آراءهم بصدر رحب، ولا تبعد من يأتونك بالمعلومات السليمة، فإنها عون لك على إنجاز مهامك.

ويمكن القول، بصورة إجمالية، إن عيوب السلطة أربعة:

1 - التأخير والتأجيل:

يجب على المسؤول أن يسهل لذوي الحاجات الاتصال به، والدخول عليه؛ وأن يحافظ على المواعيد المحددة؛ وأن يتم العمل الذي بين يديه قبل أن يشرع في عمل آخر، إلا ما تدعو إليه الضرورة الاستعجالية.

2 - الرشوة والفساد:

لا تقيد يديك وأيدي خدمك ومساعدك فحسب من قبول الرشوة، بل وكذلك أيدي من يقدمونها. راقب من تحوم حوله الشكوك؛ وكل من يلاحظ عليه تغيير في السلوك، دون أسباب واضحة، يصبح عرضة للمراقبة. وفيما يتعلق بالمسؤول، إذا رغب في أن يغير آراءه أو مهنته... فعليه أن يفعل ذلك على مرأى ومسمع الناس، وأن يوضح الأسباب التي دفعته إلى ذلك.

3 - معاملة الناس بخشونة:

هناك فرق بين الجدية في العمل، وبين الخشونة في المعاملة. الأولى تنتج الاحترام، والثانية مصدر الانزعاج والكراهية. وحتى إذا صدر تأنيب من طرف السلطات المسؤولة، ينبغي أن لا ينطوي على السخرية أو الإهانة.

4 - التسهيلات غير المشروعة:

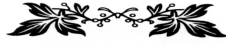
إن المعاملات التسهيلية غير المشروعة أسوأ من الرشوة؛ لأن هذه

الأخيرة تحدث من حين لآخر؛ أما المحاباة، ومراعاة العلاقات التافهة، وسلوك الوداعة أمام الملحين والمزعجين والمتطفلين... فقد تصبح عادة سلبية لدى المسؤول الذي يهمل واجباته في العدل والاستقامة.

قيل قديماً: إن السلطة تكشف معدن الرجل، فتظهر من كان معدنه ذهباً، ومن كان معدنه رخيصاً. ومن علامات صفاء المعدن وحسن المنبت أن تسمو خصال المرء عندما يتولى المركز الرفيع.

وعامل أصدقاءك باحترام، وزرهم في الوقت الذي لا ينتظرون زيارتك؛ ولا تهجرهم عندما يتطلعون إلى لقاءك. لا تكن شديد الحساسية بمنصبك، ولا تكثر من الحديث عن مهامك ومسؤولياتك، وعما قدمت من خدمات.

عن الربا⁽¹⁾



يذمّ الناس الربا بطرق ذكية شتى. فيقولون، مثلاً، من المؤسف أن يحصل الشيطان على حصة من حق الرب، ويعنون عشر المال أو الغلة الذي يدفع للكنيسة. وأن الذين يأكلون الربا هم أكبر مخالفين لليوم المخصص للراحة والعبادة، يوم الأحد (السبت لدى اليهود). وأن من يتعاطون الربا يخالفون أول مبدأ وضعه الرب للخلق، بعد خروج آدم وحواء من الجنة، وهو: «سوف تكسبون طعامكم بعرق جبينكم، وليس بعرق الآخرين». ويقول الناس إنه على من يأكلون الربا أن يلبسوا قلنسوات بألوان الرمادي والأصفر والبرتقالي، لأنهم أقرب إلى فئة اليهود. وأنه من المناقض لطبيعة التجارة أن يكسب الدرهم درهماً مثله.

وأقول ما يلي: إن الربا عمل شيطاني لا يتعاطاه إلا قساة القلوب. ولكن لا بد من عمليات القرض والاقتراض؛ والناس لا يقترضون أموالهم عن طيب خاطر، دون ضمانات، لذلك لا مناص من السماح بعمليات الربا. ومن المفيد أن نضع نصب أعيننا منافع الربا ومضاره، لكي نتقبل الصالح ونطرح الطالح منها.

يلاحظ أن ما يخلقه الربا من مقلقات ومضايقات يؤدي إلى نتائج عديدة. أولاً، يقلل من عدد التجار. والربا تجارة القساة الكسلاء،

(1) Francis Bacon (1561 - 1626).

ولولاهم لانتشرت الأموال في أيدي تجار كثيرين، بدلاً من أن تظل راکدة في الخزائن. ثانياً، الربا يضعف أوضاع التجار، ويخفض هامش أرباحهم، لأنهم لا يستطيعون أن يعرضوا سلعهم بأسعار منافسة، إذا تحملوا الربا بفوائد مرتفعة. ثالثاً، نتيجة للعنصرين السابقين، تنحط تقاليد الملوك والدول وأعرافهم، أو تزدهر، بانحطاط التبادل التجاري أو ازدهاره. رابعاً، يؤدي انتشار الربا إلى انحصار الثروات في أيدي قليلة، لأن من يقرضون بالربا متأكدون من نتائج تجارتهم، أما المقترضون فنتائج تجارتهم غير مضمونة. وفي نهاية اللعبة، تنتقل معظم الأموال إلى خزائن الفئة الأولى. وإنما يزدهر اقتصاد الدولة عندما تكون الثروات موزعة بإنصاف بين المواطنين. خامساً، إن الربا يخفض ثمن الأرض، لأن الثروة تستخدم أساساً في المتاجرة وفي شراء العقارات، أما قروض الربا فتفضل ميدان التجارة. والعنصر السادس هو أن الربا يثبط نشاط الصناعات، ويبطئ ما يتعلق بها من تحسينات واختراعات؛ بينما يكون هدف المال الأساسي هو الاستثمار في ازدهارها. والعنصر الأخير هو أن الربا آفة تخرب ممتلكات كثير من الناس مما يؤدي، بمرور الزمن، إلى إفقار كثير من الناس.

أما إيجابيات الربا فمنها، أولاً، أن قروض الربا، بفوائد عالية، تعرقل التجارة من جهة لأنها ترفع الأسعار، ولكنها تساعد على تطويرها من جهة أخرى، ولو خلال فترات محددة. ذلك أن معظم التجار الجدد هم من الشباب، ممن يضطرون إلى القروض الباهظة، فإذا رفض المرابي أن يقرض ماله، أو حرص على استرداد أمواله من المقترضين، كانت النتيجة ركود التجارة.

ثانياً، لولا تسهيلات الاقتراض بفائدة، فإن احتياجات الناس الملحة قد تتسبب لهم في خراب مفاجئ، إذ يضطرون إلى بيع ممتلكاتهم (أراضي، مباني، بضائع..)، بأثمان زهيدة. فبينما ينخر الربا ثروتهم ببطء، تبتلعها سوق البيع الاضطراري دفعة واحدة. أما عمليات الرهن فقليلاً ما تصلح الأوضاع. وأذكر كلمة قالها قروي: حقاً إن الربا شيطان بغيض، ولكنه يؤجل ما تتسبب فيه عمليات الرهن وسندات الضمان من حجز ومصادرة.

ثالثاً، من العبث أن نتصور اقتراضاً عادياً بدون ربح أو فائدة. ولا يخفى ما يؤدي إليه العجز عن تسديد القروض من مضايقات. ولذلك فإنه لا يجدي القول بإلغاء الربا جملة وتفصيلاً. وجميع الدول تبيحه بطريقة أو بأخرى، في حدود معينة.

ويطرح السؤال: كيف يمكن أن نصلح عمليات الربا، بحيث نتجنب ما فيه من سلبيات، ونحتفظ بما فيه من إيجابيات؟ يبدو، من موازنة الأولى بالثانية، أنه لا بد من التوفيق بين أمرين: الأول أن نصقل أنياب الربا لكي لا يؤدي عضها. والأمر الآخر أن نجد الوسائل التي تشجع أصحاب المال على تقديم قروض إلى جميع مستويات التجار من أجل إنعاش التجارة. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا باللجوء إلى نوعين من الربا؛ نوع بفائدة صغيرة، وآخر بفائدة مرتفعة. لأن قروض الفائدة المنخفضة تخفف عبء المقترض العادي. وبما أن تجارة السلع مربحة، عادة، أكثر من غيرها، فإن أصحابها قد يتحملون الربا بفوائد مرتفعة.

ولتحقيق خدمات مفيدة لمن يستثمرون في تجارة مربحة، ومن

يقترضون لأغراض أخرى (شراء سكن، أثاث...) ينبغي السماح بوجود نوعين من الربا: الأول بفائدة منخفضة لعموم الناس؛ والآخر مقيد برخصة، ويخص أصنافاً خاصة من التجارة. ولتكن القروض لعموم الناس بفائدة في حدود خمسة في المائة. ولا شك في أن هذا النوع الميسر من القروض يشجع استثمارات المزارعين، وخدمة الأراضي.

والنوع الآخر من الربا يرخص للمرابين أن يقرضوا أموالهم فقط لفئة خاصة من التجار، بفوائد مرتفعة تتجاوز خمسة بالمائة؛ وينبغي أن تحدد المدن والقرى التي يسمح لهم بتقديم قروضهم فيها.

ويمكن الاحتجاج على هذه الاقتراحات بأنها ترخص لعمليات الربا، إلى حد ما. والجواب هو أنه من الأفضل أن نخفف من مساوئ الربا بالترخيص له، في حدود معروفة، خير من أن نتغاضى عنه، فتستشري شروره وتتفاقم في الخفاء.

الدرس والمطالعة⁽¹⁾



تساعد المطالعة على التسلية والابتهاج في حالة العزلة وأثناء مرحلة التقاعد؛ كما تساعد على إضافة شيء من الزخرفة والتميق على الكلام والكتابة؛ وعلى دعم مهارة المرء وقدراته في تصريف الأعمال والحكم على الحوادث. والخبير الذي يواصل الاطلاع على أسرار مهنته يستطيع أن يحكم على دقائق الأمور وعلى تنفيذها دون عناء.

غير إن قضاء وقت طويل في الدرس والمطالعة يؤدي إلى الكسل؛ والمبالغة في استعمال مواد المطالعة في الزخرفة نوع من التكليف والتظاهر؛ وإصدار الحكم في قضية ما، بالإعتماد على البحث والدراسة هو عادة العالم.

المطالعة تقود الفطرة نحو الكمال، ولكنها لا تكتمل إلا بالتجارب العملية: ذلك أن القدرات الطبيعية تشبه النباتات الطبيعية التي تحتاج إلى تقليمها بالدرس والمطالعة. ويلاحظ أن الأذكيا البارعين يكرهون المطالعة؛ والبسطاء يحبونها؛ والحكماء يستفيدون منها، ويفيدون غيرهم.

لا تجعل المطالعة، وما تحصله من معارف، وسيلة لمناقضة آراء الناس ودحضها؛ ولا تستسلم للقضايا والحوادث كأمر واقع؛ ولكن زنها وتدبر نتائجها.

(1) من مقال عنوانه "of studies" للأديب Francis Bacon (1561 - 1626).

بعض الكتب يكفي للمرء أن يذوقها، وأخرى يمكنه أن يبتلعها، وقليل منها ينبغي أن يمضغها ويهضمها؛ أعني أن بعض الكتب يكفي قراءة أجزاء منها؛ وبعضها يقرأ بكامله، ولكن دون لهفة ولا شغف، وبعضها ينبغي قراءته باهتمام وعناية وتركيز؛ وبعض الكتب يمكن أن نسلمها لمن يقرأها، ويعدّ لنا موجزاً عنها، ويصح هذا في الكتب غير المهمة فقط.

المطالعة تزيد الرجل كمالاً؛ والحوار يجعله مستعداً؛ والكتابة تزيد فكره ونشاطه دقة وانضباطاً. وإذا كان المرء قليل الكتابة يحتاج إلى ذاكرة قوية؛ وإذا كان لا يتحاور إلا قليلاً، يحتاج إلى أن يكون واعياً فطناً؛ وإذا كان قليل المطالعة يحتاج إلى كثير من الدهاء ليبدو كأنه يعرف الأشياء التي جهلها.

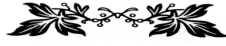
مطالعة التاريخ تجعل الإنسان حكيماً؛ وقراءة الشعر تجعله ظريفاً؛ وإتقان الرياضيات تزيد ذهنه حدة؛ والفلسفة في عمق تفكيره؛ ومطالعة كتب الأخلاق تجعله رزيناً وقوراً؛ والمنطق يزيد في مهارته في المجادلات. والمثابرة على المطالعة تتحول إلى عادة. وليس هناك معوقات في الفكر لا يمكن إصلاحها بالمطالعة المفيدة: كما يمكن إصلاح المعوقات البدنية بالرياضة الملائمة.

لعبة البولينغ تفيد في حالة داء الحصاة والكلى؛ ورياضة الصيد والرماية تقوي الصدر والرئتين؛ والمشي يفيد المعدة؛ وركوب الخيل يريح الرأس وينعش النفس.

ملخصات من الأدب الإنكليزي

وهكذا إذا كان فكر الإنسان تائهاً، دعه يدرس الرياضيات، لأنه إذا غاب فكره عن الموضوع لحظة ينبغي له أن يبدأ من جديد؛ وإذا كان فكره غير قادر على التفريق بين الأشياء والحوادث... فليمارس مهنة المعلم، لأنه يدقق دومًا في الأمور الصغيرة؛ وإذا كان لا يستطيع أن يستحضر المواد ليوضح الأمور، ويفصل بين الإشكالات، فليدرس المشاكل القانونية وضوابطها. وهكذا من الممكن أن يكون لكل خلل فكري علاج مناسب.

عن الحب⁽¹⁾



أرى أن المسرح أليق بالحب من حياة الإنسان الواقعية. فالحب يليق بتمثيل المسرحيات الهزلية؛ وأحياناً يصلح كذلك للمسرحيات المأسوية. أما في يوميات الإنسان ووقائع حياته فهو منبع لآلام متنوعة وعراقيل مثبتة للهمة. والممثلات كثيرات، فهناك المرأة المغوية الساحرة، والمرأة الضارية الحقود المنتقمة....

إذا لاحظنا حياة عظماء الرجال ممن وصلنا ذكرهم، لا نجد واحداً منهم سيطر عليه الحب لدرجة الجنون. وهذا يبرهن على أن العقول الكبيرة، والأعمال الناجحة لا تتناسب مع مشاعر الحب التي توهن الفكر. وكما أنه لكل قاعدة شذوذ، يمكننا أن نقبل بعض الاستثناءات مثل مارك أنطونيو، عشيق كليوبترا وحليفها، الذي كان له نصف الإمبراطورية الرومانية؛ ومثل أبيوس كلاوديوس (عضو المجلس العشاري). فقد كان أولهما رجلاً شهوانياً لا يكبح جماح رغباته؛ وكان الثاني رجلاً صارماً وحكيماً، وأحد أعضاء مجلس العشرة الذي جمع قوانين روما ونظمها⁽²⁾. ومثل هذه حالات نادرة، تدل على أن الحب قد يجد منفذاً كذلك إلى القلوب المحصنة، إذا لم يلتزم المرء بالحدز والاحتياط.

(1) للكاتب الفيلسوف ورجل الدولة Francis Bacon (1561 - 1626).

(2) حدث ذلك في القرن الخامس ق.م.

يروى عن أبيكتاتوس⁽¹⁾ أنه قال: «خلق الناس ليكون كل واحد منهم مسرحاً مفتوحاً للآخرين». وهذا قول عقيم؛ وكأن الإنسان الذي خلق للتأمل في ملكوت السماوات والأرض، يكرس اهتمامه للركوع أمام معبود متواضع، هو الإنسان نفسه، ويُسَخَّر عقله ليكون خاضعاً لنزوات البصر الذي خلق لأهداف سامية.

إن ما تتسم به مشاعر الحب من مغالاة لشيء غريب حقاً؛ إنها لتتحدى طبيعة وقائع الحياة وعظائم الحوادث. ومن ذلك أن الإفراط في وصف الأشياء يعتبر غير لائق، إلا في موضوعات الحب. ولذلك قيل: «ليس من الممكن أن يحب المرء ويظل عظيمًا» والحب أعمى. وقد يتعجب المعشوق كذلك من عمى العاشق وضعف تفكيره، ما لم يكن المعشوق نفسه غارقاً في لجج الغرام. وقد يقابل العاشق الولهان باستخفاف، أو بكراهة سرية من طرف المعشوق.

ولكن إلى أيّ درجة ينبغي للمرء أن يحذر هذه العاطفة الجامحة التي قد تجعله يضيع أهدافه الهامة، بل ويفقد نفسه؟ لقد صدق الشاعر القائل: إن من حرص على كسب هيلينا⁽²⁾ خسر هدايا الإلهة جونو (إلهة السماء)، والإلهة بالاس (إلهة الحكمة). وكم من عاشق فقد الثروة والحكمة والسعادة التي كان يطلبها.

وتتأجج عاطفة الحب في الظروف التي يكون أثناءها الإنسان ضعيفاً، وهي أوقات الانتعاش والازدهار الكبير، وأوقات المحن والشدائد.

(1) فيلسوف إغريقي (341 - 270 ق.م.).

(2) الحسناء التي يروى أنها كانت سبياً في نشوب حرب طروادة.

وعندئذ يبدو الحب كأنه ابن الحماقة ذاتها، والعاشق كأن به مسًا من الشيطان. وينصح من لا يقدر على تجنب هذا النوع من الحب المزري، أن يرفع حاجزًا متيناً بين الحب وبين أعماله ومشاريعه الهامة. لأن الحب إذا تدخل، فإنه يفسد الثروة، ويعرقل إنجاز الأهداف الحيوية.

ولا أدري كيف يستسلم رجال الحرب للحب! ربّما لأنهم يستسلمون للخمر كذلك؛ ولأن ما يواجهون من أخطار يتطلب عادة أن يجازوا بالملذات. ونلاحظ في طبيعة الإنسان ميلاً خفياً نحو محبة الآخرين. وإذا لم يوجه هذا الحب إلى شخص، أو بضعة أشخاص، فإنه ينتشر ليشمل كثيراً من الناس؛ ويجعل سلوك المرء يميل إلى الإحسان وفعل الخير. ويظهر هذا أحياناً في تصرفات الرهبان، ولدى أعضاء الأخويات الدينية.

إن الحب في الزواج يساعد على بناء الأسر وتكاثر البشر؛ والحب بين الأصدقاء يزيد العلاقات كملاً ومثالية؛ أما الحب الشهواني المستهتر فإنه يفسد معنى الحب الطاهر، وينزل به إلى مستوى الحقارة والدناءة.

خير الكلام⁽¹⁾



يفضل بعض الناس، عندما يتحدثون، أن يمدح ذكاؤهم في القدرة على تقديم الحجج، وكان من الأولى أن يمدحوا على براعة حكمهم في تمييز ما هو صحيح ومطابق للواقع والمنطق. فما يمكن أن يقال كثير، ولكن الجدير بالثناء هو محتوى الأفكار.

وبعض الناس بارعون في تناول موضوعات عامة، ولكنهم عاجزون عن الحديث في الموضوعات الخاصة. وخير الكلام أن يلتزم المرء بالموضوع والمناسبة، وأن يجعل لكل مقام مقالاً.

ومن المفيد أن يلجأ المرء إلى التغيير والتنويع ليجنب الناس الملل، وأن يوضح كلامه بالأمثلة والقصص، وأن يخفف الجدّ ببعض الدعابات البريئة المسلية؛ وألا يسهب في الحديث إلى درجة الإنهاك. أما بشأن إدماج المزاح في الخطاب، فهناك موضوعات ينبغي تجنبها مثل العقائد، وشؤون الدولة، وعظماء البلاد، والمساس بأعمال الشخصيات الهامة.

من الناس من يظل ذكاؤهم خامداً، وفجأة يقذف بأسهم جارحة، وأولى لهم أن يكبّحوا جماح ألسنتهم. وكما يقول المثل: اقتصد في المهماز، والجا إلى اللجام. وليس صعباً على المرء أن يفرق بين الملوحة

(1) العنوان: of Discourse.

المؤلف : Francis Bacon (1561 - 1626).

والمرارة. ولا شك في أن الناس يتجنبون من يكثر الانتقاد، ولكن عليه أن يحذر ما تخزنه ذاكراتهم في المقام المناسب.

من يكثر من الأسئلة، ينل مزيداً من المعرفة، هذا إذا وجه أسئلته إلى أهل العلم والاختصاص. وهو بذلك يتيح لهم الفرصة لإبراز معرفتهم وإرضاء أنفسهم؛ شريطة ألا تكون الأسئلة مما يثير المشاكل. وعلى المرء أن يتيح الفرصة لغيره للمشاركة في الحوار.

ينصح المرء أن يقتصد في الكلام عن نفسه، وأن ينتقي ما يقول. وهناك حالة واحدة يمكن فيها للمرء أن يسهب في الحديث، بلياقة وكياسة، وهي عندما يثني على فضائل شخص، شريطة أن يلتزم الصدق. إن مجال الحديث يشبه ميدان التدريبات والمناورات، التي ينبغي أن تجري ضمن مساحة محددة، لذلك يجب ألا تجرح مشاعر شخص، أو يتجاوز الحديث حدود اللياقة والاحترام.

إن التحفظ في الكلام، وتمييز حلوه من مره، أفضل من البلاغة. والكلمة الطيبة في معاملة الناس أفضل من العبارات المنمقة، والأسلوب المزخرف. والاسترسال في حديث مطول، لا يتخلله حوار مفيد، يؤدي إلى الضجر والتبلد...

والإكثار من التفاصيل وسرد الوقائع شيء ممل وثقيل على كثير من الناس، خصوصاً إذا كانت معقدة أو ليست من صلب الموضوع. وإذا كان جواب المحاور غير مرتب، غير مقنع وغير واضح، أو خارجاً عن الموضوع، فهذا دليل سطحية صاحبه وضعف منطقته. والمرء بأصغريه قلبه ولسانه؛ وخير الكلام ما قلّ ودلّ.

الكيميائي المزيف⁽¹⁾



من شخصيات هذه المسرحية:

- لفويت: رب المنزل.
- دابر: كاتب لدى محامي
- جيريمي: الخادم
- سورلي: أستاذ
- صاتل: كيميائي مزيف.
- أنانياس: داعية متعصب.
- مامون: يبحث عن حجرة الفيلسوف. - بلاينت: فتاة حسناء.
- دول كومون: مومس.

غادر السيد لفويت مدينة لندن أثناء انتشار موجة من الوباء، وترك وراءه خادمه جيريمي. وكان سلوك هذا الخادم مشبوهاً، ويعاشر أصدقاء من عالم الرذيلة. وقرر أن يستغل منزل سيده، أثناء غيابه، لأعمال الاحتيال. فاستدعى رجلاً يزعم أنه دكتور في الكيمياء السحرية، يدعي صاتل. وجلب هذا الأخير معه امرأة مومساً.

أعد الخادم لدكتور الكيمياء مجموعة من الأدوات والمواد المخبرية الغريبة، واتفق معه على اقتسام الأرباح التي تدرها أعمال الشعوذة.

(1) العنوان: The Alchemist (مسرحية هجائية).

المؤلف: Ben Jonson (1573 - 1637).

وعلم الناس بما يجري في ذلك المنزل من أعمال السحر، فبدأوا يتوافدون عليه من مختلف الطبقات الاجتماعية: منهم التاجر، والمحامي، والعاشق، والفارس، والداعية، والنساء...، منهم من يبحث عن علاج لمرضه، أو التنبؤ بحظه ومصير مشروعه، ومن يرغب في الحصول على شيء خارق للعادة يكسب به مالاً كثيراً، مثل مامون الذي يبحث عن الكيمياء (حجرة الفيلسوف) التي تحول المعادن إلى ذهب؛ ومن يبحث عن علاج يعيد له الشباب؛ ومن يتطلع إلى علاج يقضي على الطاعون...

وكان صائلاً، الكيميائي المزيف، يتقن العبارات الغامضة التي يلجأ إليها المشعوذون لخداع المغفلين، فاستطاع أن يوهم الناس بقدرته على تلبية مطالبهم، وتحقيق رغباتهم، فراحوا يُدرون عليه من أموالهم وأثاثهم وما يملكون مقابل وعوده. وزعمت السيدة دول كومون (المومس) بأنها من الطبقة الأرستقراطية، وأنها شفيت على يد الكيميائي من جنون أصابها. وكان من بين الزبائن السيد أنانياس، وهو داعية متزمت، جاء يبحث هو الآخر عن حجرة الفيلسوف ليؤثر بها على عقول اللوردات لكي يتبرعوا بالمزيد من أموالهم «للمشروع العظيم».

توسعت عمليات الغش والاحتيال التي قام بها الخادم ودكتور الكيمياء المزيف، وازدهر نشاطهما. وأصبح كل همهم ألا يسمحوا للزبائن أن يختلطوا أو يرتابوا في الأمر، حتى لا يفضح احتيالهما.

وحضرت السيدة بلاينت، وكانت جميلة ممتلئة وثرية، فسحرت بحسنها كلا من الخادم المحتال، والكيميائي المشعوذ. وأثناء ذلك راح

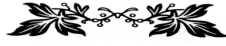
مامون (طالب الحجرة السحرية) يغازل المومس. وبدأت الأمور تتعقد عندما دخل رجل، كان يبدو في هيئة أحد نبلاء الأسبان، وهو في الحقيقة الأستاذ سورلي متتكرًا؛ وزعم أنه لا يحسن اللغة الإنكليزية، فراح الخادم والكيميائي يتحدثان أمامه بحرية.

تحدث النبيل الأسباني طويلاً مع الحسناء بلاينْت، ثم كشف لها عن شخصه الحقيقي، واتفقا على شجب احتيالات الخادم والكيميائي. ولكن الزبائن الضحايا لم يصدقوا كلام الأستاذ سورلي، بل ثاروا عليه ليخرجوه من المنزل.

وبلغت رب المنزل أخبار عن حوادث مشبوهة تجري في منزله، فأسرع عائداً. وسمع الخادم بقدمه، فحرص على أن يظهر بمظهر الخادم الأمين المثالي. وراح يؤكد للحاضرين أن كل شيء على ما يرام. واجتمع الضحايا، ودعا بعضهم رجال الأمن للقبض على المحتالين.

وفي النهاية، وعد رب المنزل ألا يرفع القضية إلى المحكمة، إذا تعهد الخادم بأن يجد له امرأة مطلقاً جميلة وثرية ليتزوجها، وبأن يستغل سحره كذلك ليعيد إليه الشباب. وتزوج رب المنزل السيدة الحسناء بلاينْت، وتستر على جرائم المحتالين، فلم يحصل الضحايا على شيء مما خسروا؛ وراحوا يندبون حظهم، ويلومون طمعهم وجهلهم.

ملتون يكتب إلى البرلمان⁽¹⁾



- أيها السادة، ليست الكتب مادة ميتة؛ بل إنها تضم بين صفحاتها ينبوع الحياة وفعاليتها، تماماً مثل تلك الروح التي أنجبتّها؛ إنها تحفظ، في قارورة، عصارة الفكر الذي أنشأها.

- إنكم عندما تحطمون كتاباً، كأنما قتلتم صورة الإله. بل من يدمر كتاباً مفيداً، كأنه دمّر العقل ذاته.

(1) يعتبر جون ملتون (1608 - 1674) من أعظم شعراء إنكلترا. وهو صاحب «الفردوس المفقود»، و«الفردوس المسترد». واشتهر بكونه كرس جزءاً كبيراً من حياته وكتابات مساندة البرلمان وثورة البيورثانيين (بقيادة كرومويل) في حربهم ضد الملك شارل الأول. وكان البرلمان أصدر سنة 1644 قانوناً يقضي بمراقبة جميع المطابع والمطبوعات، وحظر ما ينشر منها دون ترخيص. فأثار ذلك غضب الشاعر ملتون الذي طالما دافع عن الديمقراطية وحرية التعبير. فوجه رسالته الشهيرة (Areopagitica) إلى البرلمان ساعياً لإقناعه بإلغاء قانون الرقابة المذكورة. وقد ظلت هذه الرسالة على مرّ القرون مصدر إلهام لكل من ناضلوا في سبيل حرية التعبير. وقد اشتق الشاعر لرسالته هذا العنوان من خطاب كان ألقاه Isocrates (436-338 ق.م.)، وهو خطيب بليغ مشهور، أمام مجلس محكمة أثينا الذي عقد على ربوة بالقرب من الأكروبوليس تدعى Areopagus. وهذه مقتطفات من رسالة ملتون إلى البرلمان الإنكليزي.

ملخصات من الأدب الإنكليزي —————

- الكتاب المفيد هو دم الحياة الزكية، فهو لا يقدر بثمن؛ إنه حياة الفكر السماوي، أمكن تحنيطه وكنزه لخدمة الحياة، بعد الحياة.

- من يستطيع أن يسكت جميع الأنغام، والألحان، والأناشيد القدسية التي تتسكب منها الرقة واللطافة، والنعومة والنسيم العليل المنعش؟

- حيثما تشتد الرغبة في التعلم، تنتعش بالضرورة المناقشات، باللسان وبالقلم، وتختلف الآراء، وهذه لدى أهل البصيرة والتبصر هي مصنع المعرفة.

- إنكم لا تستطيعون الآن أن تجعلونا أقل رغبة، وأقل قدرة، على البحث عن الحقيقة، إلا إذا جعلتم أنفسكم أولاً أقل حباً للحرية. كيف يحدث ذلك، وأنتم الذين منحنتمونا هذه الرغبة وهذه الحرية سابقاً؟

- إنه من الممكن أن نعود إلى جهلنا، أن نصبح أغبياء، عبيداً... كما وجدتمونا في أول الأمر. ولكن ينبغي قبل هذا أن تتجردوا من شخصياتكم النبيلة التي عرفناها، وأن تصبحوا مستبدين، جائرين، ظالمين، كما كان الحكام الذين أنقذتمونا من طغيانهم.

- لا شك في أن قلوبنا أصبحت اليوم قادرة، وأن أفكارنا أصبحت أشد

استعداداً للبحث عن الموضوعات الحيوية العظيمة، والفضل في هذا يعود إلى أنكم زرعتم في نفوسنا بذور فضائلكم. فكيف تقدررون على محو تلك الفضائل من نفوسنا؟

- إن تلك القوانين المجحفة (ضد حرية التعبير) تعني أن الآباء يحكمون بالإعدام على أولادهم... ولكن من سيقف بعد ذلك إلى جانبكم؟

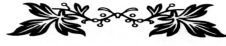
- ولو أن جميع رياح المبادئ والمذاهب انبعثت تهب على الأرض، في كل اتجاه، ثم دخلت الحقيقة ساحة المعركة، فإنه عار علينا أن نغرقها بالقوانين، ونقيّد نشاطها إبان المعركة، لأننا بذلك نحد من قدرتها على الثبات. ولمّ لا نترك الحقيقة تتاجز البهتان والضلال؟ ومتى حدث أن خسرت الحقيقة معركة في مجابهة مفتوحة ضد أعدائها؟

- صدقوني، أيها السادة، إن من ينصحكم بفرض الرقابة على المطبوعات، وإخماد نور المعرفة، كأنما ينصحكم بإخماد أنفسكم.

- ومع أنني لا أنكر حق الدفاع عن الحصانات العادلة، فإنني أقدر ما أتمتع به من أمن وسلام أكثر، لو توقف الأمر عند ذلك.

- أعطوني الحرية لأتعلم، لأعرف، لأعبر، لأناقش بلا قيود، وفقاً لما يمليه ضميري، وذلك قبل جميع الحريات.

تأملات حول الموت⁽¹⁾



إنه لحدث عجيب وغريب ما يحدثه الموت بالإنسان! فكّر في حيوية الشباب، نضرة البشرة، بريق العينين، رطوبة الشفتين، أين تذهب هذه الحيوية كلها؟! فكر في صلابة عضلات ابن خمس وعشرين، وفي مرونة مفاصله، ونشاط ملامحه... وانتقل إلى مشاهدة جثة هامدة باردة بعد بضع ساعات فقط من الوفاة. شاهد ما يحدث من تغييرات رهيبة مُروّعة في وجهه وبشرته وجميع أعضائه. إن الفرق بين الحيّ الميت لمفزع حقاً.

شاهد الوردة عندما تتفتح براعمها في صباح يوم ربيعي. ولكن عندما يهب نسيم حاد يفسد ورقاتها، ويغير لونها، ويذبل شبابها الغض، فتتهدر نحو الشيوخوخة فينحني رأسها، وتتساقط أوراقها، وتفقد عطرها وجمالها. وتسقط بين أحضان الأوراق المنبوذة.

تلك هي نهاية كل حيّ: نهبة للتفسخ والعفن والديدان.. وحتى قبل دفنه، يلقي في غرفة مظلمة، ويتسارع الفساد فيما ظهر من جسده وما خفي، ويهون بعد عز، فلا يكاد الأقرباء يعرفونه؛ لأن التغيير السّريع في الجسد (الجثة) يحدث رعباً مقيتاً، لدرجة أن الناس الذين

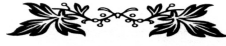
(1) العنوان: The rule and Exercise of Holy Dying (من الفصل الأول).
المؤلف: الأسقف Jeremy Taylor (1613 - 1667).

أحاطوا بالمريض قبل ساعات لتقديم الخدمات الضرورية، أصبحوا الآن لا يستطيعون البقاء في الغرفة التي يوجد فيها الجثمان إلا بشيء من الأسف والقلق.

يحكى أن أميراً ألمانياً رفض أن ترسم له صورة في الحياة؛ ولكنه أوصى رفاقه أن يفعلوا ذلك بعد دفنه. وبالفعل جاءوا بعد دفنه ببضعة أيام إلى قبره، برفقة رسام ماهر، فرسم صورة لجثمانه المهشم والديدان لا تزال تنهش أعضائه المتعفنة. وبناء على وصيته علقوا تلك الصورة، كما هي في مشهدها المؤلم، وسط رسوم أجداده المزخرفة بالنياشين والسلاح، لتكون عبرة وموعظة للأحياء.

... إذا حذفنا ما يحيط بالميت من ظروف زخرفية وشعائر ضوضائية، وأجواء مبهرجة، وطقوس معقدة، وما يصحب ذلك من أناشيد حزينة، وأنين وندب وبكاء ونواح... نجد أن الموت حدث بسيط وسهل، عندما يسود الهدوء. لقد تحمله راعي القطيع والخادمة، والفلاح والأمير... وفي اليوم الذي نرافق فيه نعشاً، يدفن فيه عشرات الآلاف من الحكماء والبلهاء، والأثرياء والفقراء، ولن يفرق الموت بين هذا وذاك.

مقالات عن الشعر المسرحي⁽¹⁾



- نياندرٌ يتحدث:

نبدأ إذاً بشكسبير لقد كان، من بين جميع الشعراء المحدثين، وربما قدمائهم كذلك، صاحب روح طليقة مسهبة، وأوسع إدراكاً وشمولية. كانت جميع مشاهد الطبيعة ماثلة أمامه، وكان يرسمها بدون جهد، بل ببديهة وحسن الطالع: وهو عندما يصف شيئاً، لا يجعلك تشاهده فحسب، بل تحس به كذلك.

أما من يتهمونه بنقص في ثقافته، فإنهم يقدمون له أكبر الثناء والتزكية: لقد ثقفته الطبيعة، فلم يحتج إلى الكتب المقدسة ليقرأ فيها عن الطبيعة؛ بل كان يتأمل داخل نفسه فيجدها هناك.

لا أقول إن شكسبير كان مجيداً في جميع الموضوعات؛ ولو كان كذلك لما قارنته حتى بأعظم الشعراء والأدباء. بل في أحيان كثيرة نجد كتابته رتيبة، تفقد الحيوية واللمعان، وتافهة، عديمة النكهة. وقد تتحدر مشاهدته الفكاهية إلى مستوى التدافع بالأيدي؛ وتتضخم مشاهدته الجدية أحياناً إلى مجرد عبارات طنانة وكلام مزخرف. ولكنه عظيم دائماً عندما تعرض له مواقف عظيمة؛ وما من أحد يستطيع أن يقول إنه عالج موضوعاً ملائماً لفكره، ولم يخلق به فوق رؤوس جميع الشعراء.

(1) للأديب جون درايدن J. Dryden (1631 - 1700).

وفي هذا الصدد، قال أحد كبار النقاد: لا يوجد أيّ موضوع تناوله أيّ شاعر، إلا وتجد أن شكسبير قد تفوق فيه. ومهما نلاحظ أن أناساً في عصرنا يفضلون شعراء آخرين على شكسبير، فإنه، في العهد الذي عاش فيه، كان الشاعر المفضل على جميع معاصريه، ومنهم فلاّتشر⁽¹⁾، وبن جونسون⁽²⁾. وحتى عندما كان هذا الأخير في أوج شهرته، في البلاط الملكي، نجد أن السير جون ساكلين⁽³⁾، ومعه معظم رجال البلاط، يجعلون شكسبير في منزلة أعلى من بن جونسون.

وأتناول الحديث عن الأديبين بومونت⁽⁴⁾، وفلاّتشر⁽⁴⁾، فأشير إلى أنهما كانا يتمتعان بمواهب طبيعية عظيمة، زاد في صقلها الدرس والمطالعة. وكان بومونت دقيقاً وخبيراً في تقييمه للمسرحيات لدرجة أن بن جونسون كان يعرض عليه مؤلفاته لنقدها. ويروى أن هذا الأخير اعتمد على خبرة بومونت وآرائه في تصحيح مسرحياته، وربما كذلك المساعدة على اختراع حبكةها.

والمسرحية الأولى التي حققت لبومونت وفلاّتشر شيئاً من الشهرة هي مسرحية Philaster. وكانا قبل ذلك قد ألفا مسرحيتين أو ثلاثة لم تحقق لهما نجاحاً يذكر. وكذلك بالنسبة لبن جونسون قبل أن يؤلف مسرحيته «كل رجل ومزاجه»⁽⁵⁾. وقد كانت مسرحيات بومونت

(1) Fletcher .

(2) Ben Jonson .

(3) John Suckling .

(4) Beaumont .

(5) Every Man in his Humor .

وفلاتشر، بصفة عامة، أحسن ترتيباً وتنظيماً من مسرحيات شكسبير، وخاصة المسرحيات التي ألفها قبل وفاة بومونت. كما يلاحظ أن هذين الأدبيين (بومونت وفلاتشر) كانا يفهمان سلوك السادة (الجنّلمان) ويقلدان حوارهم أحسن من غيرهما...

أما الظرف والفكاهة التي كان بن جونسون يستمدّها من سلوك بعض الأشخاص، فلم يُولِّه الأديبان اهتماماً خاصاً. وأمّيل إلى الاعتقاد بأن اللغة الإنكليزية بلغت لديهما أعلى مستويات الدقة والكمال. وما زالت مسرحياتهما تقدم للناس كثيراً من المتعة والمسرة. ويعرض منها على خشبة المسرح ضعف ما يعرض من مسرحيات شكسبير أو بن جونسون، ولعل السبب في هذا هو ما يوجد في كوميدياتهما من دواعي البهجة والمسرات؛ وفي مسرحياتهما الجديدة من العناصر المثيرة للعطف والشفقة والعواطف النبيلة. وهو ما يُلائم بصفة عامة، أمزجة كثير من الناس.

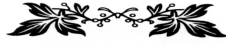
من أقوال جون درايدن:

- الحرب جهد ومشقة وموت، وما الشرف إلا فقعات فارغة؛ وإذا كان العالم جديراً بأن تبذل من أجله جهودك، فهو جدير كذلك بأن تتعم به وتتمتع بطيباته.

- أنا حرّ كما صنعت الطبيعة الإنسان الأول، قبل أن توضع قوانين العبودية الغاشمة؛ قبل ذلك كان الإنسان يركض حرّاً طليقاً في الأدغال.

- عندما أتأمل الحياة أجدها كلها غشاً وخداعاً؛ ولكن الأمل يغري الناس فيوقعهم في حبال المكر والاحتيال.
- يشقى الإنسان ويكدُّ ليجمع الثروة؛ ثم يترك ما جمع إلى مخلوق بلا ريش ولا جناح، يدعى «الابن».
- سعيد من يقول: أيها الغد افعل ما بدا لك، فقد تمتعت بيومي.
- العادات السيئة تتراكم بهدوء تدريجياً، مثلما تشكل الجداول الأنهار، وتتحد هذه نحو البحر.
- الأخطاء مثل عيدان القش، تسبح على سطح الماء؛ ومن يبحث عن الجواهر عليه أن يغوص إلى الأعماق.
- ملذات الحاضر أشد إغراء من الخير البطيء الذي سيأتي غداً.
- الحجة «الدامغة» هي كلمة وضربة صاعقة.
- الموت ليس مخيفاً في حد ذاته، بل المخيف هو المجهول، فالمرء لا يعرف أين سيكون؛ وماذا سيكون.
- إنما يشتد القتال حول المكان الذي يوجد فيه الكنز.
- لعلمي كبرت وأصبحت لا أصلح لحب الغانيات، ولكن قلبي ما زال يهتز لسحر الجمال.

حكاية حوض استحمام⁽¹⁾



... سمعت أحياناً حكاية طويلة في عبارات قليلة؛ وكان من حظي أنني قرأت عبارات قليلة، خالطتها استطرادات مطاطية، فأصبحت تَرَوِي في حكاية طويلة. ولا شك أن حياة الإنسان قد نالت مزايا كثيرة في الحالتين. ولكن يطرح السؤال: لأيٍّ من الحالتين أصبح العالم مديناً؟ أترك الجواب للفضوليين، ولن يرغبون في مزيد من المطالعة.

ويعود اختراع الحالة الأخيرة (عبارات قليلة تحول إلى حكاية طويلة) إلى اهتمام مجتمعنا الحديث بصقل أسلوب الاستطراد وتطويره. ذلك أن ما أدخل مؤخراً على «المعرفة» من أساليب التشذيب والتكرير والتهديب، جعلها تسير في خطوط موازية لما أدخل على أصناف الغذاء في بلادنا من صفات مشابهة، فأصبحت تجهز في تركيبات متنوعة من أطباق الحساء، واللحوم، والمحمرات، واليخنة والخضر المطعمة بالحشائش والتوابل.

(1) العنوان: A tale of A tub.

المؤلف: Jonathan Swift (1667 - 1745).

ملاحظة: توضح هذه المقتطفات جزءاً خفيفاً مما ضمّنه الأديب سويفت كتابه «حكاية حوض استحمام» من النقد اللاذع والسخرية بألفاظ قاسية في هجومه على الخلافات العقائدية. كما أنه يستهزئ بالقيم الثقافية الزائفة، ويعلن استهزاءه بالأدباء المحدثين، ويسخر من أساليب الاستطراد المطول لمجرد ملء صفحات الكتب.

.....

وهكذا تغير مجرى الأمور بيننا وبين قدماء الأدباء، وشعر المحدثون في عهدنا بالفرق، فاكتشفوا طريقاً مختصراً وأسلوباً ممهداً ليصبحوا أدباء وعلماء وفنانين من غير أن يتحملوا عناء المطالعة وعبء التفكير. وأصبح أرقى سبيل في وقتنا للاستفادة من الكتب يتلخص في نقطتين:

الأولى أن تعامل الكتب كما يعامل الناس أسيادهم، يتعلمون ألقابهم (كما نتعلم عناوين الكتب) ثم يفخرون بمعرفتهم.

والطريقة الثانية، وهي أعمق وألطف، هي أن يلقى المرء نظرة شاملة مركزة على قائمة المحتويات، مفتاح الكتاب، ويكتفون بذلك.

وبما أن دخول قصر «المعرفة» من الباب الكبير يتطلب وقتاً وقدرات ملائمة والتزامات مكلفة، نجد من الناس من هو مستعجل، فلا يهتم بمراسم الدخول من الباب الرئيسي، فيأتي قصر المعرفة من الباب الخلفي. ذلك لأن الفنون أصبحت تتطور بسرعة، ومن الأسهل على هؤلاء المحدثين أن يهجموا على «مؤخرة المعرفة».

ألا ترون أن الأطباء كذلك أصبحوا يكتشفون حالة الجسد الصحية بفحص ما يخرج من مؤخرته. وهكذا نجد بعض الناس يحصلون العلم بتركيز ذكائهم على مؤخرة الكتب، كما يفعل الأطفال عندما يرمون الملح على مؤخرة العصافير... وقديماً نصح الحكماء بأن أفضل وسيلة لفهم حياة الإنسان هو النظر إلى نهايته.

الإنسان والمكنسة⁽¹⁾



إن هذه العصا المتواضعة الملقاة في زاوية مهملة، كانت ذات يوم غصنا مورقاً مزدهراً في شجرة، في غابة. وكانت مفعمة بالنسغ، والحيوية، والبراعم، والأوراق. ويحاول الإنسان الآن أن يحاكي الطبيعة، فربط حزمة من الغصينات الذائبة إلى أحد طرفيها. أصبح شكلها الآن عكس ما كان عليه، أشبه بشجيرة أغصانها في التراب.

حكّم الإنسان على ذلك الغصن اليبان، وقد صار مكنسة، أن ينجز عملاً حقيراً، فينظف الأوساخ من الأماكن القذرة. فما أقسى القدر! وبعد فترة من الأشغال الشاقة، على يد خادمة لا ترحم، تبلى حزمة الغصينات وتنتهي معها مهمة المكنسة، فيستخدم الباقي لإشعال النار.

عندما تأملت في حكاية المكنسة، تنهدت بعمق وأسف، وقلت في نفسي: ما أشبه الإنسان بالمكنسة! لقد وضعته الطبيعة أول مرة، في هذا العالم، مفعماً بالحيوية، مزدهراً، قوياً فخوراً بنفسه، ورأسه مكسو بحزمة من الشعر اللامع، شعر يانع مثل حزمة الغصينات على قرعة مفكرة؛ إلى أن يقطع فأس الشهوات الأغصان الخضراء، ويتركه جذعاً ذاوياً.

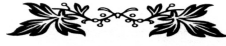
عندئذ، يلجأ المرء إلى الفن، فيربط على رأسه حزمة من الشعر

(1) للأديب J. Swift (1667 - 1745).

المستعار، ليرقع قليلاً من شكله ومعنوياته. وهكذا يظهر هذا الإنسان الشبيهة بالمكنسة على خشبة المسرح، فخوراً بغنائمه الجديدة على رأسه، وهي مكسوة بالغبار والطلاء؛ ويحق لنا عندئذ أن نسخر من غروره.

ولعلك تقول: ليست المكنسة إلا شجرة تقف على رأسها؛ ولكن.. أليس الإنسان سوى مخلوق مقلوب رأساً على عقب، تمتطي قدراته الحيوانية ملكاته العقلية، فتجعل رأسه مكان قدميه، وهو يدبّ على الأرض ديبياً. ومع ذلك، فعلى الرغم من جميع نقائصه، ينصب نفسه لإصلاح المجتمعات، وتصحيح المساوئ والمظالم... ويثير غباراً ودخاناً كثيفاً، فيزيد في ملوثات الأرض ومفاسدها وكوارثها، في الوقت الذي يزعم فيه أنه يطهرها ويصلحها. ويقضي، هذا الإنسان، السنوات الأخيرة من حياته خادماً للنساء، وبصورة عامة أقلهن استحقاقاً وأدناهن شأنًا، إلى أن تذبل أوصاله، وترقّ عظامه، وتبلى قدراته، فإما أن يرمى (مثل المكنسة) خارج المنزل، أو يستعمل لإنارة مشاعل الآخرين، ولتدفئة بيئتهم.

جوزيف أديسون⁽¹⁾



في منتصف الشتاء الماضي، ذهبتُ لمشاهدة أوبرا في مسرح Haymarket . وهناك لاحظت بين الجماهير فئتين من النساء الأنيقات، وقد جلست كل فئة منهن في مقصورة جانبية مقابلة للفئة الأخرى؛ وكأن الطائفتين قد اصطفتا في وضع معركة بينهما. وبعد أن أمعنتُ النظر في كل فئة منهما، لاحظت أن نساء كل فئة وضعت على وجوههن قطعاً من اللصوق تختلف عن القطع التي تجملت بها نساء الفئة المقابلة.

كانت فئة منهن قد وضعت قطع التجميل المذكورة على الجانب الأيمن من جباههن، بينما وضعتها نساء الفئة الأخرى على الجانب

(1) كان جوزيف أديسون (1672 - 1719)، ورتشارد ستيل (1672 - 1729)، زميلين في الدراسة، وصديقين في الحياة العامة. كان أديسون متواضعاً ومجدداً في طلب العلم، منهجياً في عمله. وكان ستيل عكس ذلك، مندفعاً، كثير الإهمال، ولكنه كان ودوداً في مشاعره، حماسياً في علاقاته.

ويعتبر الصديقان أشهر أدبيين اشتركا في نشر مقالات أدبية في جريدتين تهدف إلى معالجة المشاكل الاجتماعية. أصدر ستيل جريدة تحمل عنوان The tatler سنة 1709، توقفت عن الصدور بعد سنتين. ثم اشترك الصديقان في إصدار جريدة تحمل عنوان The spectator سنة 1711. وكان الأدبيان يهدفان بمقالاتهما إلى تثقيف الناس بتحليل الحوادث الاجتماعية، وكذلك إلى إمتاعهم باللجوء إلى أساليب النقد البريء والسخرية الخفيفة.

ويمثل الموضوع أعلاه مقتطفات من مقال للأديب أديسون (Joseph Addison) نشره في جريدة The spectator المذكورة في 02 جوان/ يونيو سنة 1711.

الأيسر. كما لاحظت أنهن يرمين بعضهن البعض الآخر بنظرات حماسية معادية؛ وأن قطع اللصوق التجميلية إنما وضعت في أماكن مختلفة من الوجه للدلالة على الانتماء الحزبي، وللتمييز بين الصديق والعدو.

وفي المقصورات الواقعة وسط المسرح، بين المقصورتين المتقابلتين، جلست مجموعات من النساء وضعت قطع اللصوق على وجوههن دون تمييز، على يمين الجباه أو شمالها؛ و يبدو أنهن أتين لمشاهدة الأوبرا لا غير.

وبعد الاستفسار، عرفت أن فئة النساء الجالسات على يميني ينتمين إلى حزب «الهويغ»⁽¹⁾؛ وأن كتلة النساء الجالسات في المقصورة على يساري ينتمين لحزب «التوري»⁽²⁾؛ وأن النساء الجالسات في مقصورة الوسط يمثلن فئة الحياد، النساء اللواتي لم يضعن بعد على وجوههن علامات التشيع لأحد الحزبين...

ويشاع بأن قطع لصوقات التجميل ستنتقل إلى يمين الجبهة أو يسارها وفقاً لمبادئ الرجل المرغوب فيه، ولجاذبيته. ولكن مهما كانت الأسباب التي توجه ذوات الدلال والغنج، ممن يراعين مصلحتهن الخاصة، إلى هذا الحزب أو ذاك، فقد علمت أن هناك من النساء من يتشيعن بإخلاص لحزبهن، ويضحين بعلاقاتهن بأي رجل في سبيل خدمة المصلحة العامة. وسمعت أنه في مشروع خاص بينود الزواج، اشترطت إحداهن على زوجها أنه مهما كانت آراؤه، فإنها تحتفظ

(1) الهويغ، حزب The whigs، وهو حزب سياسي عرف فيما بعد بحزب الأحرار.

(2) Tories: حزب سياسي هو حزب «المحافظين» اليوم.

ملخصات من الأدب الإنكليزي —————

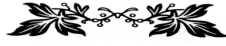
بحريتها في أن تضع إشارة انتمائها الحزبي، حسب اختيارها، على يمين وجهها أو يساره.

وأودّ أن ألاحظ بهذا الصدد أن السيدة رولندا، وهي من أنصار حزب «الهويغ» البارزين، لها شامة طبيعية بارزة على جانب حزب التوري من جبينها، لسوء حظها. وقد سبب لها هذا بعض المتاعب، وأعطى أعداءها عذراً ليتحدثوا عن وجهها، وكأنه بوجود تلك الشامة قد ثار على انتمائها لحزب «الهويغ» المعادي. ولكن السيدة رولندا ظلت وفيّة لأفكارها ومبادئ حزبها المفضل على الرغم من أن الطبيعة وضعت الشامة في المكان غير الملائم من جبينها.

وهناك سيدة أخرى، نيغرانيلا، كانت أسوأ حظاً من رولندا، لأن وجود نقطة على جبينها اضطرتها لتضع قطعة اللصوق على الجانب المخصص لحزب الهويغ من جبينها فقط لإخفاء تلك النقطة الكريهة.

وقد بلغني أن كثيراً من العقائل الفاضلات، ممن كن يعتقدن أن وضع تلك اللصوقات الاصطناعية على وجوههن عمل بغيض، حتى ولو أن ذلك يزيد في إبراز جمالهن أو يخفي بعض عيوبهن، أصبحت هؤلاء السيدات اليوم لا يُعَارِضْنَ تلك اللصوقات (الإعلانية) من أجل إظهار انتمائهن الحزبي. وهذه الطريقة في إعلان الحرب الباردة، بعضهن على البعض الآخر، يذكرني بما يحكى عن النمرة، وهو أن عدد البقع المزركشة على جلدها يتكاثر عندما يشد غضبها.

رتشارد ستيل⁽¹⁾



عندما سجلت أول مرة وصفي للرفقة الذين أقضي معظم وقتي معهم، تذكرون أنني تحدثت عن الحدث المحزن الذي ألمّ بصديقي، السير رُوَجَرَّ، في شبابه، وذلك لما شعر به من خيبة الأمل في حبّه. وقد حدث هذا المساء أننا خرجنا في جولة ممتعة بالقرب من منزله.

وعندما بلغنا منزله، نظر الرجل حوله مبتسمًا وقال: إنه لما يشق عليّ جدًّا أن يوهب أيّ جزء من أرضي إلى من أساءت معاملتي وقست عليّ، مثل تلك الأرملة الشريرة المنحرفة. وإني لا أشاهد أيّ غصن من أغصان أية شجرة من أشجار هذا الدرب إلا تذكرت سوء معاملتها.

لقد كان لها، بكل تأكيد، ألطف يد من بين نساء العالم. وهذا هو المكان الذي كنت أجالسها فيه، وأتأمل ملامح وجهها طويلاً. وبفعل العادة، ما زلت كلما مررت به عاودتني تلك الملامح اللطيفة، فأشعر كأنني حاليًّا أمشي إلى جانب تلك المخلوقة، تحت ظلال هذه الأشجار. وقد دفعني جنون الحب إلى نقش اسمها على عدد من الأشجار. وما أتعس العشاق عندما يحاولون أن يخففوا من حبهم بالأساليب التي تزيده رسوخًا. لقد كان لها أجمل يد بين نساء العالم.

(1) هذه مقتطفات من مقال للأديب Richard Steele (1672 - 1729) نشر في جريدة The spectator في 10 جويلية/ يوليو من سنة 1711. ملاحظة: راجع الهامش رقم (1) من المقال السابق عن جوزيف أديسون.

... وبعد صمت عميق، بدأ السير روجر يقص عليّ حكاية حبه بطريقة رفعت شأنه في نفسي، وزادت تقديري لشخصه. قدم لي صورة عن فكره المرح وروحه البهيجة، قبل أن تحل به تلك الصدمة التي تركت تأثيراً سلبياً بيّنا على كلامه وأفعاله. وتابع صديقي قائلاً:

حصلت على عقاري وأنا في الثانية والعشرين من العمر، وقررت أن أتبع خطى الصالحين من أجدادي ممن سكنوا هذه الأرض قبلي، وأن أتمسك بأساليب الكرم وحسن الجوار، كما فعلوا؛ وأن أمارس ما استطعت من رياضة البادية والاستحمام للمحافظة على صحتي. وفي سن الثالثة والعشرين، اضطررت للنهوض بمهمة عمدة البلد.

وفي إطار مسؤولياتي، ومسؤوليات أفراد فرقة العمل المحيطين بي، لم أقصر في إشباع رغباتي. كانت رغبات فتى لا يسوء الظن بنفسه، بل يستفيد من مهمته في ميدان الخدمات العامة، ليظهر أحسن ما في شخصه وسلوكه من مزايا.

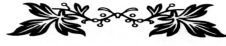
ويمكنك أن تتخيل أيّ انطباع كنت أتركه، وأنا شاب طويل القامة، حسن الهندام، أمتطي أحسن الجياد، ورئيس للمقاطعة، ريشة جميلة على قبعتي، والأنغام الموسيقية تسبقني. وكنت مبتهجاً بالنظرات والالتفات اللطيفة التي كنت أحظى بها من النوافذ والشرفات عندما أركب إلى القاعة التي تعقد فيها جلسات المحكمة.

وعندما وصلت هناك، ذات يوم، شاهدت مخلوقة جميلة، في ثياب أرملة، جاءت إلى المحكمة لتسمع قرار الحكم الخاص بنصيبها

من ميراث زوجها. لقد كانت هذه المخلوقة الحسناء القوية التي خلقت لتحطم قلب كل من يشاهدها، تحمل على وجهها سمات الإذعان والاستسلام، وتستمع إلى همسات من حولها بشيء من القلق المباح؛ وكانت تبدو مضطربة بمشاهدة مسحة من الاكتئاب على وجوه من حولها، إلى أن رممتي بنظرة ساحرة.

وما إن وقعت عليّ نظرتها الصاعقة، حتى انحنيت مثل مغفل صدمته مفاجأة لذيذة. وبما أنني كنت أعلم أن قضيتها تناقش في الصدارة، صرخت مثل العجل المقيد: افسحوا الطريق لشاهد المدعى عليها. وبهذا التحيزّ البين، عرف جميع أهل المقاطعة أن العمدة هو الآخر، أصبح خادماً للأرملة الحسناء.

رسالة عن النقد الأدبي⁽¹⁾



إنه لجرم أن يمتهن النقد ناقدٌ فاشل؛ وأن يمتهن الأدب مؤلف سيئ. فالنقد السيئ أشد خطراً لأنه ينشر الذوق السيئ لدى القراء. والذوق السليم نادر بين النقاد، ندرة العبقرية الأصيلة بين المؤلفين. لا شك أن الطبيعة تمنح معظمنا بعض القدرة على النقد، ولكن الثقافة الخاطئة قد تضعفها. وينبغي للناقد أن يبدأ بمعرفة قدراته وحدوده، لكي لا يفامر وراء الأعماق التي تتعبه؛ فبحر الفنون واسع، وفكر الإنسان، مهما اتسع، يضيق عن استيعابها جميعها.

اتبع الطبيعة، فمعاييرها ثابتة، وضع أحكامك ضمن قواعدها وأطرها. وقد اكتشف الأقدمون معايير وأنظمة للنقد تبرز لنا الطبيعة في صور منظمة ومنهجة...

وهناك عشرة أسباب للنقد الخاطئ: أولها الكبرياء، إذ من النقاد من يرغب في تضخيم أهميته عندما يعالج الموضوعات الأدبية والفنية؛ والثاني هو نقص الثقافة، فالجهل أفضل من المعرفة السطحية؛ والخطأ الثالث هو الحكم على الأعمال الفنية الرائعة من خلال التركيز على عيوب بعض الأجزاء الصغيرة، بدلاً من معالجة الموضوع كوحدة متكاملة؛ فمن المهم أن يراعي الناقد الهدف الأساسي الذي يرمي إليه المؤلف.

(1) العنوان : Essay on Criticism .

المؤلف : Alexander Pope (1688 - 1744).

ومن النقد من يوجه اهتمامه إلى التلاعب بالكلمات بطريقة ذكية؛ ويركز على العبارات اللغوية التي لا تتجاوز كونها لباساً للأفكار؛ ومن يحكمون على الشاعر بناء على طريقة نظم قصائده، مثلهم كمثل من يذهب إلى الكنيسة فقط لسماع الموسيقى.

والخطأ الرابع في النقد الأدبي نجده في الناقد المتشدد المتزمت الذي يبالغ في البحث عن الهفوات، فيصعب إرضاءه؛ ومن هو متساهل متسامح يرضى بالقليل؛ والصواب في تجنب الإفراط والتفريط. فلا ينبغي له أن يثير اعتراضات حماسية لأول خطأ تافه؛ ولا أن يفقد الحكم الصائب المتبصر لمجرد عثوره على عبارات موفقة وأسلوب مزخرف.

والخطأ الخامس أن يطلق الناقد العنان لقلمه متحيزاً لأحكام مسبقة؛ أو أن يقتصر على تحبيذ الأساليب والأفكار السائدة. والخطأ السادس هو أن يبالغ المرء في التحيز لقدماء الأدباء، أو للمحدثين. ومن الجهل أن يوقف المرء إعجابه بأدب اللغات الأجنبية فقط، أو يركز اهتمامه وتقديره على الأدب المحلي فقط.

والخطأ السابع أن يتعلق الناقد بطموحه ليقال عنه إنه مجدد، ومبدع، وقادر على الانفراد بأفكار مبتكرة. والخطأ الثامن هو عدم قدرة الناقد على الالتزام بحكم واحد خلال أربعة وعشرين ساعة. والخطأ التاسع هو التحيز للفريق أو الجماعة، فيمدح الناقد فقط ما يلائم تحالفاته ومن يواليهم.

والخطأ العاشر، وهو أسوأها، هو الحسد. إن أجمل ما ينبغي أن

ملخصات من الأدب الإنكليزي

يتصف به الناقد هو الطبع الودي، المرح، السمع، الهادئ. ومن أفضل ما ينبغي أن يتسلح به الناقد المتبصر هو الجمع بين الصدق، والتواضع، والصراحة، والتهذيب السليم، والإخلاص للفن؛ وأن يجعل هدفه الكشف عن المؤهلات والمميزات.

الدكتور صمويل جونسون يكتب إلى اللورد تشستر فيلد⁽¹⁾



فبراير 1755

سيدي،

أبلغني صاحب جريدة «العالم» بأنكم أرسلتم إليه ورقتين
لنشرهما بهدف تزكية قاموسي لدى الجمهور. وإنه لفخر عظيم أن
أنال هذا الشرف. ولكن بما أنني لم أعود على نيل رعاية العظماء،
فإنني لا أعرف كيف أتلقاها، ولا بأية عبارات أعبّر عن شكر لصاحبها.

فعندما شعرت ببعض التشجيع في الماضي، وزرت سيادتكم أول

(1) نعرف اليوم كثيراً من التفاصيل عن شخصية هذا الأديب الكبير (الدكتور صمويل
جونسون، 1709 - 1784) بفضل السيرة التي كتبها الأديب جيمز بوزويل عن حياته.
إننا نكاد نشاهد بدنه الضخم، ووجه المشوه. وبدلته البنية المهمة، وحيويته
العظيمة، وعقيدته العميقة، ونقتنع بقدرته الرائعة على المحاوراة والمناقشة. لقد كان
رجلاً صادقاً، شهماً، شجاعاً، مستقلاً بتفكيره، ميالاً إلى السيطرة، ولكنه طيب
القلب، رقيق المشاعر. ولنا كذلك صور حيّة عن النادي الأدبي الذي كان يتزعمه.
كان الدكتور جونسون يتوقع أن يحصل على مساعدة اللورد تشستر فيلد (Chesterfield)
ليتمكن من النهوض بتأليف قاموسه؛ ولكنه لم ينل منه شيئاً. فعقد العزم على
إنجاز هذا العمل الضخم دون أية مساعدة. وبعد سبع سنوات من الجهود المضنية،
وقلة ذات اليد، أنهى عمله. عندئذ طمع اللورد المذكور في أن يهدي الأديب قاموسه
إليه، فكتب في جريدة «العالم» مقالاً ينوه فيه بالقاموس المذكور. فرد عليه
جونسون بهذه الرسالة.

مرة، تملكني طيب حديثكم مثل بقية الناس. ولكنني وجدت أن حضوري لديكم لم يحظ بأي تشجيع، لدرجة أنه لا تواضعي ولا كرامتي لم يسمح لي بمواصلة الاتصال بكم. وعندما وجهت الحديث إلى سيادتكم ذات مرة، علانية، استهلكت جميع فنون الترضية التي يحسنها أديب متقاعد مثلي، لا يحسن أساليب التملق. لقد فعلت كل ما أستطيع؛ وما من إنسان يسعده عن أن تهمل جميع مساعيه مهما كانت متواضعة.

لقد انقضت الآن سبع سنوات، يا سيدي، منذ أن انتظرت في قاعات منزلكم الخارجية، أو رُددت من الباب. وظللت أثناء هذه السنوات أجتهد لإتمام عملي في خضم صعوبات لا جدوى الآن من التأسف عليها. وأخيراً وصلت بهذا العمل إلى عتبة النشر، من غير أن أحظى بأية مساعدة، ولا حتى عبارة تشجيع. ولم أكن أتوقع مثل هذه المعاملة لأنه لم يكن لي أي راع أو نصير في الماضي.

ليس الراعي، يا سيدي، هو الذي ينظر دون اهتمام، إلى رجل يصارع الأمواج من أجل الحياة، ثم إذا وصل إلى بر الأمان أغرقه بالإحسان. إن الملاحظات التي تكرمتكم بإرسالها إلى الجريدة حول كتابي تأخرت كثيراً، وجاءت في وقت أصبحت فيه لا أبالي، فهي لا تزيد في سروري ولا في سعادتي؛ وأصبحت وحيداً، فلا أستطيع أن أفصح عنها؛ وأصبحت معروفاً، لست في حاجة إليها.

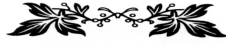
آمل ألا يعتبر من الفظاظلة ألا أعترف بالجميل، لأنني لم أنل أي جميل أساساً؛ ولا أرغب في أن يظن جمهور الناس أنني مدين بجهود

إنتاجي إلى سيد راع، في الوقت الذي وفقني فيه الله إلى إنجازه
بمحض جهودي.

لقد أنهيت عملي هذا بدون التزام أو منة لأي شخص ممن
يرعون العلم والمعرفة...، ولقد استفقت منذ زمن طويل من أحلام
الأمل الذي طالما عززت به نفسي بكثير من التفاؤل والابتهاج.

سيدي اللورد
خادم سيادتكم المتواضع والمطيع
صمويل جونسون

مقدمة لشكسبير⁽¹⁾



.... لا يستطيع المرء أن يقول عن نهر إنه عميق، أو عن جبل إنه شامخ، من غير أن يشاهد أنهاراً وجبالاً أخرى؛ وكذلك فيما يتعلق بالحديث عن العبقرية، لا نستطيع أن نقول عن عمل إنه إنتاج عبقرى حتى نقارنه بأعمال أخرى...

إن الشاعر الذي شرعت الآن في الكتابة عنه، أصبح يعتبر في منزلة كبار الأدباء الأقدمين، ونال تقديرًا وسمعة مستحقين. وقد مرّ على وفاته نحو قرن ونصف، وهي مدة كافية لاختبار الاستحقاق الأدبي. وانتهت الآن، بعد هذه المدة، أية مزايا يكون قد حظى بها أثناء حياته نتيجة عادات محلية، أو تصورات شخصية، أو آراء مؤقتة... وانتهت كذلك آثار التحيز والمحاباة والمنافسات، والصدقات والعداوات التي ربما سادت آنئذ، وكانت ضده أو لصالحه.

إن أعمال شكسبير لا تدعم أو تتاهض آراء أي فرد أو فئة. ولا تخدم غرور أشخاص أو تحاول إرضاء الطبائع الشريرة؛ ونحن نمدحها لما توفره لنا من تسلية ومنتعة. وبوسعنا أن نقول أن إنتاجه المسرحي قد مرّ مكرماً عبر أذواق وعادات متغيرة خلال قرن ونصف من الزمن، من

(1) هذه مقتطفات من مقال عنوانه «مقدمة لشكسبير» بقلم الأديب :
Dr. Samuel Johnson (1709 - 1784).

غير أن تدعّمه المصالح أو تفسده الأهواء؛ وأثناء عبوره من جيل إلى آخر لقي مزيداً من الترحيب والتكريم.

وبما أن الأحكام التي يصدرها الناس لا تبلغ درجة اليقين المطلق مهما اقتربت من الحقيقة، فإنه من المناسب أن نبحث عن الخصائص والامتيازات التي جعلت شكسبير ينال تكريم مواطنيه وإعجابهم ويحافظ على هذا الإعجاب عبر الزمن...

يعتبر شكسبير قبل جميع الكتاب، أو على الأقل كتاب العصر الحديث، شاعر الطبيعة، الشاعر الذي يعرض أمام قرائه مرآة صادقة يشاهدون فيها أخلاق الناس وظروف الحياة وتقلباتها من حولهم. وشخصيات مسرحياته لا تتغير وفقاً لعادات مناطق محددة معزولة عن بقية العالم؛ ولا تتبدل نتيجة لخصائص مهنية أو تطورات محلية، فتكون مقتصرة على فئات محددة؛ ولا تتغير بتقلب الأزياء والأنماط والأفكار المؤقتة؛ بل نلاحظ أن حوادث مسرحياته نتاج يشمل وقائع البشرية؛ وأن شخصياته تعبر عن المشاعر والمبادئ العامة التي تمثل أفكار جميع الناس، وتجعل نظام الحياة يستمر في حركته واتجاهاته المتجددة. وبينما نجد الشخصية في كتابات غيره من المؤلفين تمثل سلوك فرد أو فئة، نجدها عنده تمثل جنس البشرية.

ومن هذا التصميم الواسع، والرؤيا الشاملة يتلقى القارئ من شكسبير قدرًا كبيرًا من المعرفة، إذ نجد في مؤلفاته جيشًا من الأمثال والحكم والأقوال السائرة على ألسنة الناس. لقد قيل عن الشاعر اليوناني يوربديز إن كل بيت من شعره يعبر عن مبدأ سلوكي؛ ويمكن

القول عن شكسبير إننا يمكن أن نجمع من أعماله نظاماً من التدبير والحصافة المدنية والاجتماعية والاقتصادية. ولا تظهر قوة شكسبير في روعة فقرات من كتاباته فحسب، بل كذلك في تتابع حوادث مسرحياته ومغزى حوارها؛ ومن يحاول أن يزكيه بذكر نخبة من مقطوعاته فقط يكون كالرجل الذي خرج لبيع منزله، وأخذ معه قرميدة كعينة.

... ليس لشكسبير أبطال؛ مشاهد مسرحياته يشغلها أشخاص يتكلمون ويتصرفون تماماً كما يعتقد القارئ أنه يتصرف لو كان يقوم بدورهم في تلك الظروف. وحتى عندما تكون البيئة والمشاهد خيالية أو فوق الطبيعة، نجد المؤلف يجعل الحوار في مستوى الحياة العادية... إنه يقرب البعيد، ويبسط ما كان وعراً، ويجعل الحوادث الرائعة مألوفة.

ويلاحظ أن مسرحياته ليست كوميديات أو تراجيديات بالمعنى الدقيق، بل إنها تأليفة من نوع متميز؛ فهي تبرز الحوادث الدنيوية على طبيعتها، بخيرها وشرورها، مباحها ومآسيها، وفي تشكيلاتها المتنوعة التي تعبر عن مسيرة الحياة، وخسارة قوم عند قوم فوائد؛ والمعربد يهرع إلى الخمر؛ والحزين إلى دفن صديقه، وفي بعض الأحيان مرح المازح يهزم مكر الخبيث؛ وفيها تتوالى الحوادث ممتعات، مقلقات، من غير قصد ولا تصميم.

لقد جمع شكسبير بين قدرات تثير الضحك والحزن ليس في فكر واحد، بل وفي مقالة واحدة؛ فنجد في مسرحياته شخصيات هزلية وأخرى جدية، ومشاهد الطيش والمزاح والرزانة والوقار. وتجدر

الإشارة إلى أن النقاد الذين قسموا مسرحياته إلى كوميديات، وتاريخيات، وتراجيديات، لم يميزوا هذه الأنواع على أساس أفكار محددة. فقد رأوا أن العمل الذي تكون نهاية الشخصية الرئيسية فيه سعيدة يعتبر كوميدياً، مهما كانت هذه المسرحية تحتوي مشاهد خطيرة ومؤلمة. واستمرت هذه الفكرة عن الكوميديا فترة طويلة؛ وتواصل تأليف مسرحيات كان يكفي أن تتغير فيها الحادثة الكارثية لتصبح تراجيديات أمس كوميديات اليوم.

والواقع أن التراجيديا في عصر شكسبير لم تكن تختلف كثيراً عن الكوميديا؛ بل كانت تتطلب فقط خاتمة مأسوية ترضي النقاد آنئذ، مهما قدمت من متع خفيفة أثناء سير حوادث المسرحية.

لقد كتب شكسبير الشعر المسرحي في زمن كان العالم فيه مفتوحاً أمامه؛ ولم تكن آنئذ القواعد التي وضعها الأقدمون في ميدان تنظيم ضوابط المسرحيات معروفة إلا لعدد محدود من الناس؛ ولم يكن الجمهور واعياً لأساليب الانتقاد؛ ولم يجد شاعرنا حوله أمثلة نموذجية تجبره على تقليدها؛ كما لم يواجه نقاداً ماهرين يخففون من مبالغاته ويقومون عشراته، ولذلك أطلق العنان لميوله فوجهته إلى الكوميديا.

أما بالنسبة للتراجيديا، فيلاحظ أنه يظهر على كتاباته، في كثير من الأحيان، بعض الجهد، والمطالعة، وقليل من الارتياح. أما فيما يتعلق بالمشاهد الهزلية، فيبدو أنه ينتجها دون عناء؛ ولذلك نلاحظ أنه يحاول جاهداً أن يجد فرصة تسمح له أن يسجل مشهداً هزلياً ضمن تراجيدياته...

وبالإضافة إلى ما أنتج شكسبير من روائع، فإن مؤلفاته لا تخلو من عيوب، ومنها ما يكفي لتغطية حسناته. وسأذكر هذه العيوب، دون أية نية سيئة أو تقديس مفرط تجاه المؤلف. إن حق أديب ميت في التكريم والشهرة لأمر جدير بأن يناقش بكل براءة وبكل حذر وحياد.

العيب الأول شائع لدى الناس، وهو أن شكسبير كان يضحى بالفضيلة لاغتنام الفرص؛ فهو في مسرحياته يهتم بأن يرضي أكثر مما يهتم بأن يثقف ويعلم، لدرجة يبدو أنه يكتب من غير أن يحدد أي هدف أخلاقي. صحيح أنه من الممكن أن نستخلص من كتاباته نظاماً للواجبات الاجتماعية، غير أن ما سجل من أمثال، وأقوال سائرة، وحكم، ومبادئ جميعها كانت تصدر عنه مصادفة؛ فهو لا يسجل الفضائل والمساوى، والخير والشر، بطريقة محكمة؛ ويتابع تصرفات شخصياته، دون تمييز، عبر حوادث الخطأ والصواب؛ وفي النهاية يخرجهم من المسرحية دون أن يهتم بمصيرهم النهائي، تاركاً نماذج سلوكهم تتفاعل بمحض الصدفة. ولا يغفر له هذا العيب ما كان يسود مجتمعه من بربرية، لأنه من واجب الكاتب أن يسعى دوماً إلى تحسين ظروف المجتمع؛ والعدل فضيلة مستقلة عن ظروف الزمان والمكان.

ومن العيوب أن حبكة مسرحياته غالباً ما تكون مهلهلة، وغير محكمة الربط، لدرجة أنها تبدو وكأن المؤلف لا يحيط بتصميماتها إحاطة شاملة؛ وأحياناً يهمل المشاهد الممتعة أو فرص التعليم والإرشاد الأخلاقي التي يقوده إليها تسلسل الحوادث...

ونلاحظ أن المؤلف لا يركز اهتمامه على الجزء الأخير من

المسرحية، وعندما يقترب من النهاية، يختصر الجهد ليقطف الفائدة على استعجال. كما يلاحظ أنه لا يراعى حدود الزمان والمكان، فينسب لعصر أو شعب عادات، ومؤسسات، وآراء.. حدثت في عهود وأماكن أخرى.

وفي المشاهد الهزلية، لا يحالفه النجاح كثيراً عندما يشغل شخصياته بتبادل العبارات الساخرة اللاذعة الماكرة، ولو أن ذلك يتم بذكاء؛ بل نجد هزلهم فظاً، ومداعباتهم غير مهذبة؛ ولا نجد لدى السيدات والسادة من شخصياته من عبارات الرقة والكياسة ما يميزهم عن المهرجين.

ويبدو أن أداءه في التراجيديات كان أسوأ، لأنه كان يبذل جهداً أكبر في تأليفها. وكلما أجهد إمكانياته في هذا المجال، جاء نتاج مخاضه ضعيفاً هجيناً، أو غامضاً مملاً. ومما يؤخذ عليه أنه عندما يلجأ إلى سرد الحوادث، يقصّ وقائع المسرحية بأسلوب طويل وممل، في حين كان يكفيه الإيجاز، لأن أسلوب السرد لا يلائم الشعر المسرحي، لكونه خالياً من الحركة والنشاط، كما أنه يعرقل تتابع الحوادث على خشبة المسرح. وقد انتبه شكسبير إلى هذا الخلل، ولكنه بدلاً من أن يخفف أثره بالإيجاز، حاول أن يخفيه تحت مظهر التفخيم والإبهار...

ولا شك أن تقييم أعمال أيّ رجل لا يكون سليماً إلا إذا تمت مقارنتها بحالة العصر الذي عاش فيه، وبما توفر له من تسهيلات وظروف خاصة... والإنسان بفضوله يحاول دوماً أن يكتشف الوسائل المساعدة، وأن يطلع على مدى البراعة والأثر الفني، ليميز مدى ما ينسب للإبداع في عمل الأديب، وما جاء نتيجة لظروف مواتية

خارجية. إن القصور التي شيّدت قديماً في بيرو والمكسيك هي مساكن متواضعة، إذا قورنت بقصور ملوك أوروبا؛ ولكن لا يلبث المرء أن يعجب بالأولى عندما يعرف أنها شيّدت من غير استعمال الحديد.

لقد استعار شكسبير محتوى مسرحياته، بصورة عامة، من روايات سابقة؛ ومن المعقول أن نفترض أنه انتقى أكثر الروايات شعبية في عصره، لأن رواد مسرحه لم يكونوا قادرين على استيعاب تعقيدات المسرحيات لو لم يكونوا قد عرفوا مسبقاً شيئاً عن الروايات.

كانت مسرحياته، سواء منها التاريخية أو الخيالية، دوماً مكتظة بالحوادث؛ ولذلك كانت تستحوذ على اهتمام المشاهدين البسطاء. كان يجعلهم دوماً يتطلعون باشتياق إلى تطورات حوادث المسرحية. ولعله تفوق على الجميع، باستثناء هوميروس، في تحقيق هدف الكاتب الأول، وهو أن يثير فضول المشاهد ويجعله قلقاً متعطشاً لمعرفة المزيد، حتى النهاية.

لقد حدثت مناقشات كثيرة حول ما إذا كانت إبداعات شكسبير صادرة عن مواهبه الشخصية، أم أنه تلقى قدرًا من الثقافة المدرسية والمعرفة بالنقد وبالمصادر الكلاسيكية مما ساعده على تحقيق منجزاته.

وساد الاعتقاد بأن شكسبير لم ينل قسطاً كبيراً من التعليم النظامي، ولم تكن له خبرة باللغتين الإغريقية واللاتينية، ويقول آخرون إنهم اكتشفوا لديه معرفة واسعة بالموضوعات التي قلد فيها القدماء. ولكنني لاحظت أن كثيراً من آرائه اطلع عليها من كتب ترجمت في عهده؛ وأن ما يرد في مؤلفاته من أمثال وملاحظات وأقوال.. حول

الحياة كانت مما يتداول في الأحاديث السائرة، أو يرد على فكر من يتناول الموضوعات العامة.

وهناك دلائل تشير إلى أن الشاعر كان يهتم بالمطالعة، ولم تكن لغتنا في عهده خالية من الكتب التي مكنته من تعميق ثقافته، دون الاعتماد على اللغات الأجنبية. وقد توفرت حوله مؤلفات كثير من الأدباء الرومان، وعدد من أدباء الإغريق، تحتوي مخزونات من المعرفة كافية لتثري فكرًا قادرًا على استغلالها والإضافة إليها.

لقد جاء شكسبير إلى لندن كمغامر فقير، وكسب معيشته بعض الوقت بتعاطي أعمال متواضعة. ولكن عبقريته لم تكن لتضعف تحت أعباء الفقر، وفي ظل المستوى الثقافي الضيق الذي يعيش في حدوده من كان في ضنك من العيش؛ بل استطاع شكسبير أن ينفذ عوائق الحياة من طريقه، كما ينفذ الأسد قطرات الندى من على عرفه...

ولعلنا لا نجد بسهولة أي مؤلف آخر، باستثناء هوميروس، اخترع الحوادث والوقائع، وطوّر الموضوعات التي تناولها، وأدخل تجديدات كثيرة على عصره، مثل شكسبير. إن شكل المسرحية الإنكليزية، وشخصياتها، ولغتها، ومشاهدها.. من إنتاج قلمه... ولكن ينبغي لنا أن نعرف بأنه كما أننا مدينون له بالشيء الكثير، فهو مدين لنا كذلك. فإذا كان قدر كبير مما ناله من المدح والتكريم هو نتيجة التبصر والنقد السليم، فإن جزءًا من ذلك التكريم ناله بحكم التقدير والتمجيد التقليدي الذي جعلنا نركز بصرنا على حسناته، ونتغافل عن هفواته، ونقبل منه ما لا نتحملة من الآخرين.

لقد كان الناس يقرأون مؤلفات شكسبير، ويعجبون بها، ويتدارسونها، ويقلدونها، في الوقت الذي كانت فيه مشوهة بالأخطاء والعيوب التي كدسها عليها الجهل والإهمال، وقبل أن يتم تصحيح هذه المؤلفات وتوضيح مغزى تلميحاتها. ثم جاء الشاعر Dryden فقال: كان شكسبير ذلك الرجل الذي ملك أعمق روح وأشملها، مقارنة بجميع شعراء العصر الحديث، وربما بشعراء العصور القديمة كذلك.

«فقد كانت جميع مشاهد الطبيعة مطبوعة في مخيلته، وكان يرسمها دون عناء؛ وعندما يرسم مشهداً، فإنك لا تراه فحسب، بل تشعر به. أما من يتهمونه بضعف الثقافة فإنهم يقدمون له أعظم الثناء؛ لأنه شاعر مثقف بالفطرة، فلم يحتج إلى الكتب ليقرأ الطبيعة؛ بل كان يتأمل ما بداخل نفسه فيجدها هناك».

ولا أدعي أن جميع أعماله متناسبة في الجودة، بل نجد إنتاجه سطحياً في أحيان كثيرة، وخالياً من عناصر التشويق؛ ونجد بعض مشاهد الهزلية تتحدر إلى مشاجرات بذيئة؛ وقد تنتفخ بعض مشاهد الجدية إلى عبارات طنانة منمقة؛ ولكن شكسبير يصعد دوماً إلى مستوى القمة عندما يتناول مناسبات عظيمة. ولا يستطيع أي شخص أن يقول إن شكسبير تناول موضوعاً مكافئاً لفكره ولم يصعد بنفسه ليتجاوز جميع الشعراء.

حياة الشعراء⁽¹⁾

(حول قصة «الفردوس المفقود»)



إن مما يؤخذ على قصة «الفردوس المفقود» للشاعر العظيم ملتون، أنها لا تحتوي على تصرفات أو حوادث عادية. فأدم (عليه السلام) وحواء عندما يفعلان فعلاً، ويعانيان من جرائه، هما في حالة لا يمكن لأي شخص آخر أن يجربها. فالقارئ لا يجد في هذه القصة أية عملية يمكن للإنسان أن يندمج فيها، ولا يجد ظروفًا يمكنه أن يشارك فيها بجهد مخيلته. لذلك لا يجد المرء في الحكاية ما يثير في نفسه كثيرًا من الفضول أو التعاطف مع الموضوع.

لا شك أننا جميعًا نشعر بآثار معصية آدم؛ ونحن نخطئ مثله، ومثله ينبغي لنا أن نندم على خطايانا. إننا يحيط بنا كثير من الشياطين الماكرين؛ ولنا في الملائكة الرحماء حراس وأصدقاء؛ ونأمل أن يشملنا الخلاص والغفران الذي تنتظره البشرية؛ وكل واحد منا يجد نفسه بلا شك مهتمًا بأخبار الجنة والنار، لأننا جميعًا سنستقر في نهاية المطاف إما في ملكوت الرحمة أو في ساحات العذاب.

ولكن هذه الحقائق من الأهمية بحيث أنها ليست جديدة على أي

(1) العنوان : Lives of the poets .

المؤلف : Dr. Samuel Johnson (1709 - 1784).

شخص. لقد تعلمناها منذ الصغر، وامتزجت بأفكارنا في حالة العزلة، وأثناء الأحاديث العائلية. فهي حقائق تشكل جزءاً هاماً من نسيج حياتنا. وبما أن هذه الحقائق ليست جديدة فهي لا تثير مشاعر غير معتادة في الفكر. فالمرء لا يتعلم ماله به علم سابق، ولا يجد مفاجأة في حوادث يعرفها.

إن قصة «الفردوس المفقود» تقدم لنا مشاهد رهيبة، يتراجع المرء أمام بعضها بإجلال، ويتقهقر أمام أخرى في رعب، أو يتقبل مشاهد منها فقط كبلاء يخلصنا مما هو أسوأ. إنها مشاهد تعرقل مجال المخيلة ولا تحفزها.

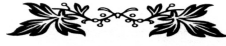
لا شك في أن اللذة والرعب هما المنبعان الحقيقيان للشعر؛ ولكن اللذة الشعرية ينبغي أن تكون مما يمكن للإنسان أن يخضعه لخياله؛ والرعب الشعري كذلك أن يكون مما يمكن للمرء أن يواجهه. أما قصة الخلود فإن خيرها وشرها عبئان ثقيلان لا تتحملها أجنحة الفكر، إنه يريزح تحتها في عجز كامل. ويكتفي بالإيمان الهادئ وبالعبادة في تواضع وخشوع.

لقد أظهر الشاعر ملتون، في معالجة هذا الموضوع المهيّب، مهارة فذة جمع فيها بين عبقرية حماسية، وبين عمق الاطلاع وغزارة المعرفة وسلامة الحكم، والقدرة على استيعاب الموضوع الجلل، وتقليب الرأي فيه؛ وسجل كل ذلك بخيال مجنح فأبرز للناس قصة رائعة. ولقد استطاع أن ينتقي من الطبيعة، ومن التاريخ، ومن الحكايات القديمة،

ومن العلم الحديث، كل ما يوضح أفكاره ويزخرفها. وقد قال أحد النقاد: إن من يقرأ قصة «الفردوس المفقود»، يقرأ كتاب معرفة كونية.

غير أن هذه القصة تعتبر من الكتب التي يعجب بها القارئ، ثم يطرحها جانباً، ولا يعود إليها... فقراءتها ليست للتسلية، بل تعتبر من المستلزمات. فنحن نقرأ للشاعر ملتون نتعلم منه، ثم نخلو إلى أنفسنا منهكين كأننا نحمل عبئاً ثقيلاً، ونبحث عن شيء آخر للاستجمام. فنحن نترك السيد لنبحث عن أصدقاء.

حول تطوير الفنون وحياة الترف⁽¹⁾



ليس من السهل إصدار حكم على «الترف» من وجهة نظر أخلاقية. وهو يعني، بصورة عامة، إشباع الحواس عند وفرة النعم. وأي درجة من الترف يمكن أن تكون حسنة أو سيئة، بناء على سن الرجل، وعصره، وظروف معيشته، وتقاليد بلده. ومن الصعب، في هذا الموضوع، أن نرسم الحدود بين الفضيلة والرذيلة بدقة. ولا يقول عن إشباع أي حاسة أو رغبة من ملذات الحياة، إنها رذيلة إلا شخص تستولى عليه نوبات التعصب.

إن الترف، وإشباع الحواس، لا يكون رذيلة إلا عندما يركز عليه المرء على حساب الفضيلة، فيهمل الواجبات والأعمال الخيرية. ومن يبذّر أمواله حتى ينزل إلى مستوى الفقر والتسول يدخل في فئة الحمقى.

ومن علامات الغباء في السلوك أن يركز المرء اهتمامه على ترف المائدة، مثلاً، ويهمل المتع الثقافية والعلاقات الأسرية والاجتماعية. وهكذا، عندما نعالج موضوع الترف والبذخ، نجد أنفسنا أمام وجهتي نظر.

فأصحاب المبادئ التحريرية يمدحون جميع أنواع الترف، ويقولون إنه يخدم مصالح المجتمع. وأصحاب المبادئ الأخلاقية المتشددة،

(1) David Hume (1711 - 1776) كاتب وفيلسوف إنكليزي.

ينتقدون حتى أنواع الترف البريئة. ومن المفيد أن نحاول تصحيح التطرف في الرأيين المذكورين.

ففيما يتعلق بالرأي الأول، نلاحظ، بناء على معظم النظريات، وبصفة عامة، أن سعادة الإنسان تبنى على عناصر ثلاثة: العمل؛ المتعة؛ الراحة. وتختلف نسب هذه العناصر باختلاف أوضاع الناس ورغباتهم وبيئاتهم.

فمن الملاحظ أن أنواع الثقافات والعادات تؤثر على مدى تركيز الإنسان على أحد العناصر الثلاثة. ففي العهود التي تزدهر فيها الفنون والصناعات، نجد الناس منهمكين في مختلف الأعمال والنشاطات الفنية، سعداء بما توفر لهم أشغالهم من متع وملذات. ولو أننا ألغينا من المجتمع أصناف الفنون، ونبعدها مجرد ترف وبذخ، فإننا نحرم الناس أولاً من فرص العمل في المجالات الفنية؛ وثانياً نحرمهم من ملذات الراحة والرفاهية التي يلجأ إليها المرء بعد العمل الجدي.

ومن مزايا الصناعات وما يتبعها من تطوير الفنون الآلية وصقلها، أنها تساعد على تنمية الفنون الفكرية وازدهارها. ذلك أن روح العصر تؤثر على مسيرة جميع الفنون. فعندما تنهض عقول الناس من سباتها، تدخل مرحلة التخمر، وتنشط في جميع الاتجاهات، وتحديث تحسينات في مختلف النشاطات الثقافية والعلمية.

وبقدر ما تنمو الفنون وتتطور، تنشط العلاقات الاجتماعية وتزدهر... فالفضول يغري الحكماء؛ والغرور يغري الحمقى؛ والمتعة

تغري الجميع. فتنشأ الجمعيات والنوادي؛ ويتوافد الرجال والنساء عليها؛ وتنتعش العلاقات؛ وتتهذب طباع الناس وسلوكهم؛ ويساهم كل حسب فنه وعلمه ومهاراته في إثراء حياة الآخرين. وهكذا نجد أن الصناعات، والمعارف، والإنسانية مترابطة بعضها ببعض الآخر. وهذا من مميزات السلوك المهذب والذوق السليم. وهكذا يسود تدريجياً ما يعرف بعصر الوفرة والترف والرفاهية.

إن ازدهار الصناعات والمعارف والعلاقات البشرية لا يخدم مصالح الفرد والحياة الخاصة فحسب، بل تنتشر منافعه وتأثيراته لتشمل الحياة الاجتماعية. وكما يزيد هذا الازدهار في راحة المواطنين ومتعهم، يزيد في قوة الدولة. فالواقع أن استهلاك السلع الكمالية التي توسع مجالات المتع والزخرفة والترف، يفيد المجتمع لأنه يوفر المزيد من فرص العمل.

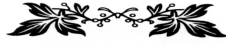
ولتلقت (بإيجاز) إلى ما يعرف بالترف المضر. إنه لا توجد متعة، مهما كانت شهوانية، تعتبر فاسدة في حد ذاتها. فإشباع أي رغبة يصبح ضاراً فقط عندما يستحوذ على مال الإنسان، ولا يترك له إمكانية للقيام بالواجبات والأعمال الخيرية. فإذا أنفق الرجل جزءاً من ثروته في تربية أولاده ومساعدة الأصدقاء والفقراء... وأنفق بعضها ليمتع نفسه في رفاهية وبذخ، لا يحصل أيُّ ضرر للمجتمع.

بل على العكس من ذلك، يؤدي إنفاقه إلى زيادة مستويات الاستهلاك، وهذا يشجع فرص الإنتاج، ومن ثم تتخفض نسبة البطالة. ولكن إذا قلنا بأن نفقات البذخ والترف المضرّ تساعد على توفير فرص

العمل، فإن هذا يعني أن هناك عيباً في طبيعة الإنسان، مثل الكسل، والأنانية، وعدم الاهتمام بمصير المستضعفين. ولكن المهم هو أن الإنفاق على سلع الترف وخدماته يسهم في تشغيل جزء من المواطنين.

صحيح أن نفقات البذخ والترف، إذا تجاوزت الحدود المعقولة، تصبح مصدرًا لعلل ومشاكل فردية وأسرية واجتماعية؛ ولكن إلغاء هذه النفقات يؤدي إلى إضعاف عدد من الصناعات الآلية والفنية؛ تكون نتيجتها البطالة. والبطالة من أسوأ المشاكل التي يعانيها الفرد والمجتمع.

حول دراسة التاريخ⁽¹⁾



أنصح السيدات أن يتخذن مطالعة مادة «التاريخ» وسيلة لشغل أوقات فراغهن؛ لأن دراسة التاريخ ملائمة لثقافتهن، وأفيدُ لهن من كتب التسلية الأخرى. ومن الأمور التي يمكن أن يتعلمنها من التاريخ ما يساعدهن على العيش الهادئ والسكينة: إن جنس النساء (وكذلك جنس الرجال) لَسَنَّ مخلوقات مثالية كما يتخيلن؛ وإن الحب ليس هو العاطفة الوحيدة التي تسيطر على عالم الرجال، بل هناك مشاعر أخرى لا تقل قوة، كثيراً ما تتغلب على سلوكهم، مثل الطموح، والغرور، والبخل وغيرها.

ومن المزايا التي نجدها في مطالعة التاريخ ثلاثة: فهو ينعش الخيال ويسليه؛ ويقوي قدرات التفاهم؛ ويدعم سبل الفضيلة. ويالها من تسلية أن يسرح الفكر في عهود المجتمعات البشرية القديمة، ويشاهدها، وهي لا تزال في طفولتها وشبابها، تقوم بمحاولاتها الأولى في مجالات الفن والعلم؛ ويساير منجزاتها المبكرة المتواضعة، وهي تزحف ببطء وثبات نحو التطور والارتقاء. ويتخيل القارئ أثناء تجواله في مؤلفات التاريخ، صعود الإمبراطوريات الأولى، وتطورها، وازدهارها، وتدهورها وفناءها. وهكذا يستعرض المرء حياة الجنس البشري وهي تمر أمامه في مواكب متتالية، عارية من تلك الأقنعة والمظاهر الكاذبة

(1) David Hume (1711 - 1776) كاتب وفيلسوف إنكليزي.

التي كانت تلبّل مشاهدتها، وتزيّف جوانب من مسيرتها الحقيقية زمان حدوثها، آنئذ .

والواقع أن مطالعة التاريخ ليست تسلية لذيدة فحسب بل إنها من الفنون والعلوم التي توسع مجالات المعرفة بالحقائق والتجارب الإنسانية. وإذا كان التعمق في دراسة التاريخ من شأن المتخصصين، فإنه من الجهل الذي لا مبرر له ألا يطلع المرء، رجلاً كان أو امرأة، على تاريخ بلاده، بالإضافة إلى شيء من تاريخ الإغريق والرومان. وقد يتعرف المرء على سيدة لطيفة ظريفة كريمة الأخلاق، ولكن إذا كان فكرها فارغاً وحديثها متبلداً، فإن ضيافتها لا توفر التسلية التي ينشدها أصحاب الوعي والفكر السليم.

وبالإضافة إلى كون التاريخ جزءاً هاماً من الثقافة، فإنه يفتح الأبواب لعلوم وفنون أخرى. وإذا نظرنا إلى قصر أعمارنا وضيق مجال معارفنا، عندما نحصرها في حاضرنا، فإن مستوى تفهمنا للعالم يبقى محدوداً ما لم نوسع آفاقه بالتاريخ الذي يثري تجاربنا بأخبار الأمم السابقة وتجاربها.

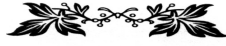
ومن مزايا البحوث والدراسات التاريخية أنها تعرفنا على التجارب البشرية، دون أن تقلل من أهمية السلوكات العاطفية والوجدانية الحساسة. فبوسع الشعراء، مثلاً، أن يصفوا لنا الفضائل بألوان مزخرفة، ولكن بما أنهم يركزون اهتمامهم على المشاعر، فإن أشعارهم كثيراً ما تساعد على نشر الرذائل. بل نلاحظ أن الفلاسفة أنفسهم قد يتيهون في تأملاتهم ودقائق مجادلاتهم، بل نجد منهم من يبلغ به الأمر أن ينكر حقيقة الفوارق أو الاختلافات الأخلاقية.

ويجدر بأهل الفكر والمعرفة أن يلاحظوا أن المؤرخين كانوا، في معظم الأحيان، حريصين على تصوير الحوادث والوقائع بألوانها الحقيقية، ولو أنهم لا يسلمون من الخطأ في الحكم على بعض الشخصيات. ونلاحظ أن ماكيفيلي نفسه، عندما يتحدث كرجل سياسة، يبرر اللجوء إلى القتل والكذب والغش... من أجل الوصول إلى الغاية. ولكنه، عندما يكتب كمؤرخ، وفي أحاديثه الخاصة، نجده يعبر عن سخطه على مساوئ الأخلاق، ويؤكد إنكاره لها. ويذكرنا هذا بقول الشاعر الروماني هوراس، «قد ينفر المرء من طبعه، ويهجره ناقماً عليه، غير أنه يعود إليه عاجلاً أم آجلاً».

ومن السهل تعليل اهتمام المؤرخ بالسعي وراء الحقائق. فنحن نلاحظ في الحياة اليومية، أنه عندما يبدأ رجل الأعمال مهنته، فإنه أول ما يهتم به ويسعى لمعرفته هو التعرف على زبائنه وعاداتهم وتصرفاتهم، وما يتعلق منها بأعماله. أما الفيلسوف فيتأمل سلوك الناس وطبائعهم وهو منزو في مكتبه؛ فتكون بحوثه نظرية، فلا تجد الطبيعة من حوله مجالاً تلعب فيه دورها.

أما المؤرخ فيتخذ موقفاً وسطاً بين نشاطات رجل الأعمال الميدانية، وبحوث الفيلسوف النظرية. فهو يصور وقائع الحياة في تطورها، ويرسم الأشخاص وهم يؤثرون في بيئاتهم، ويتأثرون بها. ولا شك أن تلك الحوادث البشرية تخلق في نفس القارئ مشاعر متباينة تشجعهم على إصدار أحكامهم بالمدح أو الذم. وليس للحكم، عادة، مصلحة خاصة تدفعه إلى تحريف أحكامه، أو تسفيه آرائه.

تأملات حول الثورة الفرنسية⁽¹⁾



لقد مر نحو ستة عشر عاماً منذ شاهدت ملكة فرنسا⁽²⁾؛ كانت عندئذ الدوفينة في قصر فرساي. ومن المؤكد أنه لم يشرق على هذا المكان مشهد أكثر بهجة وروعة من شخصها. شاهدتها من بعيد، فوق مستوى الأفق، تزيّن المحيط الذي تنتقل فيه، وتزيده رونقاً وإشراقاً. كانت تسطع مثل نجمة الصباح، مفعمة بالحيوية والبهجة والسناء.

أواه! يا لها من ثورة! كيف يتحمل قلبي أن يشهد تلك الأبهة والعظمة، وذلك السمو، وهو يسقط، يتدهور، ويتحطم، دون أن ينفعل ويتحطم! لم أكن أحلم أبداً، وبعد ما اكتسبته تلك الملكة من العظمة والتقدير، وما كانت تتمتع به من محبة واحترام، لم أكن أحلم عندئذ أنها ستجبر على تجرع ذلك الترياق المميت؛ ولم أحلم أبداً أنني سأعيش لأشهد تلك المصائب تحل بشخصها، في أمة عرف رجالها بشهامتهم وشجاعتهم ونبيل فروسياتهم. لقد توقعت أن عشرة آلاف من السيوف ستستل من أغمادها لتنتقم حتى من نظرة مربية تهدد سلامتها.

ولكن عهد الفروسية النبيلة قد انقضت، وتلتها عهد

(1) المؤلف : Edmund Burke (1729 - 1797).

(2) هي ماري أنطوانيت، زوجة الملك لويس السادس عشر، وملكة فرنسا، (1774 - 1792). أعدمت بالمقصلة في أكتوبر 1793؛ وكان الملك لويس السادس عشر قد أعدم في جانفي (يناير) من السنة نفسها.

السفسطائيين والاقتصاديين والمحاسبين؛ وانطفأت شعلة الأمجاد في أوروبا إلى الأبد. سوف لن نشهد بعد اليوم ذلك التقدير والوفاء الصادق لمنزلة الإنسان ومقام المرأة. ولن نشهد تلك الطاعة التي ترفع منزلة المطيع وتحمي كرامته. أجل، انقضت العهود التي سادتها طيبة الحياة، وفضائل الأخلاق، والمشاعر الرجولية، والمغامرات البطولية، والنعم الإلهية!

انقضت عهود الشرف والطهارة، والمبادئ والتقاليد الحساسة، وجميع الفضائل التي كانت تكرم الشهامة، وتلطف من مساوئ الوحشية.

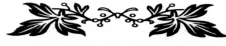
تلك المبادئ التي سادت منذ القدم، هي التي خلقت المساواة النبيلة بين الناس، دون أن تخلط المراتب والمقامات. ثم ورثتها الأجيال المتعاقبة حتى عهدنا هذا. تلك الأعراف والأنظمة والآراء والمشاعر التي طبعت مختلف الطبقات الاجتماعية، هي التي لطفت من أخلاق الملوك، وجعلتهم رفقاءنا؛ ورفعت رجالاً من عامة الناس فقريتهم من الملوك. وهي التي أخضعت وحشية القوة والكبرياء، وجعلت السلاطين يقدرون الاعتبار الاجتماعية، وأخضعت السلطات القاسية لمشاعر الكرامة واللطافة والأناقة واللياقة، وأجبرت المتسلط الذي لا يخضع لسلطة القوانين، لينزل عند حكم العادات والسلوك الحسن والرأي العام.

ولكن كل ذلك تغير الآن. جميع تلك التوهيمات الممتعة التي جعلت الشدة لينة مرنة، والطاعة متحررة، وخلقت تناغمًا بين أطيايف الحياة وظلالها وألوانها المختلفة، وأضفت على السياسة مشاعر تطمئن المجتمعات الخاصة وتلطف من عزلتها، وتزيدها مرونة وجمالاً... كل

تلك المبادئ والفضائل والشمائل والتقاليد ستذوب وتتحلل وتتدثر بسبب سيطرة إمبراطورية النور والعقل.

إن جميع أثواب الحياة الكريمة، وأغطيبتها الأنيقة الرفيعة ستمزق بقسوة. وجميع الأفكار النبيلة التي تراكمت منذ القدم حتى عصرنا في خزانات التخيلات والذاكرة الأخلاقية، والتي ملأت القلوب، وتقبلها الفهم السليم، لأنها تستر عيوب طبيعتنا العارية المضطربة، وترفعها إلى مقام الكرامة... جميع تلك العادات النبيلة والأثواب المزركشة، أصبحت في طريقها إلى الزوال، كأنها طريقة منافية للعقل، وأسلوب حياة قديمة وسخيفة.

تدهور الامبراطورية الرومانية، وسقوطها⁽¹⁾



بوسع جماعة من الفلاسفة، وفئة من أصحاب الثقافة الليبرالية ومن لهم ميل للبحث والاطلاع، أن يتأملوا ويناقشوا، في حدائق أثينا ومكتبة الاسكندرية، المسائل الميتافيزيقية الغامضة. ولكن يلاحظ أن التفكرات الرفيعة، والتأملات السامية والبحوث في قضايا ما وراء الطبيعة التي لم تُقنَع فَهَمَ الأفلاطونيين أنفسهم، ولم تحرك مشاعرهم، لم تُثَرِّ كذلك اهتمام الكسلاء ولا المجدين في البحث.

ولكن عندما نزل الوحي بكلمة الله، وأصبح يدعو إلى الإيمان المقدس، وإلى ممارسة الطقوس والشعائر الدينية التي جاءت بها المسيحية، اعتنق هذا النظام الغامض أعداد متزايدة من الناس في مقاطعات العالم الروماني. وحتى أولئك الذين كانوا غير مؤهلين لاصدار حكم في هذا الموضوع، أو كانوا غير متمرسين في مجالات التفكير المجرد، أصبحوا يطمحون إلى تأمل الطبيعة الإلهية...

وبدلاً من أن ينظر الناس إلى هذه المفاهيم والتأملات الغامضة (حول ذات الإله) على أنها مجرد تسلية في ساعات الفراغ، أصبحوا

(1) هذه نبذة مختصرة من الفصل الحادي والعشرين من كتاب «تدهور الإمبراطورية الرومانية، وسقوطها» للمؤرخ الإنكليزي Edward Gibbon (1737 - 1794). ويعالج المؤلف في هذا الفصل بعض المشاكل التي واجهتها العقيدة المسيحية في عهدها الأولى.

يعتبرونها عملاً جدياً للغاية في الزمن الحاضر، ويرون فيها أفضل سبيل يفيد للإعداد لحياة مستقبلية. وهكذا فإن هذا النظام اللاهوتي الذي من المحتم الإيمان به، ومن الإلحاد الشك في صحته، أصبح موضوعاً مألوفاً لدى الناس في تأملاتهم الخاصة، وفي محاوراتهم الجماعية.

تحول عدم الاكتراث بالموضوعات الفلسفية إلى روح حماسية من التعبد والتقوى والورع. وبعد أن كان المسيحيون يكرهون الميثولوجيا الإغريقية الفظة غير الطاهرة، أصبحوا يلجأون إليها فيستخدمون في مجادلاتهم منطق المشابهة بين صفات «الأب» وصفات «الابن» من أجل الدفاع عن عقيدتهم.

وهكذا أصبحت طبيعة «الابن» (المسيح) في العقيدة المسيحية تعني أنه جزء من إرادة من أنجبه (الأب). وبما أن عملية الإنجاب تعني انتقال خصائص الأب وطبيعته إلى الابن، فإن آباء الكنيسة الأوائل لم يجرؤوا على تقييد قدراته، أو تحديد مدة حياته، لأنه ابن الأب القوي الخالد القادر على كل شيء. ولذلك فإن تبجيلهم الحذر لذكرى المسيح، ورهبتهم من عبادة مبتذلة يكون المعبود فيها مخلوقاً، دفعهم إلى القول بأن المسيح الابن إله مساوٍ في صفاته للإله الأب...

وتجدر الإشارة إلى أن ما تركته تلك الاتجاهات المتناقضة من آثار الحيرة والقلق في نفوس المسيحيين الأوائل، تمكن ملاحظتها في كتابات رجال اللاهوت التي ازدهرت مباشرة بعد العهد الرسولي، وقبل انبعاث الخلافات الأريوسية (نسبة إلى أريوس، وهو كاهن اسكندري،

ملخصات من الأدب الإنكليزي

توفى عام 336 ميلادية، قال بأن المسيح، الابن، لا يمكن أن يكون مساوياً للأب، الرب، في الطبيعة والجوهر).

وتزعم كل من طائفة الأرثوذكس وطائفة الملحدين بأن تلك الكتابات تؤيد وجهات نظرهم. ويعلق أكثر النقاد جدية ودقة: بأنه إذا كان لرجال اللاهوت الأوائل الحظ بأن يملكو دقائق العقيدة الكاثوليكية، فإنهم قد سجلوا مفاهيمهم وأفكارهم بلغة مبهمه وغير دقيقة، وفي بعض الأحيان كانت لغتهم متناقضة.

عند الشدائد.....⁽¹⁾



... لن يخسر أحد المساهمين قرشاً واحداً. فلعل في هذا ما يريح النفوس ويعزيها. وربما يظن البعض أن الشركة قد تعثرت أو انهارت؛ فلنتركهم في ظنونهم بأن عثرتي سترفع من حظوظهم.

وإنه لما يريح نفسي ويعزها أن أتذكر الآن أنني سخرت ثروتي لخدمة كثير من الناس؛ وآمل أن يغفر لي بعضهم زوال نعمتي، في ظروف سادها حسن نيتي وبراءة ضميري، ورغبتني الصادقة في مساعدة المعوزين.

هناك قلوب حزينة في قرية Abbotsford. وقد عازمت على ألا أزورها. وكيف أتجول في قصري بعد أن انكسر كبريائي، وانهزمت جرأتي، وزالت نعمتي. كيف أعيش حياة رجل فقير مدين، بعد أن كنت الثري المبجل؟

(1) بقلم الأديب السير ولتر سكوت (W. Scott - 1771 - 1832). في عام 1825، أتم سكوت تشييد قلعه Abbotsford، وكان في أوج شهرته، عندما بلغه نبأ إفلاس الشركة Ballantine التي كان أحد مؤسسيها. رفض الأديب أن يلجأ إلى الحلول السهلة بإعلان الإفلاس. وعلى رغم أنه كان في الثانية والخمسين من العمر، مريضاً منهكاً، قرر أن يتحمل مسؤولية ديون الشركة جميعها 118.000 جنيه. وبعد سبع سنوات من العمل الدؤوب المضني، سدد جميع الديون. ولكنه توفي عام 1832 نتيجة الجهود التي تحملها. وهذه مقتطفات من دفتر يومياته.

كان من المتوقع أن أزور القصر يوم السبت في أجواء من البهجة والإزدهار لاستقبال أصدقائي. أما الآن، فإن كلابي المسكينة ستنتظر عودتي بدون أمل. لعل الأمر مضحك؛ ولكن التفكير في مفارقة هذه الحيوانات البكماء قد آثر في نفسي، وينبغي أن أبحث لها عن سيّد آخر يكون لها راعياً محسناً. إنني أشعر بها الآن وهي تضع أرجلها على ركبتيّ؛ أسمعها تعوي باحثة عني في كل مكان.

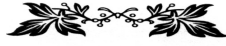
لا أشعر بالإهانة، ولا بالعار، ولا بالإفلاس، بعد الأنباء السيئة التي بلغتني. لقد قمت بآخر جولة في العقار؛ غرست نباتات؛ وجلست في القاعات... وعلى أيّ حال، فلو أن هذه المحنة لم تسلب مني ثروتي، لسلبتها الوفاة. وأولئك الناس المساكين الذين أحببتهم وتعلقت بهم؟

إن ما أخشاه، في خضم هذه الظروف السيئة هو أن أكسر عصاي السحرية، في سقوطي من على ظهر «الفيل» فأفقد سمعتي، بالإضافة إلى ضياع ثروتي...

ولكنني سوف لا أستسلم؛ سأناضل بقوة وعزم. إنه لأمر غريب، فعندما وطنّ نفسي على العمل والكد دون كلل، أشعر أنني «أنا ذلك الرجل نفسه الذي عاش بداخلي»، فلست كئيّبا ولا حزيناً، ولا شارداً الذهن.

وربما شعرت أحياناً، أثناء مراحل حياتي المزدهرة السابقة أن موهبتي الأدبية والخيالية واللغوية بدأت تفتت، ولكنني أجد الشدائد اليوم قد شحذت عزيمتي، ودعمت معنوياتي؛ وقد استيقظ الينبوع من أعماق منابعه، وكأن الكارثة التي هزت نفسي، هزته وفجرتة أثناء زلزالها.

القصائد الغنائية⁽¹⁾



أثناء السنة الأولى التي تجاورت فيها مع السيد Wordsworth⁽²⁾،
دار بيننا الحديث حول العنصرين الرئيسيين في الشعر:

- عنصر القدرة على إثارة مشاركة القراء الوجدانية بالالتزام
بحقائق الطبيعة.

- والقدرة على إثارة اهتمامهم بإنشاء الموضوعات الجديدة التي
تتفنن المخيلة في تصويرها وتلوينها.

وكان المسرح الذي يلتقي فيه هذان العنصران هو تلك المباحج
الابتداعية الساحرة التي تتشرها مصادفات اختلاط الأضواء
والضلال، أنوار غروب الشمس وضوء القمر، وهي تنتقل وتتمازج على
مشاهد الطبيعة المألوفة. ذلك هو شعر الطبيعة.

عندئذ نشأت الفكرة بأن نتعاون على إنتاج مجموعة من القصائد
(القصائد الغنائية) تكون ذات صبغتين. يتناول القسم الأول منها
الحوادث والعوامل فوق طبيعية، في جزء منها على الأقل. وفي القسم
الثاني يتم اختيار الموضوعات من الحياة اليومية العادية. وعلى هذا

(1) العنوان: The Lyrical Ballads.

المؤلف: S.T. Coleridge (1772 - 1834).

(2) W. Wordsworth (1770 - 1850).

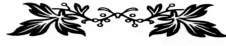
أكبر شعراء الحركة الرومانسية الإنكليزية.

الأساس نشأت فكرة «القصائد الغنائية». وتم الاتفاق على أن تتجه محاولات الشعرية إلى الموضوعات فوق طبيعية، أو على الأقل الرومانسية. على أن نسعى لنخرج من أعماق نفوسنا وطبيعتنا أعمالاً أشبه ما تكون بالحقيقة، فننسج في ظلال المخيلة وأشباهها مشاهد وصوراً قريبة من الحقيقة الشعرية.

وكان الموضوع الذي اتجه إليه اهتمام السيد وردزورث هو أن يسبغ على الحوادث اليومية روعة الجدة والطرافة، وأن يبيث فيها شعوراً يماثل ما يحدثه الفوق طبيعي، وذلك بأن يوقظ اهتمام الفكر من سبات المعتاد والمألوف، ويوجهه إلى عجائب العالم المحيط به. وإنه لعالم يزخر بالروائع والثروات. ولكن ستار العادات، والتركيز على اهتماماتنا الأنانية، جعل لنا عيوناً لا ترى، وآذاناً لا تسمع، وقلوباً لا تشعر ولا تدرك ولا تطمح إلى الاكتشاف.

إن الشاعر، في صفاته المثالية، يغمر الإنسان بكامله في معمعة النشاط؛ إنه يبيث في روحه نغمات الوحدة والتكامل الوجداني، ويجعل أفكاره ومشاعره تندمج، بفضل تلك القوة السحرية التي يطلق عليها اسم «المخيلة». وتظهر آثار هذه القوة في توازن الصفات والخصائص المتناقضة، أو في تناغمها: التماثل مع التناظر، العام مع الخاص، الفكرة مع الصورة، الفرد مع نموذج، الجديد مع القديم، المبتكر مع المألوف، وحالات شعورية إبداعية مع ظروف نظامية معتادة... وبينما تعمل قوة المخيلة على إنشاء مزيج متناغم بين الطبيعي والاصطناعي، تجعل الفن تابعاً للطبيعة، والطريقة منسجمة مع المادة، وإعجابنا بالشاعر تابعاً لتعاطفنا مع شعره.

أول لقائي بالشعراء⁽¹⁾



وفي اليوم الثاني وصل الشاعر وِرْدَزُورْت⁽²⁾ من بريستول إلى منزل الشاعر كولريدج⁽³⁾. كان يرتدي ثياباً جذابة، يبدو نحيلاً، وفي مشيته شيء من التكاسل والتموج، وعلى صدغيه ضرب من توتر التفكير، وفي عينيه شيء من اللهيب؛ له جبهة عالية، أنف روماني، وفي خديه بعض التجاعيد من أثر الإحساس والتصميم؛ وعلى فمه ميل تشنجي إلى الابتسام، على خلاف ما يبدو على وجهه من تعبير الجدية والجلال.

جلس وردزورث وتحدث، وكان يخالط صوته نبرات فياضة واضحة ونغمات عميقة... وفي اليوم التالي ذهبنا، مرة ثانية إلى All-Foxden⁽⁴⁾ وقرأ لنا وردزورث قصته المعنونة Peter Bell في الهواء الطلق. يوجد في قراءة كل من الشعارين نغمات تفعل فعل السحر على المستمع، وتجرده من أي رغبة في إصدار الحكم على الموضوع. يلاحظ أن طريقة كولريدج في السرد حيوية تمتاز بنغمات جمهورية متنوعة؛ وطريقة وردزورث رصينة، عميقة قوية. ويمكن أن

(1) للمؤلف William Hazlitt (1778 - 1830) الذي يعتبر أهم كاتب للمقالات وناقده في عهده. ويحدثنا في هذه المقتطفات عن لقائه بشاعرين من شعراء الحركة الرومانسية في إنكلترا هما: Wordsworth وكولريدج.

(2) William Worsdworth (1770 - 1850).

(3) S.T. Coleridge (1772 - 1834).

(4) منزل الشاعر وِرْدَزُورْت، يبعد بضعة أميال عن منزل الشاعر كولريدج.

ملخصات من الأدب الإنكليزي

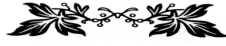
يوصف صوت الأول بأنه أقرب إلى الأسلوب الدرامي، وصوت الثاني أقرب إلى الغنائي.

قال لي كولريديج بأنه يفضل أن ينشئ القصيد . وهو يتجول حول أرض غير معبدة، أو خلال الأغصان المتعانقة في الأدغال؛ بينما كان وردزورث ينشئ، عند الإمكان، وهو يغدو ويروح على طريق معبد، أو في مكان لا يوجد فيه ما يعرقل تواصل تفكيره.

وعندما عدنا في المساء، دخلت في مناقشة ميتافيزيقية مع وردزورث، بينما كان كولريديج يشرح لأخته نغمات العنديلين. وهكذا قضيت ثلاثة أسابيع في صحبة الشاعرين.

وكنا نخصص فترات بعد الظهر للأحاديث الممتعة، تحت سقف مغطى بلحاء الشجر، جالسين في ظلال شجرتين من شجر الدردار، نستمع إلى طنين النحل من بعيد، ونستمع بمشروبات منعشة.

عن الأديب سويفت⁽¹⁾



إن قدرة سويفت الطبيعية، وعبقريته المبدعة في النثر، غطت على سمعته كشاعر. ولو أنه لم يؤلف «رحلات غاليفار»، أو «حكاية حوض»⁽²⁾، لبقى اسمه كشاعر خالداً عبر الأجيال.

إننا نجد في أدبه الدعابة الجافة، ونغمات السخرية اللذيذة، ولمحات صريحة تنعش التفكير، وتثير الشفقة، كل هذا مختلطاً بمسحة من المزاح اللاذع والهجاء النزواتي.

كان سويفت من أشد الأدباء إحساساً بما يجري حوله، واشتهر بكونه شديد الاهتمام بالتوافه. فقد كتب أشعاراً فيها غرابة وتفاهة ولا مبالاة، ولكنها لم تؤثر على سمعة الأديب العبقرى.

ويعتبر مقالة «حكاية حوض» من أبرع الموضوعات الأدبية، من حيث الفكر، والفتنة، والأسلوب. وكان هذا المقال سبباً في حرمانه من منصب أسقف، بدعوى أنه ينقصه الوقار والرزانة.

أما حكايته «رحلات غاليفار» فهي عمل عبقرى حقاً، فيه اختراع

(1) العنوان: On Swift.

المؤلف: William Hazlitt (1778 - 1830).

ملحوظة: الأديب سويفت، صاحب «رحلات غاليفار» الشهيرة.

(2) Tale of a tub.

وإبداع يحركان عوالم مختلفة. لقد كان يهدف في حكايته الخيالية إلى نزع أقنعة الغرور، وأوهام العظمة من حياة الإنسان. لجأ فيها إلى تضخيم الأحجام وتصغيرها ليكشف تفاهة ما يشين سلوك الإنسان من أنانية وجهل وكبرياء... وكتب حكايته بأسلوب يجعلها في مستوى إدراك الكبار والصغار. وحاول فيها أن يعرف الإنسان على حقيقته: من هو، وما ينبغي أن يكون عليه حاضره ومصيره.

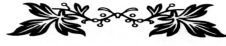
حاول سويفت أن ينزع الأقنعة عن وجوه المحتالين، والأفاكين، والدجالين... وإنه لما يقلق النفوس النبيلة ألا تستطيع أن تميز بين الحق والباطل، والخير والشر.

ويعتبر سويفت، إلى جانب فولتير ورابلية، من بين عباقرة السخرية والنقد اللاذع، في العصر الحديث؛ ولكن أسلوب سويفت في سخريته (وخاصة في نثره) كان عملياً، جدياً ومريراً. أما رابليه، فكان أسلوبه في السخرية خيالياً ومرحاً؛ وكانت سخرية فولتير مرحلة خفيفة ومسلية.

كان عنصر السخرية لدى سويفت ينبع من إحساسه الحاد أمام مشاهد التصرفات الاجتماعية غير الإنسانية، ومن قلة صبره تجاه الأعمال المنافية للعقل. وكان لجوؤه أحياناً إلى تناول الموضوعات التافهة نوعاً من الاسترخاء يريح به نفسه وفكره من الحوادث الجدية المريرة التي تقلق ضميره. وكان خياله ينبع من تفهمه الموضوعي الجاف، وإدراكه الصامد لوقائع الحياة اليومية.

وكان اختراعه البارع لحكاية غاليفار الخيالية محاولة للابتعاد عن حوادث عالمه المؤلمة، وانتقاداً وتوعية للإنسان. ولقد جعله نفاذ صبره يرى عيوب ذلك الطفل الكبير، العالم، وعجزه عن معالجة أوضاع البؤس والظلم والحرمان...، بنفس النظرة الحزينة المتفحصة التي يرى بها الأب عيوب طفله، وهو عاجز عن معالجته.

مانفريد⁽¹⁾



مانفريد وحده في قلعة قوطية في جبال الألب، يتأمل ويستعرض حياته، فيجد أنه اختبر جميع التجارب الإنسانية، فلم تترك أيّ منها تأثيراً عميقاً في نفسه. يدعو الأرواح ثلاث مرات، فتحضر لديه وتساّله ما يريد منها:

- لبيك، هانحن: الأرض، البحار، الهواء، الليل، والجبال والرياح،
ونجم مصيرك... ماذا تريد منا، يا ابن الطين؟

- أريد منكم العفو، النسيان.

أجابته الأرواح بأنها لا تستطيع أن تتجاوز حدود إمكاناتها. فطلب منها مانفريد أن تتخذ أشكالها الحقيقية المرئية. عندئذ ظهر نجم مصيره في هيئة امرأة جميلة، وحاول مانفريد أن يلمسها، فاختفت بسرعة.

بقي مانفريد وحيداً فوق منحدرات جبال الألب الشاهقة، يشكو مصيره، وقد أهملته الأرواح؛ وأصبح لا يجد في الطبيعة من حوله ما

(1) العنوان: Manfred

المؤلف: G.G. Byron (1788 - 1824).

- مانفريد: دراما شعرية في ثلاثة فصول، تمثل ثورة بايرون ضد التقاليد الاجتماعية. وهي مسرحية خيالية، شبه فلسفية.

ينعش اهتمامه بالحياة. وكان على وشك أن يرمي بنفسه من أعلى جبل شاهق، لولا أن أحد صيادي طباء الألب جذبته إليه، واصطحبه إلى كوخ قريب، فقدم له النبيذ، وطمأنه. غير أن مانفريد ظل قلقاً كئيباً، لا يرى في كأسه إلا صورة عزلته ونفوره من البشر.

ظن الصياد أن مانفريد أصيب بنوع من الجنون، فطلب منه أن يطلب العون من أهل الدين والورع، وأن يتمسك بالأمل والصبر. أجابه مانفريد بأن الصبر يصلح للحيوانات التي تحمل الأثقال، وليس للطيور التي تحلق في السماء.

بقي مانفريد وحده في الجبل، والتقى بساحرة الألب، فأبدت رغبتها في مساعدته. عندئذ أفرغ لديها ما يعتلج في نفسه من أحزان وهموم، وقال: منذ شبابي، لم ترافق روحي أرواح الناس، ولم تنظر إلى الأرض بعيون الناس؛ لم ترض بطموحاتهم الجامحة، ولا بأهدافهم هدفاً لها؛ وقد اختلفت مباحجي، وأحزاني، ومشاعري؛ وقدراتي، فأصبحت غريباً بينهم، فأنا لا أرتاح لهم وإن كنت أشبههم في الشكل.

وهنا يصرح الشاعر بايرون، على لسان بطله مانفريد، ببعض همومه، ويعرب للساحرة عن حزنه لفراق زوجته، قائلاً:

- لقد أحببتها، وحطمتها!

- بيديك؟

- بل بقلبي الذي حطم قلبها.

ويعترف مانفريد بأنه يشعر بالراحة والاطمئنان بين الأرواح
الناقمة أكثر مما يشعر به بصحبة الناس. وتطمئن الساحرة لقوله،
فتطلب منه أن يرافقها، وتعهده بأنها ستساعده على تحقيق رغباته، إذا
وعدها بالطاعة. ورفض مانفريد ذلك قائلاً بأنه ينبغي للمرء أن يصنع
مصيره وحده، حتى ولو كان يبغض المحيط الذي يعيش فيه. ويقول:

إننا مجانين الزمن، مجانين الرعب،

فالأيام تتحدر، تتدفق، وتسرق منا حياتنا؛

ومع ذلك، فعلياً أن نواصل الحياة، رغم كرهنا

لها، وخوفنا من الموت.

واقترب الليل، فراح مانفريد يدعو الروح التي تتحكم في مصيره.
وبعد فترة نجده ينعم بالهدوء، والصفاء، والرضى، وهو يستمع إلى
أصوات الأرواح المكلفة بمصائر الناس، فأكدت له بأنه سيجد الراحة
الحقيقية:

إن قلوب البشر بين أيدينا؛

وقبورهم تحت خطوات أقدامنا؛

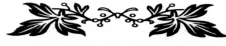
ولكننا لا نمنح إلا لناخذ أرواح عبيدنا.

جلس مانفريد ينتظر مصيره، وجاءه رئيس الدير لينقذ روحه.
قال مانفريد: إن ذنوبه إنما هي بينه وبين السماء. وعلى الرغم من

عبارات المواساة والسلوان التي تفوه بها الراهب، رفض مانفريد الاعتراف بأن رجلاً عاش منعزلاً طوال حياته، يمكنه أن يتغير ويندمج من جديد ضمن الجماهير التي يكرهها. ولم ينجح الراهب في إقناعه.

وبعد فترة، رجع الراهب والأرواح لمحاولة أخيرة، رغبة في إنقاذ روح مانفريد. ولكنه رفض الخضوع لطلبهم، وقرر ألا يسلم روحه إلا للموت، شريطة ألا توجهه لا إلى الجنة، ولا إلى الجحيم. لقد كان راضياً بالموت، ولكنه رفض أن يضمن ولاءً هو نفسه لا يشعر به.

كارليل⁽¹⁾ يتحدث عن بيرنز⁽²⁾



يقول الأديب كارليل إن بيرنز واجه منذ بداية حياته معوقات عديدة، منها الفقر، وانخفاض وضعه الاجتماعي، ونقص التعليم. وعلى الرغم من هذه القيود والصعوبات، نجد في إنتاجه ميزات الصدق والصرامة وقوة العزيمة. لقد كان فناناً أصيلاً، ذا موهبة شعرية فذة.

كان فكره نشيطاً متوازناً. استلهم شعره من نقمته على الأوضاع؛ ومن حبه للناس؛ ومن الظرف والدعابة؛ وتناول موضوعات الحياة المتواضعة فوصل إلى قلوب عامة الناس؛ وامتاز عن غيره بقصائده الغنائية، وهو مجال لم يجاره فيه أحد في الأدب الإنكليزي.

ويقول كارليل إن مجال حياته اقتصر على مرحلة واحدة، هي مرحلة الشباب. كان شبابه ممزقاً بين حبه للشعر، وبين ضعف عزمته على تحقيق نفسه في المجالين الاقتصادي والاجتماعي. كانت حياته تتلخص، في إحدى مراحلها، في الانغماس في اللهو والملذات؛ وفي مرحلة أخرى يضيع وقته في إطار فرقة اجتماعية استغلته كذلك لأغراض التسلية لما عرف عنه من حسن الحديث وميله إلى حفلات المرح والشراب مع الأصدقاء.

(1) Thomas Carlyle (1795 - 1881).

(2) Robert Burns (1759 - 1796)، شاعر اسكتلندا القومي، ومن أقرب الشعراء إلى قلوب من قرأوا شعره.

وفي نهاية المطاف لم يكن لدى الشاعر بيرنيز إلا واحدة من ثلاث للخلاص مما اتسمت به حياته من إخفاق:

- أن يركز على هدف هام، وهو نظم الشعر، بكل جدية وعزيمة.

- أن يفشل وينهزم، ويستولى عليه الجنون.

- أن يستسلم لحياة المجون، فتخور قواه ويموت.

ويرى كارليل أن شاعر اسكوتلندا، بيرنيز، فشل لسببين:

1 - انعدام مبدأ أخلاقي ينظم حياته؛

2 - عدم تركيزه على هدف رئيسي محدد يجعل لحياته معنى.

ويوضح كارليل بأن شعب اسكوتلندا كان يحب بيرنيز، ويعجب به، ليس لكونه خرج من وسطه، بل كذلك لأنه أديب كبير أعطى أهمية خاصة لهجة المحلية المتعلقة بحياتهم اليومية، بالإضافة إلى اهتمامه بالحوادث الوطنية التي تتعلق بتاريخهم وأساطيرهم.

ويشير كارليل إلى أن سبب فشل بيرنيز في حياته كان كامناً في نفسه، وفي أسلوب حياته، وقد أضاع كثيراً من وقته وطاقاته هدراً في مسليات فارغة، ووسط جمعيات لم ينل منهم شيئاً. وأشاد بمواهبه العظيمة؛ لكنه تأسف لأن فوضوية الأهداف في حياته عرقلت إنجازاته، بل وساهمت في القضاء على صحته وحياته.

ويذكر كارليل عدداً من الأدباء والفلاسفة الذين عانوا مثلما

عانى بيرنز، بل أكثر، مثل الفيلسوف Locke الذي اتهم بالخيانة، ونفي من بلاده؛ والشاعر ملتون الذي فقد بصره وعاش منبوذاً من السلطات؛ وسيرفانتس الذي ألف كتابه الشهير «دون كيشوت» بينما كان جندياً جريحاً وسجيناً... ويقول كارليل إن هؤلاء كانوا يتمتعون بمزيتين لم يتمتع بهما الشاعر بيرنز: مبدأ عقائدي أخلاقي متين؛ وهدف واحد كرّسوا له نشاطهم؛ وكانوا يخدمون العقيدة، والحكمة، والوطن. ويشير إلى أنه من العوامل التي ساهمت في نجاح قصائد بيرنز الغنائية:

-صدق الشاعر؛ وشكل الصيغ الموسيقية في شعره؛ ورقة النغمات والتعبير؛ وتنوع الموضوعات التي تناولها. فقد نظم في جميع المشاعر والانفعالات الإنسانية، وتغنى بها.

عبر بيرنز بعمق وقوة عن مشاعره نحو الحيوانات والنباتات، فله قصيدة عن شعوره بالألم عندما هدم بمحراثه جحر فأر؛ وأخرى عبر فيها عن شعوره بالأسى والندم لأنه اقتلع جذور «زهرة الجبل» عن غير قصد. وشبه مصير هذه الزهرة بمصيره كشاعر يواجه الإفلاس. وله قصيدة يعبر فيها عن مشاعر صادقة ومؤثرة، وهو يودع صديقاً؛ وله قصائد يهاجم فيها مظالم الأمراء، وينتقد انعدام المساواة الاجتماعية بين الناس.

ويعتبر بيرنز عندليب الشعر الشادي. فقد نظم مئات المقطوعات الغنائية التي تمتاز بالرقّة و التناغم وبساطة الأسلوب السهل الممتع.

كارليل يبدأ من جديد⁽¹⁾

(لندن، 23 مارس 1835)



أخي العزيز،

... اقترض ميل⁽²⁾ الجزء الأول من كتابي «الثورة الفرنسية» ليقرأه ويسجل تعليقاته التي يمكن إضافتها كملاحظات. وشرعت أنا في إعداد الجزء الثاني. كنت أكدح وأبذل جهداً كبيراً، وأشعر بحرية وثقة في نفسي لم أشعر بمثلها منذ سنوات.

و ذات مساء، قبل نحو ثلاثة أسابيع، سمعنا طرقتاً على الباب، فنهضت زوجتي جين وفتحت الباب، كان الطارق هو صديقي ميل. ولكنه وقف صامتاً، حائراً، وجهه مصفر، وعلى ملامحه علامات اليأس، لا يكاد يفصح عما في نفسه. وبعد لأي، سمعنا منه أن مخطوطي قد احترق، باستثناء بضع صفحات ممزقة. فقد تركه على

(1) كان الأديب توماس كارليل في سنة 1835 قد أنهى تأليف مخطوط الجزء الأول من كتابه «الثورة الفرنسية»؛ فقدمه إلى الفيلسوف جون ستيوارت ميل لقراءته. وذات يوم ترك ميل المخطوط مبعثراً على طاولة مكتبه، فظنت الخادمة أنه ورق مهمل، فأشعلت به الموقد. وفي هذه الرسالة يشرح كارليل لأخيه ما حدث لمخطوطه. وفي عام 1837، انتهى الأديب من إعادة كتابة مخطوطه.

(2) J.S. Mill (1806 - 1873)، ألف في الفلسفة، والاقتصاد السياسي؛ وهو داعية مذهب المنفعة، وهو مذهب يرى بأن هدف السلوك البشري ينبغي أن يكون: تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس.

ملخصات من الأدب الإنكليزي —————

مكتبه، بشيء من الإهمال، فظنته الخادمة ورقاً مهملاً، وأوقدت به المدفأة. وهكذا ذهبت جهود خمسة شهور في لحظة في شعلة الموقد ودخانه.

لا أذكر أنني عانيت في حياتي صدمة بهذه الأهمية؛ لقد كان حدثاً موجعاً حقاً... والمؤلم أنني كنت قد نسيت ليس منهج المخطوط وطريقة ترتيبه وهيكله حوادثه، بل الأسوأ أن الروح والحيوية التي رافقت تأليفه كانت قد انقضت. ولم يبق في ذهني سوى الانطباع العام والإحساس المنعش بأنني كنت راضياً عما أنتجت، وأنه قد أصبح من الصعب عليّ الآن أن أتى بمثله.

بقي صديقي ميل برفقتنا حتى منتصف الليل، وظللت أحاول أن أواسيه وأهون المصاب عليه. وكنت وزوجتي نحاول أن نوجه الحديث إلى موضوعات أخرى. وأخيراً، استطعنا، بعد ذهابه، أن نطلق العنان للتعبير عن تفجعنا وألمنا لما حدث. لقد كانت زوجتي نعم المواسي والمعزى؛ ولم نسمح للمصاب أن يكسر عزيمتنا.

كانت تلك الليلة قاسية عليّ؛ كأن ثقلاً كان يضغط على قلبي من حين إلى آخر؛ وكانت تراودني أحلام غريبة. ولكن لم تخل نفسي من بعض الأفكار المنعشة التي تبعث فيها أمل النجاح. وفي اليوم التالي كتبت إلى السيد فريزر (الذي كان قد أعلن عن إعداد الكتاب للنشر) لأبلغه بضياع المخطوط... وأن لا يعلن عنه إلى أن أعيد تأليفه وطلبت منه أن يبعث لي ببعض الورق الجيد، وبمجلدات «التراجم العالمية».

أعدت تنظيم مكتبتي؛ وبعد أن أنهيت من القطعة التي كانت بين

يديّ، بدأت من البداية. والآن، بعد جهود مضنية، أقدر أنني سأنتهي من تأليف الفصل الأول بعد غد؛ لن يكون أسوأ مما كتبت سابقاً، ولكنه مختلف عنه إلى حد كبير.

وهكذا، أشعر أن مرارة الصدمة قد مرت. ولك أن تتخيلني أتعب وأكثّر خلال أسابيع كثيرة لمواصلة هذا العمل. ذلك هو نسيجي الذي انحل وانتسل، يا عزيزي جاك، وكما ترى، فإنني أسعى لنسجه من جديد. الثريد جاهز الآن؛ سأتوقف عن الكتابة؛ وأذهب بعد هذا لأنعم ببعض النوم. ليلتك سعيدة، أخي العزيز.

المخلص دائماً

(من رسائل كارليل)

الجنّتلمان⁽¹⁾

أو (من مكارم الأخلاق)



ربما نقترّب من تعريف الجنّتلمان إذا قلنا إنه رجل لا يتسبب في أيّ أذى لأيّ إنسان؛ ويكون اهتمامه أن يبعد العراقيل التي تعوق نشاط من حوله. وتكون مساعداته في إطار توفير الراحة والسلوان وما يحقق الرضى والاطمئنان. وهو لا يبادر دوماً من تلقاء نفسه، بل من المهم موافقة من يحتاج للمساعدة.

الجنّتلمان يتجنب ما يضايق الناس مثل تضارب الآراء، وتنافر المشاعر، وجميع ما يثير الشكوك والكراهية والاكْتئاب والنفور؛ بل يسعى دوماً إلى أن يجعل من حوله يشعر بالراحة والاطمئنان، فيلاطف الخجول، ويسامح السخيف، ويكرم من ليس بصديق أو قريب.

ويحاذر الجنّتلمان أن يتفوه بالتلميحات المنفرة، ويتجنب الموضوعات المزعجة، ولا يسعى للسيطرة على المناقشة؛ ويخفف من أهمية المزايا والمجاملات التي يقدمها؛ ولا يتحدث عن نفسه إلا عندما يدفع إلى ذلك دفعاً؛ ولا يدافع عن نفسه بالرد بالحجة المعاكسة؛ ويصمّ أذنيه عن أحاديث النميمة والإشاعات المضللة؛ ولا يسارع إلى

(1) العنوان : A definition of the Gentleman .

المؤلف : J. H. Newman (1801 - 1890).

توجيه الاتهامات إلى كل من يتدخل في أموره، بل يحاول أن يفسر ذلك ما استطاع بأسلوب إيجابي.

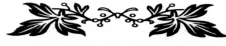
إنه يترفع، في خصوماته، عن أساليب التحقير؛ ولا يستغل إمكانياته وقوته ليسيء إلى خصومه؛ وهو، أثناء المناقشات، يركز على الموضوع، وليس على الأشخاص، ولا يتفوه بكلام حاد ومزعج أثناء الجدل؛ ولا يلمح إلى عيوب ومساوئ، إذا كان لا يرغب في ذكرها بصراحة. إنه يتوخى الحذر، ويعمل بنصيحة الحكيم القائل: عامل عدوك باحترام، فقد يصبح صديقك يوماً ما.

إن الجنتلمان يتمتع بقدر كاف من التعقل والثقة بالنفس، فلا ينزعج من الشتائم، ولا تشغل باله الإهانات والترهات، وهو راض عن نفسه مطمئن لكرم أخلاقه، لا يلجأ إلى الكيد والتحايل والانتقام. وطد نفسه على الصبر والتحمل، فلا يكثر من التذمر والتشكي.

إذا شارك في مجادلات، يستمع ويستوعب، لا يرتبك ولا يخلط الموضوعات، ويرتفع فوق الحماقات. فمن الكلام ما هو مبهم غامض، أشبه بالخنجر المتلثم يمزق بدلاً من أن يقطع قطعاً نظيفاً...

الجنتلمان، قد يكون مصيباً أو مخطئاً فيما يقول، ولكن أفكاره واضحة وأداؤه جلي، يجادل بالتي هي أحسن؛ لا يسعى للتغلب أو السيطرة على الآخرين أثناء المناقشة. بل إنه هادئ ومتواضع؛ في حديثه وضوح، وإيجاز، وفعالية؛ ويجعل هدفه أن يكسب خصمه إن لم يقنعه.

دفاع عن آرائي العقائدية⁽¹⁾



لقد تبين لي بوضوح أن مكاني في الحركة⁽²⁾ قد ضاع. تضعضت ثقة الناس بي، وضاعت وظيفتي. أصبح من المستحيل بعد الآن أن أقول (أو أكتب) شيئاً يأتي بفائدة، أو تكون له فعالية، بعد أن أعلن على الملأ، في الجامعات، في أرجاء البلاد، على جميع طبقات المجتمع، وعبر جميع وسائل الإعلام، في النوادي في الاجتماعات، ووسائل النقل... بأنني خائن هجر المؤسسة المقدسة... والواقع أن هناك رجالاً من ذوي المركز والشهامة دعموا موقفي، ووقفوا إلى جانبي.

ومرت الأيام.. ، فطلبوا مني أولاً أن أسحب المنشور؛ فرفضت. لم

(1) عنوان الكتاب: Apologia pro vita sua.

المؤلف: John Henry Newman (1801 - 1900).

يعتبر نيومان من أشهر رجال الكنيسة والأدب في القرن التاسع عشر. قاد حركة «أكسفورد» في كنيسة إنكلترا في محاولة لرفع مستويات أدائها الروحي، ورغبة في المقاربة بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية في روما. وقد نشطت حركة أكسفورد هذه كرد فعل أمام انتشار مظاهر المادية في العهد الفكتوري.

وفي 1841، كتب رسالة يوضح فيها مدى التقارب بين بنود عقيدة كنيسة إنكلترا ومبادئ الكنيسة الكاثوليكية. منعت السلطات الحركة المذكورة؛ ومرّ نيومان بأزمة عقائدية؛ ترك عمله في أكسفورد؛ ثم انضم إلى الكنيسة الكاثوليكية.

وفي 1864، نشر كتابه المذكور الذي تناول فيه تاريخ آرائه العقائدية، ويدافع فيه عن صدق إيمانه وإخلاصه لعقيدته عندما كان ضمن الكنيسة الأنجليكانية (الكنيسة الإنكليزية). وفي سنة 1879 عيّنه البابا كardinale.

(2) حركة أكسفورد.

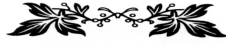
أفعل ذلك من أجل الذين لم تستقر بعد آراؤهم حول الموضوع؛ ولم أفعله من أجل نفسي. وكيف أوافق على مجرد تفسير بروتستانتى لبنود العقيدة الأنجليكانية؟

ثانياً، طلبوا مني أن ألزم الصمت، وألا أدافع عن المنشور؛ فأجبتُ: سأفعل، إذا توقفتُم عن مهاجمته، وتركتموه يُباع في الأسواق. وهكذا، كلما أظهرتُ لهم ليناً وتسامحاً، زادوا ضغوطهم عليّ؛ وعندما رأوا صمودي وعنادي، تراجعوا. كانت خطة عملهم أن ينالوا مني بقدر ما يستطيعون. ولكني بقيت صامداً فيما يتعلق بموضوع «المنشور الأول»، فتركوه يباع في الأسواق؛ ووعدوا بألا يشجبوا محتوياته. واشترطوا لذلك ألا أدافع عنه، وأن أتوقف عن الكتابة حول الموضوع؛ وأن أكتب رسالة إلى أسقف أكسفورد، أُدين فيها نفسي.

والحق أني لا أنسب إلى الأسقف أيّ اتهام. وقد كان من أكرم الناس خلقاً في معاملته معي. وقالوا كذلك بأنهم سوف لا يسألون عما قد يقوله بعض الأساقفة، بصفتهم الشخصية، حول المنشور، أو في شجبهم لمحتوياته. فوافقت على شروطهم، إذ كان هدفي الوحيد هو حماية حرية المنشور.

لم يكتبوا لي سطرًا واحدًا فيما يتعلق بتعهداتهم بشأن البند الرئيسي من التزامهم. وإنما قرأوا على مسمعى أجزاء من رسائلهم، من غير أن يسلموها إليّ. لقد كان ما حصل بيننا «تفاهماً». وكان رجل من ذوي الخبرة قد حذرني من «التفاهمات» قبل ذلك العهد بنحو ثلاث عشرة سنة. ومنذ ذلك الزمن كرهت «التفاهمات».

الإنسان البدائي النبيل⁽¹⁾



... أنا لا أوّمن بفكرة «الإنسان البدائي النبيل»؛ بل أعتبره مخلوقاً مزعجاً وخرافة كبيرة. وكوني أسمىه آكل النار العجيب، ويدعوني «مصْفَرَّ الوجه»، لا يقربني منه. فأنا أسمىه بدائياً، متوحشاً، والأجدر به أن يذهب بعيداً عن اليابسة. وأعتقد أن أيّ رجل، في أحط مستويات الحضارة، هو أفضل من مخلوق يُقَرَّق مثل الدجاجة، ويصفرّ، ويقفز، ويدك الأرض بقدميه، ويولول، ويمزق الأشياء.

ولا فرق عندي، سواء أَلصق المسكين عظاماً على وجهه، أو أدخل قطعاً من الخشب في شحمة أذنيه، أو وضع ريشاً على رأسه؛ وسواء نشر شعر رأسه يميناً وشمالاً، أو نشر أنفه على خديه، أو علق ثقلاً في شفته، أو سوّد أسنانه، أو تظاهر بقلعها، أو لوّن خدّاً باللون الأحمر

(1) هذه اقتباسات من مقال عنوانه «الإنسان البدائي النبيل» كتبه الروائي تشارلز ديكنز (Charles Dickens)، في شهر جوان (يونيو) سنة 1853، بمناسبة زيارة فرقة من قبيلة الزولو (جنوب إفريقيا) إلى إنكلترا، لأداء عروض مسرحية. وكم يستغرب المرء عندما يكتشف أن هذا الأديب الذي ذاق في شبابه مرارة الفقر والشقاء، ثم تزعم في روايته ضحايا السجون والأحياء الفقيرة، وتبني أفكاراً تقدمية في ميدان الإصلاح الاجتماعي، هذا الأديب هو الذي يكتب مقالاً مفعماً بعبارات الوقاحة والعنصرية؛ ويشن هجوماً لاذعاً مخزياً على فرقة الزولو الفنية وعلى فرقة أخرى من الهنود الأمريكيين. هذا مع العلم أنه أثناء القرن الثامن عشر سادت فكرة لدى عدد من الأدباء الأوروبيين مفادها «أن حياة الرجل البدائي النبيل» أسمى من حياة المتحضرين من سكان الغرب.

والآخر بالأزرق، أو نقش وشماً على جسمه، أو مسح جسده بالدهون والزيوت، أو حفر جلده بالسكاكين.

فمهما مارس من هذه الطقوس الغريبة والحركات البهلوانية، فهو بدائي وحشي زائف، مفطور على السرقة والقتل؛ مدمن إلى حد ما على تناول الأحشاء والشحوم، وعلى العادات الحيوانية. إنه حيوان وضع متوحش، يملك عادة التبجح، ومخلوق مغرور، متعجب، دجال، ممل، متعطش للدماء.

ومن الغريب أن نلاحظ بعض الناس يتحدثون عن هذا «البدائي النبيل» وكأنهم يتذكرون ماضي البشرية الطيب البريء الممتع، ويتحسرون على احتمال انقراضه من هذه الأرض أو تلك البلاد، بسبب ما يتعرض له العالم من تطورات؛ على أنني أعتبر انقراضه في الواقع حدثاً مريحاً وضرورياً لنشر بذور التطور والتقدم...

ولندكر السيد كاتلين الذي عاش بين قبائل عديدة من هنود الولايات المتحدة، وألف عن حياتهم كتاباً حماسياً، ثم جاء بمجموعة منهم، فكنا نشاهدهم يجلسون القرفصاء، ويبصقون على الطاولة، ويجثمون على الأرض، ويؤدون رقصاتهم السخيفة، بأسلوبهم الكئيب؛ ودعا السيد كاتلين المشاهدين إلى ملاحظة ما في حركات أعضائهم وأطرافهم من رشاقة وتناسق.

وصدق الحاضرون، بنية حسنة، ملاحظاته عن رقصاتهم، وتمثيلهم، بينما لم يكونوا في الواقع سوى حيوانات ومخلوقات بئيسة، سيئة الشكل والصورة، وضيعة في سلم المخلوقات.

ملخصات من الأدب الإنكليزي

أما الحكم عليهم، بصفاتهم رجالاً ونساءً يملكون مواهب في ميدان التمثيل، فلم يكونوا أحسن من الكورس (مجموعة المنشدين الذين يرددون لازمة الترنيمة أو الأغنية) في تمثيلية غنائية إيطالية في إنكلترا، بل كانوا أسوأ بكثير من ذلك.

وأعتقد أنه لو كان لنا أن نتعلم أي شيء من هذا «البدائي النبيل»، فهو أن نتعلم ما ينبغي لنا أن نتجنبه. إن ما يقال عن فضائله خرافة؛ وعن سعادته أوهام؛ وعن نبهه هراء. وليس في أنفسنا ما يبرر أن نقسو على هذا المخلوق البئيس، تماماً كما ليس في أنفسنا ما يبرر أن نقسو على شكسبير أو إسحاق نيوتن... ولكني أعتقد أن العالم سيكون أفضل عندما تتخلص البلاد من هؤلاء «البدائيين النبلاء».

أفسدوا الحياة: الأرض، الماء، الهواء

(رجل مثالي يتهم أهل عصره)⁽¹⁾



أصدقائي،

.....

هناك ثلاثة أشياء مادية ضرورية للحياة: الماء، الهواء، الأرض.
وثلاثة أشياء غير مادية، ضرورية للحياة: الإعجاب، الأمل، الحب.

الإعجاب بالشيء هو القدرة على تمييز ما هو جميل من الأشكال
المرئية، وما كان محبباً من السلوك البشري؛ وهو الابتهاج بكل ما هو
جميل ومحبيب في الإنسان وفي الطبيعة. ومن الضروري أن يسعى المرء
لإنتاج الأشياء الجميلة ليكون سلوكه مفيداً، ومرغوباً فيه.

الأمل: استغلال الفكر والبصيرة لإدراك الأهداف الصالحة التي
نسعى لتحقيقها، لتتطور ونرتقي، وفقاً لجهودنا وإمكاناتنا.

الحب: حب الأسرة والجيران بإخلاص ووفاء.

أولاً: يمكنك أن تفسد الهواء، بأسلوب حياة يقتل ويحي، إلى أن تتشر

(1) مقتطفات من «الرسالة الخامسة» لـ John Ruskin (1819 - 1900) ينتقد فيها
مساوئ المصانع والتكنولوجيا (في عصره)، ويمدح ظروف الحياة المتواضعة في
القرون الوسطى.

طاعون الهلاك على وجه البسيطة كلها. فأنتم (الكلام موجه للإنكليز والفرنسيين والألمان) تفسدون الهواء بنشر الغازات السامة، وانبعثت المواد الكيماوية، والتجمعات الكريهة التي تسمونها «المدن»؛ وهي أشبه بمصانع تنفث الدخان في الهواء.

ثانياً: تملكون قوة هائلة على الأمطار والأنهار. فبالإكثار من زراعة الأشجار ورعاية النباتات، يمكنكم أن تأتوا بالأمطار. وبوسعكم أن تجعلوا البحيرات الإنكليزية نظيفة طاهرة، تزخر بالأسماك.

ثالثاً: إن الأرض التي خلقها الله لتنتج الغذاء وتزدهر. أفسدتها أيها الإنسان الجحود بعلومك الشيطانية، فلوثت ماءها وهواءها، ونشرت المواد السامة فوق أديمها وفي أعماق البحار.

أما بخصوص عنصر «الإعجاب» بكل ما هو طبيعي ومفيد، فقد تعلمت بدله الاحتقار والكبرياء. فأراك تبعد عن الفنون الجميلة التي صنعتها يد الإنسان؛ وأصبحت تركض وراء ما تنتجه الآلة، وتساءل كل يوم: هل من مزيد؟

ثم إلى عنصر «الأمل» فتلاحظ أنه لم يبق في نفسك من القوة والإيمان ما يدفعك إلى التخطيط للمستقبل البعيد، ومن الصبر والذكاء ما يمكنك من أن تتصور كيف سيكون مصير وطنك في المستقبل.

وفيما يتعلق «بالحب» فقد أوصاك مؤسس عقيدتك أن تحب جارك كما تحب نفسك. فعمدت إلى تبني نظريات اقتصادية مفادها أن الإنسان ماكر، خداع، أناني بطبعه. ثم تمسكت بعبادات، وقمت

بأعمال دفعت النساء إلى الجنون، فأصبحن لا يفكرن في الحب والصحة، بل يُثَرَّنَ ضدك مطالبات بالعدالة.

فهل منكم، أيها الناس، من سئم وتعب من هذه المساوئ والفوضى الاجتماعية؟ ومن جميع ما يسيء إلى الأم «الأرض»؟ من منكم أيها الملاك، والمستأجرين، أصحاب الشركات والمصانع، والعمال، ومن من جميع السادة الأثرياء يفضل أن يتعامل مع البشر، وأن يخدمه البشر، بدلاً من الأجهزة المعدنية، والآلات الشيطانية؟

هل من هؤلاء من يتبرع بعشر ما يملك، أو مما يربح، لا من أجل أن يغادر إنكلترا، بل ليبقى فيها، وليعمل بساعديه وبقلبه ليجعل إنكلترا بلاد السعداء؟

لستُ غنيًا (حسبما يقدر الناس الثراء في أيامنا)، وقد استخدمت جزءًا كبيرًا مما أملك لمساعدة عمال الفنون الجميلة، وفي مشروعات خيرية أخرى. وسأقدم لكم عشر ما بقي لدي من مال (سأطلعكم على الحسابات) فيكون تحت تصرفكم إلى الأبد، وفي إطار ضمانات القانون الإنكليزي. سأفعل هذا في يوم عيد ميلاد المسيح من هذه السنة. بالإضافة إلى الالتزام بأن أقدم كذلك حق الزكاة من أرباحي بعد ذلك. فمن منكم يتبرع بالمساعدات، بالقليل أو الكثير؟

والهدف من جمع المال، وإنشاء هذا الصندوق، هو أن نبدأ، تدريجيًا، في شراء الأراضي في إنكلترا، بطرق قانونية مضمونة، شريطة ألا تستخدم للبناء بل لتزرع وتغرس وتستثمر بأيدي إنكليزية.

ولا يهمني أن نشرع في هذا المشروع على نطاق واسع أو محدود، ولا بأس حتى لو بدأنا بحديقتين أو ثلاثة.

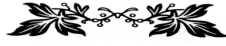
سنحاول أن نجعل قطعاً من أراضي بلادنا جميلة مثمرة هادئة مزدهرة. سوف لا نستخدم فيها الآلات الملوثة، ولا السكك الحديدية؛ ولا تدخلها مخلوقات بدون رعاية؛ ومن البؤساء ما عدا المرضى؛ ولا من الكسالى سوى الموتى. وكل من يدخلها يتقيد بتعليمات أولي الأمر. وهذه الأراضي البريئة الطاهرة ترحب بكل ما هو طيب وصالح؛ وتتبدد كل ما هو سيء، رديء ومفسد.

وعندما يرغب المرء في الراحة والاستجمام، يدخلها في أمن وسلام. وإذا دعت الحاجة إلى نقل أشياء عبرها، ننقلها بأيدينا، أو على ظهور الحيوانات، أو في عربات تجرها الدواب، أو في مراكب شراعية. نزرعها بأنواع الزهور، والخضر، والذرة، والأعشاب المفيدة. ولا يدخلها إلا قليل من القرميد والآجر.

وتتظم في هذه الأراضي، في حدائقها وبساتينها، حفلات للموسيقى، والشعر، والعروض الفنية؛ ونحاول إنشاء بعض الصناعات اليدوية النظيفة. ونسمح، تدريجياً، لبعض العلوم البريئة النظيفة أن تدخل هذه الأراضي، مثل علوم الحياة النباتية، وعلم التاريخ...

اخـلـصـ جـون راسـكين

الثروة والفرسية⁽¹⁾



يلاحظ أن النشاطات الاجتماعية في العالم «المتحضر»، خاصة في إنكلترا والولايات المتحدة، تستغل في التطورات المادية. وما يهدف إليه عصرنا هو إخضاع الطبيعة، والوصول بإمكانيات الإنتاج والتوزيع إلى غايتها القصوى. وقد كانت الإنجازات العسكرية تحتل أعلى الأولويات، عندما كانت قضية الدفاع الوطني، وإخضاع الدول الأخرى هي هدف الدول القوية.

أما اليوم، فقد أصبح الهدف الرئيسي هو النمو الصناعي، ولذلك تعطى الأولوية إلى كل ما يدعم هذا الاتجاه. لقد أصبحت السياسة الآن تركز على ما يمكن أن نسميه «الدستور التجاري»⁽²⁾؛ وأصبح الاهتمام الأول هو الإعجاب الزائد بالمال والثراء، وله علاقة وطيدة بأخلاقيات «عبادة الدولار» في الولايات المتحدة. ومن العسير اليوم أن يُفرق الناس بين الثروة التي تمثل تفوق الشخص، وتستغل لخدمة المنافع الاجتماعية، والثروة التي تتجاهل ذلك.

إن الإعجاب بالنجاح لمجرد أنه نجاح وكفى، شعور خبيث خاصة

(1) العنوان: Wealth and Chivalry.

المؤلف: Herbert Spencer (1820 - 1903).

(2) يعود حديثه هذا إلى سنة 1859.

عندما نسمع شخصية من كبار دعاةنا «الأخلاقين»⁽¹⁾ تدعو إلى مبدأ تبرير اللجوء إلى القوة؛ وعندما يقال لنا: إن أنانية قوية، تدوس على كل شيء في طريقها، من أجل تحقيق أهدافها، هي أنانية تستحق الإعجاب؛ وعندما يقال لنا: إن القوة مهما كان نوعها واتجاهها هي دعم لمهابتنا. عندئذ نخشى أن يتسع نطاق التصفيق للنجاح في حد ذاته، مع ما يصاحبه من مساوئ التجارة، ومهما كانت عواقبه وخيمة على الآخرين.

إنه لا يمكن إصلاح المجتمع بأفكار مثل «عبادة البطل»، التي تتطور إلى عبادة الرغبات البهيمية؛ ولكن بتفحص وسائل النجاح فحصاً دقيقاً، وبامتداح وسائل العمل التي تخلو من الأنانية.

لقد أصبحت المبادئ الأخلاقية العامة تنصح بالألا يقضي الأثرياء حياتهم في إشباع رغباتهم، بل عليهم أن يهتموا بالمصالح الاجتماعية المشتركة، وتحسين ظروف الحياة العامة المادية والفكرية.

وهذا حدث هام في تاريخ البشر، إنه يمثل نوعاً جديداً من «الفروسية النبيلة». إنه يعطي للثروات التي اكتسبها أصحابها بالطرق المشروعة حصة من التقدير فقط، بينما يمنح الإجلال والتعظيم لمن يكرسون إمكانياتهم وطاقاتهم لخدمة الأهداف الاجتماعية النبيلة. عندئذ فقط نتأكد من أن أخلاقيات التجارة، وما يرافقها من ثروات ومنافع، ستتطهر من شوائب الأنانية والجشع.

(1) يشير إلى الأديب كارليل وآرائه في «عبادة البطل».

حول جامعة أكسفورد⁽¹⁾



... كلنا نبحث عن شيء، ننشد شيئاً. والباحثون قد يخطئون. وأرجو أن ينعكس خطيء على سلوكي فقط، وألا يمس بجامعة أكسفورد، المدينة الجميلة! المقدسة جداً، المحبوبة جداً، الهادئة الرائقة، التي لم تخربها الحياة الثقافية الطاحنة في هذه القرون.

أكسفورد، السامية في الوجدان، تنشر مباحج حدائقها أمام ضوء القمر، وأبراجها تهمس آخر النغمات الساحرة المنسكبة من القرون الوسطى. ومن ينكر أن أكسفورد، بسحرها الرائع، ما زالت تدعونا إلى الهدف الحقيقي، الهدف المثالي، إلى السعي نحو الكمال والجمال الذي هو الحقيقة عندما نشاهدها من زاوية مختلفة؟

أيها الحاملة المحبوبة! التي أهدت نفسها بسخاء إلى أبطال وفئات ليسوا معي؛ ولكنها لم تهد نفسها أبداً إلى الانعزاليين والمتعصبين، أعداء النور. إنك أرض القضايا الضائعة، والعقائد المنبوذة، والألقاب المغمورة، والولاء المستحيل!

وأيّ مثال أسمى يلهمنا لنقمع أعداء الثقافة الحرة من الانعزاليين والمتعصبين؛ وأيّ معلم أسمى يمكن أن ينقذنا من تلك القيود التي ينزع نحوها كثير منا...

(1) هذه فقرات من كتاب عنوانه: «مقالات في النقد». (Essays on Criticism). للأديب Mathew Arnold (1822 - 1888).

ولعل الجامعة الموقرة تغفر لي إذا أنا اعتمدت على كرمها لتوجيه سهم أو سهمين نحو أحد أبنائها الجاحدين؛ إنها كريمة حقاً، والقضية التي أحارب من أجلها هي قضيتها. وأين معركتنا المتواضعة المؤقتة ضد أعداء الثقافة الحرة من المعارك التي قادتتها ملكة الرومانسية ضد أولئك الجاحدين عبر القرون؛ وستواصل حمل لواء الثقافة الحرة بعد أن نفنى.

من أقواله :

- لقد أعطاك القدر ما لا يستطيع الحظ أن يتحكم فيه، منحك صفاء الروح واستبصارها.
- إن الذين لا ينتظرون هدايا من الحظ هم الذين يسيطرون على مصائرهم.
- الطبيعة ترقب أبنائها يلعبون؛ ترى الإنسان يتحكم في الرياح؛ ثم تشاهد الرياح تكس الإنسان.
- في ضجيج الشوارع المزدحمة، وفي خضم المنازعات والصراعات، تتبع رغبة عارمة في البحث عن حياتنا الدفينة.
- الإنسان تائه بين عالمين: عالم العجز الذي يولد فيه، وعالم الموت الذي يسحقه.
- اترك الفكر جانبا، ودع القلب يحدث المرأة.

- لقد طال أمد هذا الشجار، وبقيت الإوزة هي الإوزة، مهما اختلفت
أسماءها .

- أيها الحب، فليخلص كل منا للآخر!

فالعالم الذي يبدو لنا كمروج الأحلام،

متنوعاً، متجدداً، جميلاً، بل ساحراً،

ليس فيه ابتهاج، ولا حب، ولا نور؛

ليس فيه سلام، ولا عون في ساعات الألم؛

فنحن نهيم فيه كأننا في سهول مظلمة،

تدفعنا أجراس خطر الصراعات،

بينما تتقاتل جيوش الجهل في ظلام الليل.

- إن زيادة جرس من الرغبة، أو نقصانه، فوق صدر ذلك النهر العظيم
الذي نسميه التاريخ، لا يغير شيئاً .

الرجال قوامون...⁽¹⁾



يتخيل الكاتب ما يحدث في المجتمع الإنكليزي، في المستقبل، عندما تسيطر النساء على مقاليد الحكم، ويصبحن مسئولات عن تسيير جميع مرافق الحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية؛ وتسود المجتمع عقيدة «المرأة المثالية».

في ذلك المجتمع الخيالي، يتم تربية الرجال منذ طفولتهم على أخلاق الحياء والطاعة والتواضع؛ وتمنع الكتب والدروس التي تتحدث عن صلاحية الرجال لهذا العمل أو جدارتهم بتلك المهنة أو ذلك الفن. ويعيش جنس الذكور في حالة خضوع تام لحكم النساء؛ يقومون بالأعمال المتواضعة، بأجور زهيدة.

وعندما يتزوج الرجل يحمل اسم زوجته العائلي؛ وتصبح ممتلكاته ملكاً لزوجته. وبمجرد أن تنجب زوجته، يصبح ملزماً، قانوناً، بملازمة المنزل لتربية الأطفال، والقيام بالأشغال المنزلية. ويصبح من حق السيدات النبيلات، ذوات المركز والشهرة، أن يخترن الشاب الذي يرغبن في الزواج به، وإن رفض يساق إلى السجن. وكذلك إذا اشتكت الزوجة زوجها، بدعوى أنه أضرَّ بها، فإنه يساق إلى السجن. وفي أيّ

(1) العنوان: The Revolt of Man .

المؤلف: Walter Besant (1836 - 1901).

عمل يقوم به فريق من الرجال، ينبغي أن تلازمهم امرأة لتفرض النظام والأدب والطاعة والهدوء.

ولكن لم يمض زمن طويل على حكم «المرأة المثالية» حتى تدهورت الأوضاع الاقتصادية؛ وتوقفت المعاملات التجارية الدولية؛ وانحط مستوى العلوم والفنون؛ وتعطلت وسائل المواصلات... وبدأت حالة البلاد تميل إلى الخراب...

وكانت هناك أستاذة في التاريخ، بجامعة كامبردج، تدعى دروثي، اهتمت بوضع البلاد وقامت ببعض البحوث، واستنتجت أن سبب التدهور هو عدم صلاحية النساء لتسيير البلاد، وقامت ببعض الاتصالات، مؤكدة أن جنس الرجال هو الذي ينبغي أن يحكم البلاد، ويسير جميع المرافق العملية التي يتوقف عليها تطور المجتمع.

واتفقت السيدة دروثي مع زوجها على تنظيم حركة ثورية للرجال؛ على أن يكون زعيمهم هو وريث العرش، الشاب إيرل أوف اتشسترت. ونظمت دروثي دورات تدريبية لوريث العرش، منها زيارة إلى الأكاديمية الملكية حيث كانت تُعرض سلسلة من اللوحات (جميعها من رسوم بنات حواء)، توضح إلى أي درجة مزرية انحط الفن.

كانت إحدى اللوحات تمثل امرأة «مثالية» تدير الأشغال؛ وأخرى تمثل رجلاً يضرب رجلاً آخر بعصى؛ ولوحة تمثل رجلاً راکعاً أمام مذبح في كنيسة، مخصص للأنوثة، وقد كدس حول هذا المذبح ما أنتج من الزهور، والفواكه، والخمور، تكريماً وتبجيلاً للمرأة المثالية؛ وفي

لوحة أخرى، كذلك من إنتاج السيدات، كان الرجل خافضاً طرفه في رهبة وإجلال، وكانت ملامح وجهه تعبر عن بعض الابتهاج والرضى، كما تعبر عن حالة من الورع والخضوع.

وواصلت السيدة دروثي شرحها قائلة: كانت الجامعات مخصصة للنساء، ولكن بما أنهنَّ يجدن صعوبة في تلقي العلوم الدقيقة، فقد اختفت هذه الأخيرة من برامج التدريس؛ وأصبح الناس يتساءلون، أين علوم الطبيعة، والفلك، والهندسة، والاقتصاد، والطب، وعلوم الميكانيكا، والمنطق... لقد أصبحنا لا نهتم بالكتب الكلاسيكية؛ ولا نستعمل الآلات التي اخترعها من سبقونا.

وسأل سائل: حدث كل هذا؟ ولماذا تدهورت الأوضاع إلى هذا المستوى؟

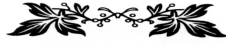
وأجابت السيدة دروثي: ذلك أن للمرأة القدرة على الأخذ، وهي أشد عطاء في مجال الروح والقلب والمشاعر... وهي أضعف من أن تنافس الرجل في ميدان الاكتشافات التقنية والفلسفية. إننا، معشر النساء، تجاوزنا الحدود، عندما حاولنا السيطرة على الرجال.

وفي نهاية هذه الرواية الخيالية، تكلفت ثورة الرجال بالنجاح، واستعادوا مراكز الحكم، ونهضوا بمسؤولياتهم. وسرعان ما تقبلت النساء الوضع الجديد؛ وشعرن بالراحة والاطمئنان؛ واسترحن من دراسة الموضوعات المعقدة؛ بل ابتهجن بمشاهدة الرجال يريزحون تحت أعباء الأعمال الشاقة؛ وأصبح بإمكان المرأة أن تتزوج في سن مبكرة،

بعد أن كانت لا تتزوج قبل سن الأربعين بسبب ما يتطلبه الاستعداد
لتحمل المسؤوليات المهنية والأسرية من تضحيات.

وتنفست المرأة الصعداء، ولسان حالها يقول: وداعاً للمنافسات
المرهقة؛ والدراسات المعقدة؛ دع الأشقياء يتحملون الأعباء الثقيلة...
ولننعم بالحياة، وبما يسبغه علينا الرجال من رعاية ومودة وغزل
لإرضاء أذواقنا ومشاعرنا.

نظرة إلى الماضي⁽¹⁾



يتخيل الكاتب بيلامي أن رجلاً يدعى جوليان ويسَّتَ يدخل في غيبوبة طويلة، سنة 1887، وهو في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة، ولا يستيقظ من نومه إلا عام 2000، وكم كانت دهشته عندما شاهد عجائب الاختراعات مثل الطائرات، التلفزيون... كما لاحظ أن النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي سيطر خلال القرن التاسع عشر قد زال، وحل بدله نظام جديد.

أصبح يسود الولايات المتحدة نظام «جيش الصناعات»، وهو يحقق التضامن والتكافل الاجتماعي، ويجعل البلاد كلها تعاونية زراعية، صناعية، تجارية. وينخرط في جيش الأمة كل فرد، يعمل في المرحلة الأولى من حياته في الزراعة إلى أن يبلغ سن الأربعين (مع بعض الاستثناءات)، بعد ذلك يكلف كل فرد بعمل يناسب كفاءاته الطبيعية.

وفي هذا النظام، يحصل جميع الناس على مكافآت متساوية بغض النظر عن قدراتهم واختصاصاتهم وحجم إنتاجهم. والشرط الأساسي هو أن يبذل كل فرد قصارى جهده. وعقاب من يقصر هو أن يعيش على الخبز والماء إلى أن يغير سلوكه.

(1) عنوان الحكاية: Looking Backward.

المؤلف: Edward Bellamy (الولايات المتحدة) 1850 - 1898.

ويقول المؤلف في قصته الخيالة ما مفاده:

- لكل مواطن في هذا المجتمع درجة من المسؤولية وفقاً لما يقدم من خدمات، غير أن مستوى دخله ومكافآته مساو لما يحصل عليه أي مواطن آخر مهما ارتفعت أو انخفضت مسؤولياته؛ وينال العاجزون والمعوقون والمرضى.. دخلاً لا يقل عن أقوى الناس بدنًا وأكثرهم نشاطاً وعلماً، لأن المقياس العادل هو أن يبذل الفرد الجهد المستطاع.

- إن حق الفرد في الغذاء، على مائدة الأمة، ينبع من كونه إنساناً، وليس لأنه قوي أو ضعيف، ما دام يبذل جهده ويعمل بإخلاص. إن أفراد المجتمع إخوة، وإذا كان لك أخ مريض في المنزل، هل تقدم له أسوأ الطعام وأحط اللباس لمجرد أنه غير قادر على العمل. ألا ترى أن الخدمة العسكرية واجبة فقط على من يطيقونها، ومع ذلك فإن الدولة توفر الحماية لجميع المواطنين، ولا تحرم العاجزين من حق المواطنة.

- انظروا كيف أن العمال اليوم قادرون على إنتاج كميات أكبر مما كان يُنتجها العمال في العهود القديمة، والسبب في هذا هو أنهم يستغلون ما ورثوه من تجارب الأولين واكتشافاتهم عبر آلاف السنين. أليس لهؤلاء المعاقين والمحرومين حق في ذلك الميراث الثمين؟

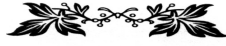
ويتخيل المؤلف في هذه القصة التي كتبها سنة 1888 أن الولايات المتحدة ستصبح دولة اشتراكية بحلول عام 2000، وأن المجتمع سيلغي استخدام النقود، وتنعدم التجارة في السلع لأن المواطن يحصل على

ملخصات من الأدب الإنكليزي

بطاقة شخصية تمكنه من الحصول على جميع احتياجاته من المخازن العامة، ذلك لأن الدولة تسيطر على جميع مرافق البلاد وقطاعات الإنتاج وتستغلها لمصلحة عامة السكان. ويعيش المواطن في أمان، وتسود المساواة فلا يبقى جائع ولا فقير، ويعمل المواطن من أجل نيل الاحترام والشهرة، وليس لجمع المال وتكديسه، وتختفي الأنانية والغرور والفساد، ويسود التسامح وكرم الأخلاق⁽¹⁾.

(1) تجدر الإشارة إلى أن المؤلف قام برحلة إلى أوروبا سنة 1868، وشاهد في مدنها كثيراً من آثار الفقر والشقاء، فاستنكر في كتابته تلك الآفات والشور الاجتماعية. ولعل ذلك مما حفزه إلى تأليف قصة من نوع Utopia التي يتخيل فيها الكاتب برنامجاً صالحاً لتأسيس مجتمع تسوده «العدالة».

لؤلؤة الحب⁽¹⁾



في شمال الهند، أرض البحيرات والغابات والجبال والوديان والأراضي الخصبة، أرض الشمس والأمطار، وقصص الحب الجميلة، كان يعيش أمير شاب يحكم بلاداً واسعة. تعرف الأمير على فتاة رائعة الجمال فأحبها وأحبته، وعاشا في ظلال الحب والبهجة والأحلام اللذيذة. غير أن الأميرة الحسناء أصيبت بمرض شديد بسبب حشرة لسعتها، وتوفيت بعد مدة قصيرة.

كانت وفاتها صدمة قاسية ذهبت بسعادة الأمير واطمئنانه، فاستولى عليه الحزن، فأصبح مشدوهاً قليل الكلام والحركة، وبقي يومين صامتاً مكباً على التابوت الذي يضم جثمان أميرته الحبيبة. ثم أمر أن يوضع جثمانها في تابوت من المعدن المرصع بالفضة، وأن يوضع هذا التابوت في صندوق صنع من أروع أنواع الخشب الثمين، مرصعاً بالذهب، وأن يوضع هذا في تابوت من المرمر المرصع بالأحجار الكريمة. وأثناء ذلك كان الأمير يقضي معظم وقته وسط الحدائق والمساح والمقصورات التي كان ينعم فيها برفقة أميرة قلبه الجميلة.

وذات يوم جمع مستشاريه وجمعا من السكان وأبلغهم أنه سوف

(1) مقتبسة من قصة عنوانها: The Pearl of Love.

للأديب الإنكليزي H. G. Wells (1866 - 1946).

لا يتخذ زوجة أخرى، وسيتبنى طفلاً أميناً صالحاً ليكون وريثاً للعرش من بعده، وأنه سيكرس جهوده وما أوتي من قوة وثروة ليشيد صرحاً تذكاريًا ليخلد ذكرى حبيبته الغالية؛ وسيسمى هذا القصر «لؤلؤة الحب».

ومرت السنين والأمير منهمك في بناء هذا التذكار العظيم. كان قصر «لؤلؤة الحب» في بادئ الأمر، يبدو للأمير قصرًا صغيراً، ولكنه أتقن بناءه وزخرفته بأشكال الدعائم والأقواس والقبب الملونة. وكان التابوت في وسطه يبدو كأنه طفل صغير ينام وسط الزهور.

وبمرور الزمن نضج خيال الأمير، واتسعت تجاربه وتطور ذوقه في انتقاء مواد البناء وألوان الزخرفة، فأصبح يطمح إلى تشييد بناء ضخم شامخ تتحدث عنه الأجيال. فراح يزيد عدد الدعائم والمقصورات، ويرفع القباب والأقواس والشرفات، ويغير الزخارف بين اللون الذهبي اللامع إلى اللون السماوي الأزرق، فتحول قصر «لؤلؤة الحب» التذكاري الأول إلى قصور ضخمة، وقبب وأبراج شامخة، تتخللها ممرات وحدائق تسر الناظرين. وتهامس الناس فيما بينهم: إنها لإحدى عجائب الدنيا، ما كنا نظن أن الحب ينجز أعجوبة كهذه.

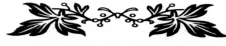
وظل الأمير يتردد على المكان، ويراقب من بعيد ذلك المشهد الرائع، ثم يقترب ليتأمل إنجازه الضخم، ويتجول بين الأجنحة والمقصورات المزخرفة، والقبب والشرفات المتطاولة، والدعائم والأقواس المتزاحمة، والممرات والساحات والأروقة الواسعة...

كان يشعر أن هناك شيئاً واحداً لم يتغير، إنه التابوت الحجري

الذي يضم رفات الأميرة. لقد أصبح يبدو كأنه حقيبة صغيرة وسط بحيرة سماوية شفافة، ولم يعد حجمه الصغير ينسجم مع ضخامة بناء «لؤلؤة الحب» وجلالها.

وذاذ يوم جاء إلى المكان، ومعه مهندس معماري وعدد من البنائين؛ وتأمل فيما حوله قليلاً ثم قال لمرافقيه: «أخرجوا ذلك التابوت من هنا».

التحفلة⁽¹⁾



كان صديقي بروس يقارب الستين عندما تعرفت عليه؛ وكان قد ألف خمسة عشر كتاباً. وأعتقد أنه لا يوجد كاتب مثله لا يبالي بما يقول الناس عنه، ولا يهتم بما تكتبه الجرائد عن مؤلفاته. وكانت السنة التي أسجل فيها هذه الحكاية سنة قاحلة في حياته المادية، عانى فيها من قلة ذات اليد. ويبدو أنه لم يكن يتناول الموضوعات التي تثير اهتمام معاصريه، وتستجيب لأذواقهم ورغباتهم، ولم يحقق آخر كتاب ألفه أي نجاح. وفي تلك الفترة خضع لعملية جراحية مكلفة.

كان يقطن في شقة في حي أدلبي، وعندما زرته في شهر أكتوبر من السنة التي أكتب فيها، وجدته مستلقياً، يدخل سجاير برازيلية من الصنف الحاد اللاذع. كان على ركبتيه حزمة من الأوراق، وأوراق أخرى مبعثرة حوله؛ و كان لغرفته مظهر بانس هزيل. لم أزره منذ نحو سنة، ولكنه استقبلني كأنني دخلت عليه بالأمس، وقال:

- أنت؟ أهلاً. ذهبتُ مساءً أمس إلى ذلك المكان الذي يسمونه سينما. وأنت هل ذهبت إلى السينما في حياتك؟

- في حياتي؟! ألا تعلم أن السينما موجودة منذ نحو عام ألف وتسعمائة؟

(1) ملخص قصة قصيرة عنوانها "Acme" للأديب الإنكليزي J. Galsworthy، 1933-1867.

- يا لها من تجربة! أكتب الآن قصة تشبه ذلك النوع من الأفلام؛ إنها قصة مثيرة. تناول ورقة، ضحك ضحكة خافتة، وقال:

«يبدو على بطلة قصتي الجميلة أن نسبة ضئيلة من أجدادها كانوا من السود، ملامحها ساخرة، عيناها ناعستان، صدرها ممتلئ متموج، كل رجل يرغب فيها، ولكنها متمسكة بالفضيلة أكثر من أي امرأة أخرى؛ وهي تقاوم ظروفًا قاسية ومغرية. لها أخ مثل الشيطان يعرف سرها الغامض، ويريد أن يبيعها إلى رجل مليونير، له سرّ غامض كذلك. وهكذا تضم قصتي القصيرة عددًا من الأسرار والمفاجآت، إنها تحفة».

- إنك تضيع وقتك يا صديقي!

- أضيع وقتي؟ وما فائدة وقتي؟! لا أحد يشتري كتيبي.

- ومن يريعاك ويهتم بشؤونك؟

- الأطباء؛ إنهم يأخذون النقود، لا أكثر من ذلك. على أيّ حال لم يبق معي نقود... البارحة، في ذلك المكان الذي يدعى «سينما»، يا إلهي! عرضوا سباقًا بين قطار وسيارة. أما أنا فقد نظمت سباقًا بين قطار، وسيارة، وطائرة، وفرس؛ أجل في قصتي القصيرة.

- هل تسمح لي بقراءة قصتك عندما تنتهي منها؟

- لقد أنهيتها. هل تظن أنني أبدأ شيئاً كهذا، وأتوقف، ثم أعود إليه، لقد كتبتها في جلسة واحدة. خذ، اقرأ! لقد سليت نفسي بكتابتها.

«إن سِرَّ بطلة القصة هو أنها لا تنحدر من أصل زنجي إطلاقاً؛ بل هي من أصل كريُولي خالص من الجنوب⁽¹⁾. أما أخوها الشرير، فليس بأخيها إطلاقاً؛ والمليونير الشقي، فهو مليونير زائف، مجرد عاشقٍ بائسٍ...»

أخذتُ القصة وانصرفت، أفكر في صديقي وما يعاني من بؤس وقلق ومرض. واندفعت في قراءة صفحاتها الخمس والثلاثين بحماس، فاكتشفت أن صديقي بَرُوسٌ قد كتب قصة رائعة لا ينقصها سوى لمسات طفيفة لتصحح لإنتاج فيلم ناجح؛ عندئذ يمكن لأي شركة سينمائية أن تشتريها.

ولكن كيف أعالج هذا الموضوع لمساعدة صديقي وهو قلق ثائر على ظروفه وكساد مؤلفاته؟ فإذا حدثته عن الفيلم والسينما، سيَرمي قصته في النار. فهل أعالج الموضوع وأسوق القصة دون علمه؟ ولكن كيف يتم التعاقد على إنتاج فيلم دون معرفته؟

ذهبت لزيارته في اليوم التالي، فسلمت عليه وقلتُ:

- هل تريد أن أعيد إليك هذه القصة؟ أم أحتفظ بها.

- اسْتَعِنْ بأوراقها على إشعال النار.

- أنت مشغول إذا؟

(1) كريُول (Créole) أحد مواليد جزائر الهند الغربية وأمريكا اللاتينية المنحدرين من أصل أوروبي.

- مشغول؟ ليس لي عمل حالياً. لا جدوى من التأليف؛ فكتبي لا تجلب لي ما أقتات به.

- ذلك لأنك لا تأخذ في الاعتبار ما يرغب فيه الجمهور.

- كيف استجيب لرغبات الجمهور، إذا كنت لا أعرف ماذا يريد الناس؟

- وإذا اقترحت عليك وسيلة لإمتاع الناس، هل تطردني من بيتك؟

كنت على وشك أن أضيف: «مثلاً، في جيبى الآن تحفة ثمينة...». غير أنني لم أجرؤ؛ وقلت في نفسي: لقد وهبني ذلك الشيء، (القصة).

أضفت إليها لمسات جعلتها ملائمة لإنتاج فيلم. وبعد التفكير في اسم المؤلف، قررت أن أقدم القصة إلى شركة قائلاً إنها من تأليف كاتب عبقرى لا يرغب في نشر اسمه لأسباب شخصية. وبعد مداوولات حصل الاتفاق على بيع القصة بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه استرليني. والواقع أن القصة كانت تحفة ثمينة فلم أجد صعوبة في تسويقها.

بقي عليّ الآن أن أقنع صديقي بروس المتمرد على ظروفه، بأن هذا المبلغ هو فعلاً ثمن قصته، وهو الذي لم يتعود على الحصول على مبلغ كهذا من مؤلفاته. وضعت المبلغ في حسابي في أحد المصارف، وكتبت صكاً باسم صديقي، وأخذت عقد بيع القصة وذهبت إليه.

كان مستلقياً، يدخن كعادته ويلعب قطة!

- أودّ أن أعترف لك بشيء، هل تسمع مني؟

- تعترف ؟ بماذا؟ تكلم!

- هل تذكر قصتك حول البطلة الساحرة وأخيها الشرير، و...

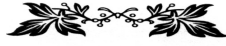
- ما بها؟ قل!

- إنها تصلح لإنتاج فيلم رائع. لقد بعته، وهذا عقد البيع ومبلغ ثلاثة آلاف جنيه؛ وإذا أردت أن تعتبرني وكيلك في العملية فلي عندك نسبة عشرة في المائة من المبلغ. إن الفيلم يعبر عن ثقافة العصر، ويتناول ما يرغب فيه الجمهور من متعة وتسلية. ربما كانت مشاهدته مبتذلة، رخيصة. ولكن انظر حولك! لقد أصبحت قيمنا رخيصة، وأخلاقنا منحطة. لا أعني أنت، ولكن الناس بصفة عامة.

لقد أصبحت الحياة، كما ترى، خالية من المسرات والمباهج، مثقلة بالمشاكل والمآسي. وفي هذا الخضم الكئيب، سئم الناس المشاهد المتجهمّة المزعجة، وأصبحوا يرغبون في مشاهدة ما يسليهم وينسيهم متاعب الحياة اليومية، ويثير في نفوسهم شيئاً من المشاعر والعواطف التي تتعش الحياة. وقد فعلت ذلك في قصتك، سواء قصدت أم لم تقصد. وهذا المبلغ حق لك. قد لا تعجب كثيراً بمصير قصتك، وقد لا تعجب بالفيلم... ولكن المبلغ حق لك.

وفجأة انتفخت أوداجه، وانفجر صوته: هراء، تفاهة، حماقة..! فوضعتُ الصك والعقد في يده، وأسرعتُ نحو الباب.

هل توقد الشمعة من طرفيها؟⁽¹⁾



كتب مراسل يسأل: ما أصل المثل «لا توقد الشمعة من طرفيها». فهل حدث أن صنعت شمعة بفتيلة في كل طرف من طرفيها؟ ولعلها كانت شمعة في شكل "U".

لا أتعجب من طرح هذا السؤال. ولا أعرف لما يمنع المرء من أن يوقد شمعة من طرفيها. والواقع لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا رجل ذو خيال وصبر جميل.

ومن الواضح أن هذا المثل يعني أنك إذا سهرت إلى ساعة متأخرة، لا تستيقظ مبكراً في اليوم التالي. وهذا يطرح أسئلة أخرى: من الذي يوقد الشمعة من طرفيها؟ من يسهر طويلاً؟ أم من يستيقظ مبكراً؟

يبدو لي أن معظمنا يقبل معنى الأمثلة الجارية بصورة عفوية، ودون تأمل. فعندما نسمع المثل القائل «غرزة واحدة تجنبك تسع غرزات»، لا نطلب الدليل على مطابقته للواقع. وما زلنا نسمع، على سبيل المثال، أحد القادة يقول: عصفور في اليد خير من اثنين على الشجرة؛ من غير أن يجادله أحد الحاضرين؛ على الرغم من أن الناس أصبَحُوا اليوم يدركون أن طائراً واحداً على الشجرة خير من اثنين، بل من عشرين في اليد، طبعاً باستثناء من يتاجرون في الطيور.

(1) للكاتب: Robert Lynd (1879 - 1951).

ولعل هذا المثل كان يتضمن شيئاً من الواقعية في الزمن القديم، أما في عصرنا، وقد صدر قانون حماية الطيور، فإنه لم يعد يتمشى مع المشاعر الاجتماعية. إننا نعيش في عهد السيارة، ولكن ما زلنا نتمثل بأمثال عصر الجمل؛ وقد جاء في مثل عن الجمل: أعطه بوصه، يأخذ أربعين. أما سائق السيارة فلا شك أنه يأخذ أكثر من ذلك.

لقد أشار المتشككون والساخرون مراراً إلى عدم مصداقية الأمثلة. لماذا نستمر في القول، مثلاً «إن الطيور على أشكالها تقع»، في حين نعرف أن الطائر المعروف باسم «أبو الحناء» لا يقبل أن يقترب منه حتى أبوه؟ ولماذا نكرر على مسامع أطفالنا «لا ربح بدون عناء»، ونحن نعرف أن نتائج «سَوَيْبَسْتِيك»⁽¹⁾ في مدينة دويلين، تكذب هذا القول؟

فكر كذلك في المثل القائل: «حافظ على القرش، وستحافظ الجنيهات على نفسها». لقد عرفت شخصاً انخدع بهذا المثل، فكان يحافظ على القرش لدرجة أن يتردد في ركوب الحافلة؛ ولكن جنياهاته ضاعت في سوق البورصة. وربما يجيب من يدافعون عن مصداقية الأمثال بأن المثل المذكور يؤكد صحة المثل القائل: حكيم في إنفاق القرش، أحق في إنفاق الجنيه». ولكن، في هذه الحال، ماذا نفعل بالأمثال التي يناقض بعضها البعض الأخرى لدرجة أنه إذا لم ينطبق مثل على الظرف والمقام، لجأنا إلى نقيضه!

لقد حان الوقت لتعيين هيئة من أهل المعرفة لدراسة مصداقية

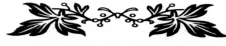
(1) Sweepstake ضرب من المراهنة على الخيل ينال فيه الرابح مجموع الأموال التي دخلت المراهنة، أو معظمها.

الأمثال، ومدى ملاءمتها لوقائع الحياة اليومية؛ وأن تلغي، إذا دعت الضرورة، تلك الأمثال التي تفسد منابع الحقيقة. وإني لأذكر جيداً مدى التأثير السلبي الذي تركته في نفسي، في عهد الطفولة، تلك الأمثال التي كان يطلب منا أن نسجلها في دفتر خاص. ومن ذلك أنني سجلت المثل «الحذر أفضل عناصر الشجاعة»، ورحت أكرره حتى صدقته.

وقد كنت قبل ذلك الحين لا أتردد في القيام بأعمال جريئة، وأحلم بأنني قادر على «أن أوقف الخيول الجامحة». فلما تسربت سموم ذلك المثل إلى دمي، أصبحت إذا شاهدت «فرساً جامحاً» ينطلق في الشوارع، تتحيت جانباً وأفسحت له المجال.

قد يكون مثل من الأمثال قولاً رائعاً، إذا صدقت نصفه فقط؛ فإذا صدقته برمته كان ملاحظة مبتذلة؛ فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فمن المحتمل أن يكون بعيداً عن الواقع والحقيقة.

الألعاب الرياضية: ضياع للجهد والوقت⁽¹⁾



يتقابل فريقان في مباريات رياضية، فينزل كل فرد على الكرة ضرباً، ورفساً، دفعاً وجذباً، مخاتلاً ومناوئاً، بدقة وسرعة تزيد أو تقل عن مناوئيه... عندما تحدث هذه المشاهد، أتساءل: لماذا يعير رجل مثقف تلك المبارات كل ذلك الاهتمام؟ وما هي مصلحته المباشرة في التوقف طويلاً عندها؟

أما أنا، فإن موقفي منها واضح وثابت، وأعتقد أنه موقف منطقي. إنني أعتبر الألعاب الرياضية هواية جيّدة للأطفال، ولكني لا أجدها شغلاً ملائماً للكبار. قد يبدو موقفي غريباً، ولكنه ليس مبالغاً فيه. فأنا لا أعارض الأنشطة الرياضية في مدارسنا، ولا أتحيز ضدها. وأعتقد أنه إذا تم تنظيم التمارين الرياضية على أساس تنافسي، أثناء سنوات المراهقة، فإنها قد تساعد على دعم الصحة البدنية والمعنوية للأطفال.

وأرى من العدل أن ينعم الأطفال، أثناء مرحلة دراستهم، بإظهار مهاراتهم البدنية، وبفترات من التفوق في ميادين الرياضة. أما الأطفال الأذكى، فيحققون تفوقهم وشهرتهم بعد تلك المرحلة؛ ولا يؤذيه أن يوبخوا أو يزجروا، بطريقة سليمة وعادلة، بين سن التاسعة والتاسع عشرة.

(1) العنوان : Sport? Pah!

الكاتب : Harold Nicolson (1886 - 1968).

ولا أبالغ إذا قلت أن عدداً كبيراً من الإنكليز، رجالاً ونساء، في بلادنا، يتمسكون طوال حياتهم بفكرة تقديس المهارات البدنية (التي استوعبوها أثناء طفولتهم. لقد أصبحت هذه الفكرة كأنها عقدة نفسية، بل إنها أشبه بجرعة سحرية سخيطة، مثل أي عمل سحري يشيع لدى إحدى القبائل المتأخرة. ألا ترون معي أنه إذا قال فتى «أكره الكتب» مثلاً، فإن أعضاء أسرته قد يشعرون ببعض القلق فقط؛ أما إذا قال «أكره التمارين الرياضية، أو الألعاب الرياضية»، فإنهم يتصورونه مريضاً، أو غير صادق في مشاعره...

هناك عدد كبير من الآباء والأمهات في إنكلترا يفضلون أن يلعب أبناؤهم «الكريكت»⁽¹⁾ في الفريق الوطني من أن يصبح عضواً في جامعة أكسفورد أو كامبردج. وليس هناك ما يفسر هذا الاختيار إلا ما أشرنا إليه من «عقدة السحر» السخيطة. على أن العضوية في إحدى الجامعات يعني نجاحاً مؤكداً؛ أما لاعب الكريكت في الفريق الإنكليزي فإنه لا يعني شيئاً بعد أن يتجاوز اللاعب سن الثلاثين من عمره. وهذه أوهام غير معقولة.

ويقول من سحرته عقدة الألعاب الرياضية بأنها تبني أخلاق الرجال. ولكني لا أستوعب هذا المنطق. فهل كان كليمانسو، وغاربالدي، ودريك، ونيلسون، وكلايف، وبييت⁽²⁾، وغيرهم من عظماء الرجال بلا أخلاق؟ لأنهم لم يشاركوا في مباريات رياضية.

(1) Cricket: لعبة من ألعاب الكرة والمضرب.

(2) W. Pitt.

أعترف بأن عقدة الألعاب الرياضية تخلق صفات سلوكية موحدة، غير أن هذه الصفات تظل راکدة جامدة محدودة في «ميدان العضلات». وماذا تستفيد الدولة والبلاد من ذلك؟ ويقول المولعون بالألعاب الرياضية بأنها تعلم العمل ضمن الفريق. وهل كان عظماء الرجال مشهورين بالعمل ضمن الفريق؟ إن عبارة العمل «ضمن الفريق» لا تتعدى كونها تعني «غريزة القطيع». وهي بهذا المعنى تحط من قيمة «الفرد»، وحب المغامرة، ومن الأناية الفكرية الإيجابية المقدسة.

وبينما يركض رجال الأعمال في بلادنا وراء كريات صغيرة في مروج الغولف، يسارع منافسوننا في برلين وموسكو ونيويورك إلى كسب الصفقات التجارية. فإيا لها من نشاطات صحية نسعى وراءها! والأمر هنا لا يقتصر على الوقت الضائع في التمارين والألعاب الرياضية. بل يشمل كذلك ضياع الطاقات. فالبدن يملك مقداراً محدوداً من الطاقة. فلماذا ننفقها في مجهودات غير منتجة؟ والأسوأ من ذلك أننا كثيراً ما نرجع مهزومين، نجر أذيال الخيبة عندما نتبارى مع بلدان أجنبية.

فلماذا إذاً كل هذا الولع بهذه العقدة السحرية: المبارات والألعاب الرياضية؟ والواقع أن الفرد الإنكليزي ليس غيبياً، ولكنه كسول. فهو يجد من السهل عليه، مثلاً، أن يمشي حول حقل الغولف، بدلاً من أن يعالج مشكلة عملية مفيدة. وهو بذلك يركض في الاتجاه المعاكس للتطور. ولعله لا يدرك حقيقة التطور التدريجي ومتطلباته. وربما يفسر هذه العبارة بشيء من الاستخفاف، ويتوجه إلى مضرب الغولف.

الألعاب الرياضية؟ الرأي الآخر⁽¹⁾



تجاوز السيد نيكلسون موقف السيد كيلنغ⁽²⁾. فقد أبرق وأرعد في هجومه على الألعاب الرياضية، ووصف اهتمام الناس بها بأنه أشبه «بالعقدة السحرية» لدى القبائل البدائية.

فعندما تهجم السيد كيلنغ على فرق اللاعبين قائلًا بأنهم «أصحاب قمصان الفلانيلا، المجانين السذج، الذين يلطخون أنفسهم بطين الملاعب..» إنما أراد منهم أن يرموا عصيهم وكراتهم، وأن يحملوا السيوف والبنادق.

أما السيد نيكلسون فله أسباب مخالفة تمامًا. فهو يتحدث عن وحدات الطاقة، وعن السعرات الحرارية في الدماغ... ويعتقد أن الطبيعة منحت الإنسان مخزونًا محدودًا من الطاقة إذا أنفقه في التمارين والألعاب الرياضية، يتعب الدماغ.

ولو أنه هاجم الألعاب الرياضية من جانبها الضعيف (ولا شك في أن هناك جانبًا ضعيفًا) لوجدت من العسير أن أَدافع عن موقفه. ولكنه شن هجومًا متهورًا على أوضاع اللاعبين الرياضيين في جميع

(1) العنوان : Sport for ever

الكاتب : Sir Robert Bruce Lockhart

(2) Rudyard Kipling (1865 - 1936).

حالاتها. فهو يعارض جميع الألعاب والتمارين الرياضية التي يمارسها البالغون.

ولتناول افتراضاته بالتفصيل. فهو يعترف مع شيء من التذمر بفوائد الألعاب الرياضية للأطفال. ولكنه يفترض أن الأطفال الأذكى لا يميلون إلى هذه الألعاب. والجواب على هذا هو أنه: هراء في هراء! قد يوجد من الأطفال الأذكى من لا يحبون الرياضة؛ ولكننا نجد أنه حتى من بين أذكى الأطفال ممن لا يستسيغون هذه الألعاب، إنما هم الاستثناء، وليسوا القاعدة. وليدرس السيد نيكلسون قائمة الطلاب الذين حصلوا على المنح الدراسية، وسيجد أنها تزخر بأسماء لاعبي كرة القدم، والكريكيت، والتنس، وكرة الطاولة وغيرها.

والافتراض الثاني هو قوله «من الآباء من يفضل أن يلعب ابنه في الفريق الرياضي الإنكليزي، بدلاً من أن يصبح عضواً في جامعة أكسفورد.. إلخ». ولا يسعني إلا أن أرفض فكرة نجاح هؤلاء (جماعة أكسفورد)، وضياح نصف حياة ممارسي الألعاب الرياضية.

إننا نجد في واقع الحياة أن هناك أعضاء في جامعتي أكسفورد وكامبردج نالوا امتيازات رياضية عالية؛ ومنهم من لم يشارك في الألعاب الرياضية. وفي كلتا الحالتين لم يكن النجاح والتفوق مضموناً للجميع. بل كانت أعلى نسبة من النجاح حققها الطلاب الرياضيون الذين يمثلون النموذج المثالي للثقافة و التربية الإنكليزية...

ويتناول افتراضه الآخر نظرية «الرجل العظيم» وكأنه يقول: إذا

وجد رجال عظماء مثل كليمانسو، غاربالدي، نيلسون... مع أنهم لم يشاركوا في الألعاب الرياضية، فلماذا ينهك المجانين والمساكين، مثلي ومثلكم، خلايا أدمغتهم في الركض وراء كرات مختلفة الأشكال والأحجام؟

إن وقائع الحياة تحدثنا بأن معظم الأبطال الذين ذكرهم اشتهروا بالنشاط والجهد العضلي في ممارسة أعمالهم. ولا ننسى أن دريك (Drake) كاد يتأخر عن «الأرمادا»⁽¹⁾ بسبب لعبة البولينغ؛ وأن كليمانسو كان من المبرزين في المبارزة بالسيف...

ويتناول السيد نيكلسون موضوع «التطور التدريجي». فيسخر من رجال أعمالنا لكونهم يهتمون بالتمارين الرياضية في الوقت الذي يستولى فيه منافسونا في العالم على الأسواق. والواقع أنني لا أعرف ماذا يعني السيد نيكلسون «بالتطور التدريجي». ولعله يشير إلى عصر التعمق في العلم والثقافة، عندما نصبح ذوي أدمغة كبيرة وأجسام ضعيفة.

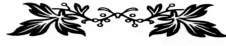
وأود أن ألاحظ بصدد الكلام عن «التطور...» بأن العالم يسير في طريق خطير؛ وأن ألمانيا أصبحت مولعة بالرياضة؛ وأن رجال الأعمال في نيويورك ينفقون مبلغ عشرة ملايين دولار سنوياً على رياضة الغولف وحدها؛ بل حتى موسكو أصبحت تفرض التمارين الرياضية على مواطنيها في إطار التدريبات العسكرية، والتمارين الرياضية الاجبارية.

(1) Armada: أسطول ضخّم أرسلته أسبانيا في محاولة لغزو بريطانيا، سنة 1588. وكان Drake أحد قواد الأسطول الإنكليزي، ولعب دوراً هاماً في هزيمة الأسطول الأسباني أرمادا.

ويعلم السيد نيكلسون جيداً أن شعبنا مولع بالألعاب الرياضية منذ أن لعب أجدادنا الأوائل كرة القدم بجمجمة رجل دنماركي. كما يعلم أن شهرتنا القومية تأسست على الألعاب الرياضية. لا يا سيدي، لا أقبل نظريتك السخيفة بأنه إذا اهتم المرء بدماعه، فإن البدن يهتم بنفسه. وقد حققت الألعاب الرياضية لشعبنا من الصحة والسعادة أكثر مما حققته أية تدابير سياسية وضعها حزبك، أو أيّ حزب آخر...

إن من يقولون بأنهم لم يمارسوا أية تمارين رياضية في حياتهم قد يكونون من العباقرة، أو لعلهم يستهزؤون!... وعلى أية حال، وبالإضافة إلى ما ذكر، لا تنس مطالب بدنك. فعليك أن تنهض، وأن تمارس بعض النشاط الرياضي؛ وإلا فإنني خلال خمس سنوات سأحملك على كرسي المرضى.

حول مطالعة الكتب⁽¹⁾



النصيحة الأولى، والوحيدة، فيما يتعلق باختيار الكتب هي أن يعتمد المرء على عقله وغبيرته، وأن يصل إلى استنتاجاته بنفسه. ولكن، لكي يتمتع الإنسان بحريته كاملة في هذا المجال ينبغي أن يكون واعياً؛ فلا يجوز له أن يضيع وقته وطاقاته عن جهل، كمن يبلى جميع المنزل من أجل أن يسقي نبتة. وهنا تنفع التجربة والتدريب.

ولعل منزلكم يضم كثيراً من الكتب المتراكمة هنا وهناك: قصص، روايات، أشعار، تواريخ مذكرات، سير وقواميس.. بلغات متعددة، لرجال ونساء من مختلف الأعمار والأجناس والطبائع.

كتب السير والتراجم والمذكرات تعرض أمامنا حياة أشخاص سبقونا، فكأننا نشاهدهم وهم ينجزون أشغالهم اليومية، مرحين، متعبين، ناجحين، فاشلين، يحبون ويكرهون، يتمتعون ويحزنون... إن معظم ما تضمه مكتباتنا هو سجل حافل بحوادث الرجال والنساء والحيوانات. وإذا تعب المرء من مطالعة أخبار السابقين، فلعله يشترق إلى بعض المتعة في القصص الخيالية، أو في قراءة الشعر...

وهذا المجال يشمل أعماقاً واسعة من المشاهد وألواناً من الصور

(1) العنوان : How should one read a Book?

المؤلفة : Virginia Woolf (1882 - 1941).

ملخصات من الأدب الإنكليزي —————

والمشاعر، نندمج فيها فنصبح مشاهدين وممثلين، وننتقل بخيالنا إلى عوالم أخرى من الانطباعات والحوادث الممتعة.

وكثيراً ما يُكوّن القارئ صداقة مع الكاتب، ويقوم أحياناً بدور الحكم، فيكون من المحبذين والمعجبين بمؤلفاته، أو المنتقدين أو الراضين لأفكاره. وهنا يحق لنا أن نتساءل: ما الحكم على أولئك الذين ألفوا كتباً زائفة، خرافية مضللة؟ وتتجلى لنا تفاهة هذه الكتب عندما نقارنها بما قرأنا لعظماء المؤلفين ممن كرسوا جهودهم لنشر المعرفة، وتطوير العلوم، وإصلاح المجتمع، وتقويم الأخلاق، وإنعاش الفكر، وتوعية النفوس الغافلة.

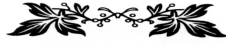
وليس في استطاعة كل قارئ أن يصدر حكماً نهائياً على أنواع المؤلفات في موضوعاتها المتعددة، لأنه عمل يتطلب المعرفة المتخصصة. ولذلك كان من الحكمة أن نترك الفرصة لأهل الذكر والعلم والتبصر لتقييم ما تحتويه أمهات الكتب من أفكار ومعلومات صحيحة ومفيدة أو فاسدة ومضرة. ولكننا نلاحظ أن داخل كل إنسان شيطان يهمس له ليكرر معه: «أنا أحب.. أنا أكره.. أنا أعرف..»، وهذه المشاعر تجعل علاقاتنا مع بعض المؤلفين (شعراء، روائيين..) حميمة لدرجة لا نسمح لشخص ثالث أن يتدخل في أذواقنا وفيما نقرأ وما نرفض. ولكن مرور الزمن يهذب أذواقنا والتجربة تنعش مشاعرنا وتوجهنا نحو الاختيار السليم...

لقد شاهدت في منامي مرة أنه عندما يأتي يوم القيامة، يوم الحساب الأخير، يحضر عظماء رجال الدولة، والقواد، والقضاة...

لينال كل منهم جزاءه. وشاهد الرب العظيم جمهورنا، نحن أهل العلم والقراءة، وكل منا يحمل كتبًا تحت إبطه، فالتفت إلى بطرس⁽¹⁾ وقال له: انظر إلى هؤلاء! ليس لدينا لهم جزاء أكبر مما يحملون؛ لقد كانوا من أهل العلم والقراءة في دار الدنيا.

(1) القديس بطرس، أحد أشهر حواربي المسيح عيسى عليه السلام.

جدال... أم قضية ذوق؟



كان يدور نقاش في المجتمع الإنكليزي حول مفهوم عبارتين، وأهمية مدلول كل منهما. والعبارتان هما: Highbrow و Lowbrow.

وقبل استعراض ملخص لكاتبين إنكليزيين حول هذا الموضوع، من الضروري شرح مدلول الكلمتين.

عبارة Highbrow (هايبرو):

- يقصد بها الشخص الذي يهتم بالأمر الفكرية الجدية، ويزعم أنها توفر له مزيداً من المتعة وتجعله يشعر بالأهمية.

- تطلق على شخص مثقف، تتقنه الحكمة التي تساعد على إخفاء عقدة الاستعلاء.

- شخص مثقف، ذو فكر نظري، متعالٍ، ينقصه التعاطف والتواضع الذي يصاحب المعرفة الحقيقية.

أما كلمة Lowbrow فتشير إلى شخص ضعيف الثقافة، منخفض المستوى الفكري، شخص متواضع، طيب القلب، يميل للمتعة البسيطة. وسيزداد مفهوم هذه الكلمة وضوحاً بعد قراءة ملخص المقالين التاليين⁽¹⁾.

(1) سأستعمل عبارة «الفئة الأولى» لتعني الجماعة التي تنتمي إلى فئة الـ Highbrows. وعبارة «الطائفة الثانية» لتعني الجماعة التي تنتمي إلى طائفة الـ Lowbrows.

ملخص رأي الكاتب الإنكليزي ألدوس هكسلي في مقاله

المعنون: أنتمي إلى فئة الـ Highbrows⁽¹⁾



يقول هكسلي في سياق الحديث عن هذه الفئة «إن الأمر يتعلق بالذوق لا غير. فقد يجد المرء متعة في أشياء ونشاطات مما ينسب إلى طائفة الـ Highbrows، تماماً كما يجد متعة في اختيار أكلة أو فاكهة أو لون دون غيره».

وعلى سبيل المثال قد لا يجد شخص متعة في سماع موسيقى الجاز، أو في قراءة الكتب المثيرة للمشاعر مثلاً، ويفضل عليها الاستماع إلى موسيقى بيتهوفن، أو قراءة قصص دوستويفسكي. وقد يجد لذة في الاستمتاع بلوحات Rubens، أو Elgreco، أكثر مما يجدها في مشاهدة صور الفتيات التي تنشر على أغلفة بعض المجلات.

هناك أشخاص لا يجدون متعة في مشاهدة سباق الخيل، أو مباريات كرة القدم، أو لعبة البريدج، أو في صيد الحيوانات لمجرد المتعة، فهذه هواية تثير في كثير من النفوس مشاعر الاشمئزاز والنقمة. وهم يفضلون على ذلك هوايات أخرى.

(1) عنوان المقال: I am A Highbrow.

للكاتب الإنكليزي Aldous Huxley (1894 - 1963).

يقول المثل، لا جدال فيما يتعلق بالأذواق، غير أن الموضوع يتجاوز حدود الذوق. ونلاحظ أن طائفة الـ Lowbrows يقولون عن الفئة الأخرى أنهم جفاة قساة، وعن أنفسهم أنهم رحماء طيبون. وترد الفئة الأولى (الهايبروز) بأنهم أصحاب الفكر المهذب، والذوق الرفيع، والخلق الدمث.

وبينما تفاخر الفئة الأولى بقله عددها الذي يجعلها طبقة خاصة، نخبة المجتمع، ويجعل مواقفها متميزة، تفاخر الطائفة الثانية بكونها تمثل الأغلبية، وبأن أفرادها هم النموذج الاجتماعي الفعال الذي ينبغي أن يحتذى.

«والواقع أن الخلاف بين الطائفتين لا يتعلق بأيهما على حق، وأيهما على باطل؛ بل بأسلوب الحياة ونوعها، وبميل الناس، ونشاطاتهم، وعاداتهم وثقافتهم واختياراتهم وقدراتهم ومؤهلاتهم. ويلاحظ أن الفرد من الفئة الأولى يتمتع بأشياء ونشاطات لا توجد في حياة الفرد من الطائفة الثانية. وأن ثقافته وإمكانياته الفكرية قد تساعده على أن ينسق في مجالات حياته تجارب وحقائق أوسع مما هو في إمكانية الفرد من الطائفة الثانية. فهذا الأخير يعيش في عالم تكون حوادثه منفصلة، لا علاقة تربط بينها. أما الأول فيعيش في عالم مكنه فيه علمه من ربط هذه الحوادث بعضها ببعض الآخر، فأصبحت تشكل مجموعة متألفة متكاملة مفهومة».

ويلاحظ الكاتب، على سبيل المثال، أن ما ينبعث من الموسيقى الشعبية التي تفضلها الطائفة الثانية، من مشاعر حماسية تزيد في شيوعها، توجد كذلك في أنواع الموسيقى الأخرى. غير أن هذه

المشاعر أمكن صقلها وربطها بموضوعات أخرى، مما أضفى عليها أهمية عامة. ويضيف هكسلي بأن أنواع الفنون التي تقدرها الفئة الأولى هي بصورة عامة أرقى وأسمى من تلك التي تفضلها الطائفة الثانية. ولا شك في أن الجهد الذي يبذله المرء لفهم الأعمال رفيعة النوعية يزيد في إثراء تجارب الإنسان وحياته.

ومع أن الكاتب يعتبر نفسه أقرب إلى الفئة الأولى، فإنه يتساءل هل حياة هذه الطائفة هي الحياة الكاملة المطمئنة التي تنتشر الخير والبهجة؟ وهل حياة الطائفة الثانية فارغة أو محدودة؟ ويرى أن الأولى أقرب لتحقيق المراد، إذا أخذنا جميع جوانب الحياة في الاعتبار؛ وإذا احتكنا إلى المعايير الجمالية الأدبية والعلمية نلاحظ أن محتوى حياة الفئة الأولى أغنى وأكبر أهمية من محتوى حياة الفئة الثانية.

ويبدو أن كثيراً من الناس، بحكم تكوينهم الفيزيولوجي وتربيتهم الاجتماعية، لا يجدون متعة كبيرة في العمليات الحياتية المعقدة والأفكار المعمقة، بل يفضلون الممارسات والتجارب والهوايات التي تجعل الحياة بسيطة متواضعة ومريحة، خالية من أسباب التسامي والتعقيد. ولعل هذا يعود بنا إلى نقطة البدء، إلى أذواق الناس وميولهم وقدراتهم.

ملخص رأي الكاتب الإنكليزي فرانكاو في مقاله

المعنون: أنتمي إلى فئة الـ Lowbrows⁽¹⁾



أجد نفسي مدفوعاً إلى تسجيل ما يلي رداً على آراء السيد هكسلي:

«لا أبحث عن قديسين ليرشدوني

عبر دروب حياتي،

ولا عن شياطين من الرجال والنساء يبعدونني

عن الدرب القويم

فإذا حصل ذلك، سأبتهج

وإذا لم يحصل لا أكثر،

ما دامت لي الحرية في اختيار من أعاشر».

هذا من كلام الأديب Kipling الذي لم تكن مشاهدة الصيادين على خيلهم في البراري يتسابقون لصيد الثعالب، تملأ نفسه بمشاعر الاشتمزاز أو النعمة.

(1) عنوان المقال: I Am A Lowbrow .

للكاتب الإنكليزي : Gilbert Frankau (1884 - 1952) .

وعلى هذا فإنني أشفق على السيد هكسلي ورفاقه من طائفة الـ Highbrows لأنهم في الحقيقة يفقدون كثيراً من متع الحياة. ولا أتفق معه عندما يقول إن حياة طائفته، أغنى وأمتع من حياة طائفتنا، بل إن الأمر عكس ذلك تماماً.

وعندما يقول إن محتوى حياته أغنى وأعمق وأهم من حياتي، فإن استعماله عبارة «أهم» يؤلني. ولا أدرك لماذا يظن هكسلي أنه أفضل مني لمجرد أنه يجد صورة فتاة مغرية على غلاف مجلة أقل إثارة من صورة فتاة جميلة رسمها الفنان Rubens في القرن السابع عشر. كما لا أظن أن من دلائل الفضيلة أن يقرأ قصة، فتوفر له متعة أعمق مما أشعر به أنا من لعبة البريدج مثلاً.

ولعل طائفته المتعالية تجد متعة في مناقشات حول مسائل الأذواق، أما نحن، طائفة الأحياء المتواضعة، فإننا نعتبر ساعات الاستجمام غالية لدرجة أننا لا نقبل أن نضيعها في كلام لا ترجى منه فائدة.

ويخطئ السيد هكسلي عندما يتصورنا «نعوى» حوله وهو يستمع إلى بيتهوفن أو يقرأ دوستويفسكي، ونكون شاكرين له لو يواصل اهتمامه بما يمتعه، ويتركنا مع موسيقى الجاز والروايات البوليسية.

ويزعم أننا نعيش في عالم حوادثه مبعثرة وغير مرتبط بعضها بالبعض، وأن ماله من علم يصهر هذه الحوادث في وحدة منسجمة تمكن الإحاطة بها. وهنا أذكره بقول الحكيم: إن شدة التعمق في العلوم قد تقود إلى الجنون. ونحن معشر Lowbrows (الطائفة الثانية) لا

نركز كثيراً على العلم إلا بقدر ما هو مرتبط بعملنا. الحياة عندنا تتلخص في كلمتين: العمل والاستجمام البدني والنفسي؛ ورائدنا في كل ما يعترضنا من مشاكل هو الضمير الحيّ والذوق السليم.

إننا نشارك السيد هكسلي في احترامه للعلوم التي تعالج الظواهر المادية، ونعتقد أن الفن قد يكون عديم الجدوى، ما لم يبلغ الفنان تجاربه للناس بكلمات بسيطة، وأصوات ورسوم واضحة. ويبدو لعقلي البسيط أنه من هذا الموقف تجاه الفن نتج الخلاف بين الطائفتين. فنحن نقول للفنان: كن واضحاً! وهم يجيبون: الأمر واضح بين، لو كنتم تدركون.

وقد يكون هذا الجواب مجرد إعجاب بالنفس، يلجأ إليه المرء عندما ينجز مهنته ببراعة، أو قل عنه شيء من عقدة التسامي. فالتقنيُّ الذي يصلح عطلاً في محرك سيارتك يحرص على أن يخفي شيئاً من سرِّ مهنته، وكذلك المحامي الذي يدافع عن قضيتك، والطبيب الذي ينجز عملية على جسم المريض. وعلى هذا القياس يكون من حق من يؤلف كتاباً مفيداً أن يشعر بشيء من التسامي، مثل المهني. ولكن لماذا يرفع رايته، وقد كتب عليها عبارة «أهم...».

انتهي بحمد الله

سلسلة مقال الثقافة

7



سلسلة
مقال
الثقافة

7

يقدم
الأستاذ
عبد العزيز
بن علوي

منارات

في رحاب الأدب العالمي

الرحلة

أساطير، تاريخ، أساطير، حكايات

كلمات تنعش الحياة

نقحات من الأدب العالمي

الشعر والحياة

الإنسان والقلق

حصار الأيام

أدب، فلسفة، تاريخ



نبذة عن المؤلف

ولد الأزرق بن علوي في الجزائر،

وحصل على:

- ليسانس في العلوم الاجتماعية من جامعة بلفراد (1961).
- ماجستير في العلاقات الدولية من الجامعة الأمريكية بواشنطن (1966).
- عضو البعثة الدبلوماسية الجزائرية في واشنطن (1964 - 1971).
- مراسل جريدة الشعب الجزائرية في واشنطن (1972 - 1975).
- موظف بمنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة في روما منذ (1979).

■ من مؤلفاته :

- ◆ نقحات من الأدب العالمي .
- ◆ الشعر والحياة.
- ◆ كلمات تنعش الحياة.
- ◆ الإنسان والقلق .
- ◆ حصار الأيام (ادب . فلسفة . تاريخ) .
- ◆ الرحلة (أساطير - تاريخ - ادب - حكايات) .

دار قباء الحديثة

الطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة



١٦ عمارات العبور شارع صلاح سالم - الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفون: ٢٢٦٦٢١٣٦٥ / ٠٢ - فاكس: ٠١٢٣١٧١٧٤٤ - ٠١٢٣١٧١٧٢٢ - ٠١٢٣١٤٠٣١٥